ميقات الحج

١٥

مجلة فصلية تعنى
بالشؤون الثقافية والتاريخية
والسياسية والاجتماعية للحج
محرم - جمادى الثانية
١٤٢٩هـ - السنة ١٥



بسم الله الرحمن الرحیم

دو فصلنامه « میقات الحج »

کاتب:

محمدی ری شهری

نشرت فی الطباعة:

مشعر

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

میقات الحج المجلد۱۵

اشارة

عنوان و نام پدیدآور : میقات الحج[پیایند: مجله]

مشخصات نشر : تهران: منظمهٔ الحج و الزیارهٔ، ۱۴۱۷ ق. - = ۱۳۷۵ -

فاصله انتشار : شش ماه یکبار

یادداشت : عربی

فهرست‌نویسی براساس سال۳ شماره۵ سال۱۴۱۷ق.

یادداشت : این نشریه در بیروت نیز منتشر می‌شود

یادداشت : المدیرالمسؤول: محمد محمدی‌ری‌شهری

رئیس‌التحریر: علی قاضی‌عسکر

یادداشت : کتابنامه

ترجمه عنوان : Mighat al - haj

موضوع : حج -- نشریات ادواری

شناسه افزوده : محمدی ری‌شهری، محمد، ۱۳۲۵، -مدیر مسئول

Muhammadi Reyshahri, Muhammad

قاضی عسکر، سیدعلی، ۱۳۲۵، - سردبیر

شناسه افزوده : سازمان حج و زیارت

رده بندی کنگره : BP۱۸۸/۸

رده بندی د... : ۲۹۷/۳۵۷۰۵

ص: ۱

الحج فی احادیث الامام الخمینی قدس سره

ص: ۲

ص: ٣

ص: ۴

ص: ۵

العدد الخامس عشر

الحج فی أحادیث الإمام الخمینی قدس سره

«کثیر من الأحکام العبادیة تصدر عنها معطیات اجتماعیة وسیاسیة، فعبادات الإسلام عادة تلائم سیاساته وتدابیره الاجتماعیّة.

واجتماع الحجّ یؤدّی- بالإضافة إلی ما له من آثار خلقیة وعاطفیة- إلی نتائج وآثار سیاسیة. استحدث الإسلام هذه الاجتماعات وندب الناس إلیها، وألزمهم ببعضها حتّی تعمّ المعرفة الدینیة والعواطف الأخویة، ویتمّ التعرف بین الناس، وتنضج الأفکار وتنمو وتتلاقح، وتبحث المشاکل السیاسیّة والاجتماعیّة وحلولها.

فی الدول غیر الإسلامیة تنفق الملایین من ثروة البلاد ومیزانیتها من أجل عقد مثل هذه الاجتماعات، وإذا انعقدت فهی فی الغالب صوریة شکلیة تفتقر إلی عنصر الصفاء وحسن النیّة، والإخاء المهیمن علی الناس فی اجتماعاتهم الإسلامیة، ولا تؤدّی بالتالی إلی النتائج المثمرة التی تؤدّی إلیها اجتماعاتنا الإسلامیة.

وضع الإسلام حوافز ودوافع باطنیّة تجعل الذهاب إلی الحجّ من أغلی أمانی الحیاة، وتحمل المرء تلقائیاً إلی حضور الجماعة والجمعة والعید بکلّ سرور

ص: ۶

وبهجة. فما علینا إلّاأن نعتبر هذه الاجتماعات فرصاً ذهبیة لخدمة المبدأ والعقیدة؛ لنبیّن فیها العقائد والأحکام والأنظمة علی رؤوس الأشهاد وفی أکبر عدد من الناس.

علینا أن نستثمر موسم الحجّ ونجنی منه أطیب الثمار فی الدعوة إلی الوحدة والدعوة إلی تحکیم الإسلام فی النّاس کافّة، علینا أن نبحث مشاکلنا ونستمدّ حلولها من الإسلام. علینا أن نسعی لتحریر فلسطین وغیرها.

فالمسلمون الأوائل کانوا یجنون من جماعاتهم وجمعاتهم ومواقف حجّهم أحسن الثمار» (۱).

الهوامش:

الحجّ فی‌احادیث الامام الخامنئی

۱- ۱ من محاضرات الإمام فی منفاه بالنجف الأشرف عام ۱۳۹۸ ه.

ص: ۷

الحجّ فی أحادیث الإمام الخامنئی

(مدّظلّه العالی)

قال اللَّه الحکیم: إِنَّ هذِهِ امّتُکم أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّکم فَاعْبُدُونِ (الانبیاء: ۹۲)

یعود مرة أخری موسم الحج، و یعود معه المشهد الاستعراضی العظیم المدهش المفعم بالحرکة والنشاط فی قاعدة الوحی والنبوة. أمواج بشریة هادرة من الشعوب الاسلامیة تتحرک من کل حدب و صوب؛ لتصب فی البحر الکبیر، ولتجسد تعایش الأمة الواحدة تحت لواء التوحید. مشاعر مترابطة تجمع هذه الکتل البشریة، تفصح عن آمال هذه الأمة الاسلامیة العظیمة وآلامها وتطلعاتها وقدراتها. ساحة الحج تستضیف الآن أناساً من ایران و العراق، من فلسطین و لبنان، من شبه القارة و شمال أفریقیا، من ترکیا و البوسنة، و من أرجاء آسیا و اروبا. هذه الأفئدة المشتاقة تستطیع أن تتحدث عما تحمله قلوب الأمة الاسلامیة، و إنما الحج من أجل هذا التقارب و التجاوب بین المسلمین من جمیع أرجاء العالم.

الرباط المقدس الذی یشدّ کلّ هذه القلوب هو نفسه النداء الذی انطلق لأول مرّة من هذه الأرض، و ملأالخافقین طولًا و عرضاً و امتدّ علی کل مساحة التاریخ ..

ص: ۸

إنه نـداء التوحيـد والوحـدة، توحيـد اللّه ووحـدة الأمة. التوحيد: رفض ألوهية الطواغيت والمسـتكبرين و جبابرة الثروة والقوة. الوحدة: مظهر عزّة المسلمين وقدرتهم ...

العالم الاسـلامي يحسّ بهبوب نسـيم الصحوة الاسلامية على وجهه المرهق الملتهب. و يرى مظاهر ذلك في كل بقاع العالم الاسلامي خاصـة في ايران العزّة والجهـاد، و كـذلك في فلسـطين و لبنـان. نور الأمـل يملأ قلوب الشـباب في كل مكان، وطلاسم تحكّم الغرب وإهانته وتحقيره للشـعوب قـد انفضّت. وهذه الفرصة لم تتوفر مجاناً، بل بتضـحية آلاف الأرواح الطاهرة على هذا الطريق. وما نسـتقبله من درب هو أيضاً صعب طويل، لكنه مفعم باليقين وخالٍ من أيّ شك وترديد.

الشـعب الفلسـطيني أخذ على عاتقه اليوم السهم الأكبر من مسؤولية شقّ هذا الطريق والسير عليه. وعلى الجميع أن يعاضدوا هذا الشعب المظلوم و الشجاع والمتيقظ. الشعوب الأخرى تستطيع بمناصرتها الشعب الفلسطيني البطل؛ أن تفي بسهمها في مواصلة هذا الطريق.

العـدو المسـتكبر الذي يرى في الصـحوة الاسـلامية تهديداً لأطماعه و مصالحه العدوانية، عمد إلى أهم ما في يده من سـلاح لمواجهة هذا المدّ المتصاعد، وهو سـلاح الحرب النفسـية: بثّ اليأس، الاستهانة بالهوية، استعراض العضلات، وسيشهد المستقبل ممارسة آلاف الأدوات والأساليب الاعلامية الأخرى .. كلّ ذلك من أجل بثّ اليأس في‌قلوب المسلمين من مستقبلهم، و بالتالي دعوتهم إلى مستقبل منسـجم مع أهـدافه الخبيثـة. هـذه الحرب الثقافية والنفسـية منذبداية عصـر الاسـتعمار حتى الآن كانت أمضـى أسـلحة الغرب في فرض سيطرته على البلدان الاسلامية.

وكـانت هـذه السـهام السامّـة تسـتهدف بالدرجـة الاولى النخبـات والمثقّفين؛ ثم سـائر الجماهير. ومواجهـة هـذه الدسـيسة إنما يكون بالإعراض عن ثقافة الغرب المتهكمة المفروضة.

ص: ۹

الثقافهٔ الغربیهٔ یجب غربلتها حتی یؤخذ منها ما کان مفیداً، و یلفظ من الفکر والعمل ما کان منها مضراً و مخرباً و مفسداً.

والحَکمُ فی هذه الغربلهٔ الکبری الثقافهٔ الاسلامیهٔ و ما یقدمه القرآن والسنّهٔ من فکر معطاء وضّاء و موجّه. هذا فصل أساسی من النضال الشامل الواحد الذی ینهض به علماءالدین والمثقفون والسیاسیون المخلصون فی جمیع أرجاء العالم.

علی أمل أن یستطیع حجّ هذا العام ترسیخ و تقویهٔ عزم الجمیع علی مواصلهٔ هذا الطریق المبارک الکریم (۱).

الهوامش:

مناسک الحجّ لصاحب المعالم

۱- ۱- من نداء سماحهٔ آیهٔاللَّه الخامنئی مدّظلّه العالیلحجاج بیت اللَّه الحرام، عام ۱۴۲۲ ه.

ص: ۱۰

مناسک الحجّ لصاحب المعالم

تألیف: جمال الدین العاملی

تحقیق: هادی القبیسی

ترجمة المؤلّف (۱)

اسمه ونسبه: الشیخ جمال الدین أبو منصور الحسن بن- الشهید الثانی- الشیخ زین الدین بن علی بن أحمد العاملی الجُبعی قدس سره.

مولده ونشأته:

ولد بجُبع فی السابع والعشرین من شهر رمضان سنة تسع وخمسین وتسعمائة للهجرة، وعاش مدّة قصیرة مع والده- وقد وقع الخلاف فی هذه المدّة ولسنا فی صدد تحدیدها فأقلّها أربع سنین وأکثرها اثنتا عشرة سنة- وکان تولّی تربیته وتعلیمه تلمیذ والده السیّد علی الصائغ، فدرس علیه وعلی السیّد علی بن أبی الحسن وهو والد السیّد محمّد صاحب المدارک، والسیّد محمد کان زمیل الشیخ المترجم له فی تمام مراحله الدراسیة. واستفادا من السیّد الصائغ أکثر العلوم التی استفادها من الشهید رحمه الله من معقول ومنقول وفروع واصول وغیرها، ولمّا انتقل السیّد علی إلی رحمة ربّه، ورد الفاضل المولی عبداللّه الیزدی تلک البلاد فقرءا علیه فی المنطق والمطول وغیرهما من الکتب. ثمّ بعد مدّة هاجرا إلی العراق ودرسا علی

۱- ۱ أمل الآمل ۱: ۵۷. أعیان الشیعة ۵: ۹۲. الدرّ المنثور ۲: ۱۹۹. ریاض العلماء ۱: ۲۲۵. لؤلؤة البحرین: ۴۰. قصص العلماء: ۳۰۲.

ص: ۱۱

المولی الشیخ أحمد- المعروف بالمقدس الأردبیلی- فقالا له: نحن ما یمکننا الإقامة مدّة طویلة، ونرید أن نقرأ علی وجه نذکره إن رأیت ذلک صلاحاً، قال: ما هو؟

قالا: نحن نطالع وکلّ ما نفهمه ما نحتاج معه إلی تقریر، بل نقرأ العبارة ولا نقف، وما یحتاج إلی البحث والتقریر تتکلّم فیه، فأعجبه ذلک وقرأا عنده عدّة کتب، فی الفقه والاصول والمنطق والکلام وغیرها. وکان رحمه الله یکتب شرحاً علی الإرشاد ویعطیهما أجزاءً منه ویقول: انظروا فی عبارته وأصلحوا منها ما شئتم، فإنّی أعلم أنّ بعض عباراته غیر فصیح. «فانظر إلی حسن هذه النفس الشریفة». وکان البعض یهزأ بطریقة دراستهما، وکان الشیخ یقول: عن قریب یرجعون وتأتیکم مؤلّفاتهما. وکانت إقامتهما مدّة قلیلة، قیل: إنّها سنتان، ولمّا رجعا صنّف الشیخ حسن المعالم والمنتقی، والسیّد محمّد المدارک، ووصل بعض ذلک إلی العراق قبل وفاة الملّا أحمد الأردبیلی رحمه الله.

أقوال العلماء فیه

الحرّ العاملی فی أمل الآمل: کان عالماً فاضلًا عاملًا متبحّراً محقّقاً ثقةً، فقیهاً وجیهاً، نبیهاً محدِّثاً جامعاً للفنون، أدیباً شاعراً زاهداً عابداً ورعاً. جلیل القدر عظیم الشأن کثیر المحاسن، وحید دهره، أعرف أهل زمانه بالفقه والحدیث والرجال،... کان حسن الخط جیّد الضبط، عجیب الاستحضار حافظاً للرجال والأخبار والأشعار (۱)...

الأفندی فی ریاض العلماء: الفقیه الجلیل، والمحدِّث الاصولی الکامل النبیل المعروف بصاحب المعالم، ذو النفس الطاهرة والفضل الجامع والمکارم الباهرة، هو مصداق «الولد سرّ أبیه» بل هو أعلم، ومظهر المثل السائر «ومن یشابه أبه فما ظلم» کان رضی اللَّه عنه علّامة عصره، وفهّامة دهره، وهو وأبوه وجدّه الأعلی وجدّه الأدنی وابنه وسبطه «قدّس اللَّه أرواحهم» کلّهم من أعاظم العلماء (۲).

السیّد مصطفی التفرشی فی نقد الرجال: وجه من وجوه أصحابنا، ثقة، عین،

۱- ۱ أمل الآمل ۱: ۵۷ و ۵۹.

۲- ۲ ریاض العلماء ۱: ۲۲۵.

ص: ۱۲

صحیح الحدیث، ثبت واضح الطریقة، نقی الکلام، جیّد التصانیف (۱).

السیّد علی خان المدنی فی سلافة العصر: شیخ المشایخ الجلّة، ورئیس المذهب والملّة، الواضح الطریق والسّنن، الموضح الفروض والسُنن، یمّ العلم الذی یفید ویفیض، وخضم الفضل الذی لا ینضب ولا یغیض، المحقّق الذی لا یراع، والمدقّق الذی راق فضله وراع، المتفنّن فی جمیع الفنون، والمفتخر به الآباء، والبنون، قام مقام والده فی تمهید قواعد الشرائع، وشرح الصدور بتصنیفه الرائق وتألیفه الرائع، فنشر للفضائل حللًا مطرّزة الأکمام، وأماط عن مباسم أزهار العلوم لثام الأکمام، وشنف الأسماع بفرائد الفوائد، وعاد علی الطلّاب بالصِلات والعوائد، وأمّا الأدب فهو روضة الأریض، ومالک زمام السجع منه والقریض، والناظم لقلائده وعقوده، والممیّز عروضه من نقوده،.... (۲).

البحرانی فی اللؤلؤة: أمّا صاحب المدارک وخاله المحقّق المدقّق ففضلهما أشهر من أن ینکر، ولاسیّما الشیخ حسن فإنّه کان فاضلًا محقّقاً، وکان ینکر کثرة التصنیف مع عدم تحریره، ویبذل جهده فی تحقیق ما ألّفه وتحبیره وهو حقّ حقیق بالاتّباع... وهو أجود تصنیفاً وأحسن تحقیقاً وتألیفاً ممّن تقدّمه (۳).

أساتذته ومشایخه فی الروایة (۴)

۱- السید علی الصائغ.

۲- السیّد علی بن أبی الحسن والد السیّد محمّد صاحب المدارک.

۳- الشیخ حسین بن عبد الصمد العاملی والد الشیخ البهائی.

۴- الشیخ أحمد بن سلیمان العاملی النباطی. وهؤلاء الأربعة من تلامیذ الشهید الثانی رحمه الله.

۵- مولانا الشیخ أحمد الأردبیلی. المعروف ب (المقدس الأردبیلی).

۶- مولانا الشیخ عبداللّه الیزدی.

۷- ونقل أنّه مجاز من والده الشهید رحمه الله.

۱- ۱ نقد الرجال ۱: ۲۵.

۲- ۲ سلافة العصر: ۳۰۴.

۳- ۳ لؤلؤة البحرین: ۴۴- ۴۵.

۴- ۴ الأعیان ۵: ۹۶، أمل الآمل ۱: ۵۸. لؤلؤة البحرین: ۴۸.

ص: ۱۳

تلامذته والراوون عنه (۱):

۱- الشیخ نجیب الدین علی بن محمد بن مکّی العاملی الجبیلی.

۲- الشیخ عبد اللطیف بن محیی الدین العاملی.

۳- الشیخ عبد السلام بن محمّد الحرّ العاملی جدّ صاحب الوسائل لأُمّه وعمّ أبیه.

۴- السیّد نجم الدین بن محمد الموسوی السکیکی.

۵- ولده الشیخ محمد والد الشیخ علی صاحب الدرّ المنثور.

۶- ولده الشیخ علیّ.

وفاته ومدفنه (۲):

انتقل إلی جوار ربّه فی شهر محرّم الحرام سنة ۱۰۱۱ ه، فیکون سنّه اثنتین وخمسین سنة وشیئاً. لم یختلف أحد فی سنة الوفاة، لکن حفیده لم یتعرّض لشهر الوفاة، مع أنّه هو الذی حدّد سنّه یوم توفّی فیکون مقارناً لما ذکره السیّد الأمین والحرّ العاملی من أنّ وفاته فی محرّم الحرام، ودفن فی بلدة جُبَع، وقبره معروف ومشهور.

مصنّفاته:

۱- منتقی الجمان فی الأحادیث الصحاح والحسان، خرج منه کتب العبادات ولم یتمّه.

۲- معالم الدین وملاذ المجتهدین، خرج منه مقدّمة فی الاصول وبعض کتاب الطهارة ولم یتمّه.

۳- کتاب مناسک الحجّ وهو الذی بین أیدینا.

۴- الرسالة الاثنا عشریة فی الطهارة والصلاة، وقال بعض: إنّها فی الصلاة.

۵- أجوبة المسائل المدنیات الاولی والثانیة والثالثة، سأله عنها السیّد محمد ابن جویبر.

۱- ۱ الأعیان ۵: ۹۶، أمل الآمل ۱: ۵۸. لؤلؤة البحرین: ۴۸.

۲- ۲ الدرّ المنثور ۲: ۲۰۳، الأعیان ۵: ۹۲، أمل الآمل ۱: ۶۳.

ص: ۱۴

۶- التحریر الطاووسی، وهو تهذیب کتاب حلّ الإشکال فی معرفة الرجال لابن طاووس.

۷- شرح علی ألفیة الشهید الأوّل. علی ما وجد بخط الفاضل الهندی.

۸- رسالة صغیرة فی عدم جواز تقلید المیّت.

۹- حواش علی الکافی والفقیه والتهذیبین.

۱۰- حواش علی شرح اللمعة لوالده غیر مدوّنة.

۱۱- حاشیة علی مختلف العلّامة مبسوطة فی مجلّد.

۱۲- مشکاة القول السدید فی تحقیق معنی الاجتهاد والتقلید.

۱۳- دیوان شعر جمعه تلمیذه الشیخ نجیب الدین علی بن محمد بن مکّی العاملی.

۱۴- إجازة کبیرة معروفة أجاز بها السیّد نجم الدین ابن السیّد محمد الحسینی العاملی، وولدی المترجم الشیخ محمد والشیخ علی، فیها فوائد کثیرة وتحقیقات لا توجد فی غیرها.

۱۵- کتاب الإجازات وهو غیر الإجازة الکبیرة.

۱۶- ترتیب مشیخة من لا یحضره الفقیه.

۱۷- وقد نسب إلیه الشیخ عبد النبیّ الکاظمی العاملی فی تکملة الرجال کتاب شرح اعتقادات الصدوق.

فی رحاب الکتاب

أهمّیته:

لقد صنّف الکثیر من العلماء کتباً فی أحکام الحجّ والعمرة، ولکلّ میزة یمتاز بها عن غیره فی المطالب العلمیة، وما یمتاز به هذا الکتاب هو أنّ الشیخ المترجم بیّن بعض مبانیه الفقهیة المهمّة فیه. وقد ذکرها فی طیّ أبحاثه ونحن نذکرها بالترتیب:

ص: ۱۵

منهـا: مـا ذکره فی النیـة حیث قـال: طال فی بیانها کلام المتأخّرین وخلا منه حـدیث أهل البیت علیهم السـلام رأساً، وکـذلک قـدماء فقهائهم، الذین لم یتجاوزوا المأثور عنهم فیما دوّنوه من الأحکام الشرعیة، ولم یحتاجوا إلی مضاهاة أهل الخلاف فی تولید المسائل.

ومنها: قال عنـد ذکر مواقیت الإحرام: ومن کان منزله دون هـذه المواقیت إلی مکّهٔ أحرم منه. والمعروف فی کلام الأصـحاب شـمول هـذا الحکم لأهـل مکّهٔ فیکـون إحرامهم بالحـجّ من منـازلهم، مع أنّ النصّ الوارد بـالحکم لا ـ یتنـاولهم، وفی حـدیثین من مشـهوری الصحیح ما یخالف ذلک:

أحـدهما: مـا روی عن عبـد الرحمن بن الحجّاج عن أبی عبـداللّه علیه السـلام قلت له: إنّی اریـد الجوار فکیف أصـنع؟ قال: إذا رأیت هلال ذی الحجّهٔ فاخرج إلی الجعرانهٔ فاحرم منها بالحجّ.

الثانی: عن سالم الحنّاط قال: کنت مجاوراً بمکّهٔ فسألت أبا عبداللّه علیه السـلام من أین أحرم بالحجّ؟ قال: من حیث أحرم رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم من الجعرانهٔ.

والعجب من عدم التفات الأصحاب إلی هذین الحدیثین مع انتفاء المنافی لهما من الأخبار وصحّهٔ طریقهما.

ومنها: عند ذکر الطواف: ثمّ یقف بإزاء الحجر الأسود مستقبلًا له جاعلًا أوّل جزء منه ممّا یلی الرکن الیمانی، محاذیاً لأوّل کتفه الأیسر، ولو ظنّاً علی المعروف فی کلام متأخّری الأصحاب، ولا بأس بالتزام ما ذکروه خروجاً من خلافهم، فأحادیث أئمّتنا علیهم السلام خالیهٔ عن التعرّض لهـذا التحریر، ظـاهرهٔ فی نفی المضایقـهٔ بهـذا المقـدار. ثمّ قال: ویراعی فی آخر الشوط السابع الختم بما بـدأ به، فیحاذی بأوّل بـدنه أوّل جزء من الحجر علی نحو ما ذکر فی الابتداء. والحال هاهنا نظیر ما قلنا هناک من عدم الدلیل علی اعتبار هذا التضـییق، لکنّه المعروف فی کلامهم، ولا بأس بوفاقهم، ولم یتعرّض للزوم الانحراف عند فتحتی الحجر أصلًا ممّا ضیق به

ص: ۱۶

المتأخّرون بدون دلیل.

ومنها: ما ذکره فی أرکان الحج... وأراد من الرکن ما یبطل الحجّ بفواته عمداً لا سهواً، واستثنی منه فوات الموقفین، فجعله فیه بمعنی ما یبطل عمداً وسهواً. ولا ـ ضرورة إلی هذا التکلّف مع أنّ الکلام لا ـ یخلو من نظر. وستعلم الحال من تحقیق الحکمین فیهما عند الانتهاء إلی محلّه. ویظهر أنّ الوجه قصر الاستثناء علی الوقوف بالمشعر.

نسبته وتسمیته:

لم یتردّد أحد ممّن ترجم له فی نسبة الکتاب إلیه، فقد تعرّض السیّد الأمین فی الأعیان لفقرات منه. وقال البحّاثة الکبیر الشیخ آقابزرگ الطهرانی فی الذریعة:

مناسک الحجّ: لصاحب المعالم الشیخ جمال الدین أبی منصور الحسن بن زین الدین الشهید الثانی المتوفی ۱۰۱۱ ه، ابتدأ فیه بعد عدّة فصول فی فضل الحجّ وثوابه وآداب السفر للحج بأعمال المدینة، قال بعد عدّة فصول: [فصل وحیث کان من توفیق اللَّه سبحانه فی طریقنا إلی الحجّ الابتداء بدخول مدینة سیّدنا رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فلا بأس بتقدیم القول فی فضل زیارته وبیان وظائفها، وسائر ما یستحبّ من الأعمال بالمدینة، وإن کان المتعارف بین الأصحاب تأخیر الکلام فی] (۱).

وأمّا تسمیته: فکلّ من عدّ مصنّفات الشیخ عدّ منها (مناسک الحج) ولم ینسب له کتاب فی الحج بغیر هذا الاسم سوی ما أورده الطهرانی رحمه الله فی الذریعة ۲۲: ۲۵۹ آخر الصحیفة حیث قال: «ورأیت نسخة کتابتها سنة ۱۲۲۱ وسمّاه علی ظهرها (تلخیص المرام فی فقه حجّ بیت اللَّه الحرام) انتهی.

أقول: ولعلّ الوهم الذی حصل ممّا ذکر فی مقدّمة الکتاب حیث قال رحمه الله:

«وبعد فهذه نبذة من الکلام فی فقه الحجّ إلی بیت اللَّه الحرام» وأنت تعلم أنّ هذا لیس فی مقام التسمیة، ثمّ إنّ هذا الکاتب علی النسخة من أین أتی بالجملة الاولی

۱- ۱ الذریعة ۲۲: ۲۵۹.

ص: ۱۷

وهی تلخیص المرام، والـذی یهوّن الخطب أنّ هذه التسـمیة لم تنقل عن أحد من أصـحاب التراجم، وإنّما وجدت مکتوبة علی نسـخة متأخِّرة التأریخ عن غیرها، ومع هذا فقد عملنا بالمشهور.

نُسخه:

نذکر ما عثرنا علیه من النسخ:

۱- نسخة فی الخزانة الرضویّة الفقرة الأولی من مجموعة رقم ۱۹۷۰۳ کتبت سنة ۱۰۱۴ ه، لم تفهرس إلی الآن.

۲- نسـخة فی مکتبـة آیـة اللَّه السـیّد المرعشـی النجفی قـدس سـره الفقرة السابعـة من مجموعة ۹۸۹۹، کتبت سـنة ۱۰۲۷، ذکرت فی فهرسها ۲۵: ۱۹۴.

۳- نسـخة فی مکتبة آیة اللَّه السـیّد المرعشـی النجفی قدس سره الفقرة الرابعة من مجموعة رقم ۶۳۵۷ کتبت سنة ۱۰۴۸ ه، ذکرت فی فهرسها ۱۶: ۳۲۲.

۴- نسـخة فی مکتبـة آیـة اللَّه السـیّد المرعشـی النجفی قـدس سـره الفقرة الاولی من مجموعة ۱۶۹۱ کتبت سـنة ۱۳۵۹ ه، ذکرت فی فهرسها ۵: ۸۵.

۵- نسخة فی مکتبة الإمام الرضا علیه السلام ضمن مجموعة ۱: ۹۵۹.

۶- نسخة فی مکتبة السیّد محسن الأمین العاملی، ذکرت فی الأعیان ۵: ۹۶.

۷- نسخة کتبت سنة ۱۲۲۱ ه ذکر الطهرانی أنّه رآها. انظر الذریعة ۲۲:

۲۵۹، وهی التی قلنا: إنّ اسمها (تلخیص المرام فی فقه حج بیت اللَّه الحرام).

۸- نسخة فی خزانة المیرزا محمد الطهرانی وبخطّه. ذکرت فی الذریعة ۲۲:

۲۵۹.

۹- نسخة فی مکتبة السیّد حسن الصدر علیها تملک صاحب المقابیس.

ذکرت فی الذریعة ۲۲: ۲۵۹.

النُسخ المعتمدة فی التحقیق:

۱- نسخة الأصل المحفوظة فی الخزانة الرضویة ضمن مجموعة

ص: ۱۸

رقم ۱: ۱۹۷۰۳، بعد لم تفهرس. جاء فی أوّلها بخطّ السید الصفائی: لا یخفی أنّ السطور المشتملة علی فهرست هذه المجموعة من شریفِ خط نابغة زمانه واعجوبة أوانه علامة دهره وزین عصره، الشیخ الجلیل والثقة النبیل، العدیم النضیر شیخ الإسلام والمسلمین الشیخ بهاء الملّة والدنیا والدین، محمّد العاملی، بهر بزمانه وعلی فی أعلی جنانه، وهذه الجهة قد عدّت فی نفائس هذه النسخة، فیلزم أداء حقّه وعدم رخص مهره حفظاً للجهات الراجعة إلی المعارف والدیانة الإسلامیة، ونشکر اللّه علی هذه النعمة...

وجاء فی آخرها:... فی شهر ربیع الثانی من شهور سنة ۱۰۱۴ فی حوالی نخجوان. وفی هامشها: بلغ قبالًا. کتبت بخطّ النسخ حسنة الخط کاملة تحتوی علی ۷۲ ورقة بقیاس ۵/ ۱۲* ۵/ ۱۸ سم.

۲- نسخة (م) فی مکتبة آیة اللّه السیّد المرعشی النجفی قدس سره ضمن مجموعة رقم:

۷/ ۹۸۹۹، ذکرت فی فهرسها ۲۵/ ۱۹۴. جاء فی آخرها: بلغ قبالًا وللّه الحمد ربّ العالمین. وهذا ما یشعر بمقابلتها والاعتناء بها، کتبت بخط النسخ جیّدة کاملة عدیمة الأخطاء تمّت کتابتها سنة ۱۰۲۷ ه، تحتوی علی ۵۵ ورقة، بقیاس ۵/ ۱۶* ۱۰ سم.

۳- نسخة (ن): فی مکتبة آیة اللّه السیّد المرعشی النجفی قدس سره ضمن مجموعة رقم: ۴/ ۶۳۵۷، ذکرت فی فهرسها ۱۶/ ۳۱۹. ناقصة الأوّل بمقدار عدّة أسطر إلی قوله: «بالبیت خرج من ذنوبه»....

جاء فی آخرها: نقل هذه المناسک من نسخة لا تخلو من الصحّة، فرغت من تسویده بعون اللّه وتأییده فی أواسط شهر صفر ختم بالخیر والظفر سنة الثانی والأربعین بعد الألف (۱۰۴۲) من هجرة سیّد المرسلین علیه وآله المعصومین ألف ألف صلاة من اللّه والملائکة والناس أجمعین. وأنا العبد المفتقر إلی اللّه الغنی الحافظ ابن محمد صابر الطبسی الفهنانجی، مجموعة الوعظ، عفا اللّه عنهما وغفر ذنوبهما

ص: ۱۹

وستر عیوبهما بحقّ محمّد وآله، انتهی. یظهر علی صفحاتها توضیحات من الصحاح للجوهری والنهایة للشیخ. وتمتاز عن باقی النسخ بجعل عناوین للفصول کما ستلاحظ، ولست أدری من المصنّف هی أم من الناسخ؟

تحتوی النسخة علی ۱۰۹ أوراق، بقیاس ۱۹* ۱۳ سم.

۴- نسخة (ص): فی مکتبة آیة اللَّه السیّد المرعشی النجفی قدس سره ضمن مجموعة رقم: ۱/ ۱۶۹۱، ذکرت فی فهرسها ۵/ ۸۵. فی الورقة الاولی تملک السیّد مصطفی الحسینی الصفائی الخوانساری.

جاء فی آخرها: وحرّره الأحقر العاصی، أقلّ الخلائق حسن علی فی ۱۴ شعبان المعظّم ۱۳۵۹ تحتوی النسخة علی ۵۰ ورقة بقیاس ۵/ ۱۵* ۱۲ سم.

کتبت بخط النسخ جیّدة کاملة نظیفة مصحّحة لا تخلو من بعض الأغلاط والنواقص.

منهجیة التحقیق:

بما أنّ النسخة الاولی هی أقرب النسخ إلی عصر المؤلّف قدس سره، وبما فیها من المیّزات المذکورة آنفاً، جعلتها الأصل وعرضتها علی بقیّة النُسخ الاخری مقابلة وتصحیحاً، مع مراعاة القواعد المتعارفة لتحقیق النصوص القدیمة، فکان عملی کالتالی:

۱- مقابلة النسخ والإشارة إلی الاختلاف فی الهامش وإن کان نادراً.

۲- استخراج الأقوال الفقهیة من المصادر التی أشار إلیها المصنّف، وقد ینقل بعض الأحیان من دون تسمیة المصدر بل یکتفی بقوله: بعض الأصحاب، أو المتأخّرین عنهم.

۳- استخراج الروایات الواردة من مصادرها الامّ.

۴- تقطیع النص إلی فقرات حسب ما تعارفت علیه قواعد التحقیق.

۵- تقویم النصّ، الذی هو عمدة التحقیق.

ص: ۲۰

وبما أنّ هذا الکتاب سوف ینشر ضمن مجلّة میقات الحجّ، فلا یسع المجال لنشره دفعة واحدة، فسوف نقدّمه للقرّاء الکرام على دفعات ثلاث متوالیة إن شاء اللَّه.

والحمد للَّهالذی وفقنا لهذا العمل المقدّس وهو إحیاء أثر من آثار علمائنا الأبرار «قدّس اللَّه أسرارهم». الّذین لم یألوا جهداً فی صیانة المذهب الشریف، فحریٌّ بنا أن نعید مجدهم بإحیاء تراثهم واستنقاذه من أیدی الزمان الجائرة.

وحینما قرأت عبارة لحفید المترجم، جعلتنی أتشجّع لمواصلة هذا الطریق الصعب وفاءً لسلفنا الصالح حیث یقول (فی الدرّ المنثور ۲: ۲۰۳): «جزى اللَّه عنّا سوء الجزاء من حرمنا من الکتب التی کانت عندنا اجتمعت فی زمن الشیخ زین الدین والشیخ حسن ووالدی «رحمهم اللَّه» وأُضیف إلیها کتب الشیخ محیی الدین «رحمه اللَّه»، وقد وقع علیها الفتور غیر مرّة، منها قریب ألف کتاب احترقت وأنا إذ ذاک ابن سبع سنین أو ثمان، حرقها أهل البغی، ولمّا سافرت إلى العراق کان الباقی لنا فی الجبل ودمشق وغیرهما ما یقرب من ألف کتاب وأکثرها منه ما أخذه الناس ومنه ما تلف من النقل والوضع تحت الأرض، والباقی نحو مائة کتاب وصلت إلیّ بعد السعی التامّ...» وغیره من الکلام المحرق للقلب، وهذا ما یجعلنا نحسّ بالمسؤولیة أکثر فأکثر.

وأخیراً، أتقدّم بخالص شکری إلى کلّ من ساعد وساهم وشجّع على إخراج هذا الکتاب، وأخصّ بالذکر منهم إدارة المکتبة العامّة للسیّد المرعشی النجفی رحمه الله حیث وضعت تحت اختیاری النسخ الثلاثة وبکلّ لطف وعنایة؛ والمجلّة التی آثرت نشره على صفحاتها کی تکون سهیمة فی إحیائه. فجزى اللَّه الجمیع خیر جزاء المحسنین، والحمد للَّهأوّلًا وآخراً.

ص: ۲۱

نموذج من الصفحة الأولى والأخيرة من نسخة الأصل

ص: ۲۲

نموذج من صفحات نسخة (ن)

ص: ۲۴

بسم اللّه الرحمن الرحيم

مناسک الحجّ

الحمـد للّهالـذى فرض حـجّ البيت على من اسـتطاع إليه سبيلًا، وأعـدّ لمن أطاع أمره وحمّل مشاق هـذا العمل نفسه أجراً عظيماً وثواباً جزيلًا، ودعا الموسرين إلى معاودة الحجّ فى كلّ خمس سنين تعظيماً لشأن البيت الشريف وتبجيلًا.

والصلاة والسلام على محمّد الذى أرسله بالحقّ بشيراً ونذيراً، وجعله على كلّ خير دليلًا، وعلى آله السادة الأبرار الذين شهدت بكمالهم الآيات والآثار إجمالًا وتفصيلًا.

وبعد، فهذه نبذة من الكلام فى فقه الحجّ إلى بيت اللّه الحرام، أجبت بإملائها على جناح السفر التماس جماعة من الاخوان، وجعلتها تذكرة لى عند المنتفعين بها من أهل الإيمان.

روى معاوية بن عمّار فى الصحيح عن أبى عبداللّه عليه السلام، عن أبيه، عن آبائه عليهم السلام: أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لقيه أعرابى، فقال: يارسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إنّى خرجت أُريد الحجّ ففاتنى (۱) وأنا رجل مميّل (۲)، فمرنى أن أصنع فى مالى ما أبلغ به مثل أجر الحاج، قال: «فالتفت إليه رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم، فقال له: انظر إلى أبى قبيس، فلو أنّ أبا قبيس لک ذهبة حمراء أنفقته فى سبيل اللّه ما بلغت ما يبلغ الحاج، ثمّ قال: إنّ الحاج إذا أخذ فى جهازه لم يرفع شيئاً ولم يضعه إلّاكتب اللّه له عشر حسنات، ومحا عنه عشر سيّئات، ورفع له عشر درجات، فإذا ركب بعيره لم يرفع خُفّاً ولم يضعه إلّا كتب له مثل ذلک، فإذا طاف (۳)بالبيت خرج من ذنوبه، فإذا سعى بين الصفا والمروة خرج من ذنوبه، فإذا وقف بعرفات خرج من ذنوبه، فإذا وقف بالمشعر

۱- ۱ فى الكافى: فعاقنى أى عاقنى عائق.

۲- ۲ المیّل: الرجل الكثير المال. القاموس المحيط ۴: ۷۰ مول.

۳- ۳ من البداية إلى هنا وقع نقص فى نسخة ن.

ص: ۲۵

خرج من ذنوبه، فإذا رمی الجمار خرج من ذنوبه، قال: فعدّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم کذا وکذا موقفاً إذا وقفها الحاجّ خرج من ذنوبه (۱)، ثمّ قال: أنّی لک أن تبلغ ما یبلغ الحاج؟! قال أبو عبداللّه علیه السلام: ولا تکتب علیه الذنوب أربعة أشهر، وتکتب له الحسنات إلّاأن یأتی بکبیرة» (۲).

وروی معاویة بن عمّار فی الصحیح أیضاً عنه علیه السلام، قال: «الحاج یصدرون علی ثلاثة أصناف، فصنف یُعتقون من النار، وصنف یخرج من ذنوبه کیوم ولدته امّه، وصنف یحفظ فی أهله وماله، فذلک أدنی ما یرجع به الحاج» (۳).

وروی أیضاً فی الصحیح عنه علیه السلام أنّه قال: قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم: «الحجّ والعمرة ینفیان الفقر والذنوب کما ینفی الکیر خبث الحدید» (۴).

وروی محمد بن مسلم فی الصحیح عن أحدهما علیه السلام قال: «ودّ من فی القبور لو أنّ له حجّة واحدة بالدنیا وما فیها» (۵).

وروی عبداللّه بن سنان فی الصحیح أیضاً عن أبی عبداللّه علیه السلام، قال: «من مات فی طریق مکّة ذاهباً أو جائیاً أمن من الفزع الأکبر یوم القیامة» (۶).

وروی الکلینی فی الصحیح عن داود بن أبی یزید عن أبی عبداللّه علیه السلام قال:

«إذا أخذ الناس مواطنهم بمنی نادی منادٍ من قِبل اللّه عزّوجلّ إن أردتم أن أرضی فقد رضیت» (۷).

وروی ذریح المحاربی فی الصحیح عن أبی عبداللّه علیه السلام، قال: «من مضت له خمس حجج ولم یغد إلی ربّه وهو موسر إنّه لمحروم» (۸).

فصل

ینبغی لمن أراد السفر إلی الحجّ أن یؤثر الخروج یوم السبت أو الثلاثاء، ویرغب عن الاثنین والخمیس، وإذا افتتح سفره بالصدقة خرج أیّ یوم شاء وإن کان یوم الأربعاء. رواه حمّاد بن عثمان فی الصحیح عن أبی عبداللّه علیه السلام (۹).

وروی عبدالرحمن بن الحجّاج فی الصحیح أیضاً عنه علیه السلام، أنّه قال: «تصدّق

۱- ۱ ورد فی هامش نسختی الأصل و ص: «ربما یستشکل تکرار الخروج من الذنوب فی هذا الحدیث. ورُدّبأنّه مفروض فیمن تتخلل الذنوب بین أفعاله. ویفید حکم غیره بالمفهوم. فإنّ استحقاق الذنب یدلّ علی الموافقة علی استحقاق غیر الذنب، وإذا کان هذا النوع من الثواب ممتنعاً فی حقّ غیر المذنب فله من نوع آخر ما یساویه أو یزید علیه. منه رحمه اللّه.

۲- ۲ الوسائل ۱۱: ۱۱۳ باب ۴۲ من أبواب وجوب الحجّ وشرائطه حدیث ۱.

۳- ۳ الوسائل ۱۱: ۹۳ باب ۳۸ من أبواب وجوب الحجّ وشرائطه حدیث ۲، باختلاف یسیر.

۴- ۴ الوسائل ۱۱: ۱۰۶ باب ۳۸ من أبواب وجوب الحجّ وشرائطه حدیث ۴۳.

۵- ۵ الفقیه ۲: ۲۲۶ باب فضائل الحج حدیث ۲۲۵۳.

۶- ۶ الوسائل ۱۱: ۱۰۰ باب ۳۸ من أبواب وجوب الحجّ وشرائطه حدیث ۲۰ وص ۱۰۷ حدیث ۴۶.

۷- ۷ الکافی ۴: ۲۶۲/ ۴۲ باب فضل الحجّ والعمرة وثوابهما.

۸- ۸ الکافی ۴: ۲۷۸/ ۱ باب من لم یحجّ بین خمس سنین.

۹- ۹ الوسائل ۱۱: ۳۷۵ باب ۱۵ من أبواب آداب السفر حدیث ۲.

ص: ۲۶

واخرج أی یوم شئت» (۱).

وروى الكلينى فى الصحيح عن صباح الحذّاء، قال: سمعت موسى بن جعفر عليه السلام يقول: «لو كان الرجل منكم إذا أراد السفر، قام على باب داره وتلقا وجهه الذى يتوجّه له، فقرأ فاتحة الكتاب أمامه وعن يمينه وعن شماله، وآية الكرسى أمامه وعن يمينه وعن شماله، ثمّ قال: اللّهم احفظنى واحفظ ما معى، وسلّمنى وسلّم ما معى، وبلّغنى وبلّغ ما معى ببلاغك الحسن»، لحفظه اللّه وحفظ ما معه، وسلّمه وسلّم ما معه، وبلّغه وبلّغ ما معه (۲).

وعن على بن الحكم عن مالك بن عطية عن أبى حمزة، قال: أتيت باب علىّ ابن الحسين عليه السلام فوافقته حين خرج من الباب، فقال: «بسم اللّه آمنت باللّه، وتوكّلت على اللّه. ثمّ قال: يا أبا حمزة إنّ العبد إذا خرج من منزله عرض له شيطان، فإذا قال بسم اللّه، قال الملكان: كُفيتَ، فإذا قال: آمنتُ [باللّه] (۳) قالا: هُديتَ. فإذا قال:

توكّلتُ على اللّه، قالا: وُقيتَ. فيتنحّى الشيطان، ويقول بعضهم لبعض: كيف لنا بمن هُدى وكُفى ووُقى...» (۴).

وبالإسناد وغيره عن أبى حمزة قال: رأيت أبا عبداللّه عليه السلام يحرّك شفتيه حين أراد أن يخرج وهو قائم على الباب، فقلت: إنّى رأيتك تحرّك شفتيك حين خرجت فهل قلت شيئاً؟ قال: «نعم إنّ الإنسان إذا خرج من منزله قال حين يريد أن يخرج:

اللّه أكبر اللّه أكبر ثلاثاً، باللّه أخرج وباللّه أدخل وعلى اللّه أتوكّل ثلاث مرّات، اللّهمَّ افتح لى فى وجهى هذا بخير واختم لى بخير، ووقّنى شرّ كلّ دابّة أنت آخذ بناصيتها، إنّ ربى على صراط مستقيم. فإنّه لا يزال فى ضمان اللّه عزّوجلّ حتّى يردّه إلى المكان الذى كان فيه» (۵).

وروى عمر بن يزيد فى الحسن عن أبى عبداللّه عليه السلام أنّه قال: «من قرأ قل هو اللّه أحد حين يخرج من منزله عشر مرّات، لم يزل فى حفظ اللّه عزّوجلّ وكلاءته حتّى يرجع إلى منزله» (۶).

۱- ۱ المصدر السابق حديث ۱.

۲- ۲ الكافى ۴: ۲۸۳/ ۱ باب القول إذا خرج الرجل من بيته، وفيه زيادة: قال: ثمّ قال: يا صباح أما رأيت الرجل يحفظ ولا يحفظ ما معه ويسلم ولا يسلم ما معه ويبلغ ولا يبلغ ما معه؟ قلت: بلى جعلت فداك.

۳- ۳ الزيادة من الأصل والمصدر.

۴- ۴ الكافى ۲: ۵۴۱/ ۲ باب الدعاء إذا خرج الإنسان من منزله.

۵- ۵ المصدر السابق حديث ۱. باختلاف يسير.

۶- ۶ الكافى ۲: ۵۴۳/ ۸ باب الدعاء إذا خرج الإنسان من منزله.

ص: ۲۷

وروی معاویـة بن عمّار فی الحسن أیضاً عنه علیه السـلام قال: «إذا خرجت من بیتک ترید الحجّ والعمرة إن شاء اللّه فادع دعاء الفرج، وهو: لاـ إله إلّااللّه الحلیم الکریم، لاـ إله إلّااللّه العلیّ العظیم، سـبحان اللّه ربّ السـماوات السبع، وربّ الأرضـین السـبع، وربّ العرش العظیم، والحمد للّهربّ العالمین. ثمّ قل: اللّهم کن لی جاراً من کلّ جبّار عنید، ومن کلّ شـیطان رجیم. ثمّ قل: بسم اللّه دخلت، وبسم اللّه خرجت، وفی سبیل اللّه، اللّهم إنّی أقدّم بین یدی نسیانی وعجلتی بسم اللّه وما شاء اللّه فی سفری هذا، ذکرته أو نسیته. اللّهم أنت المستعان علی الامور کلّها، وأنت الصاحب فی السفر، والخلیفة فی الأهل. اللّهم هوّن علینا سفرنا واطوِ لنا الأرض، وسیّرنا فیها بطاعتک وطاعـة رسولک. اللّهم أصـلح لنا ظهرنا وبارک لنا فیما رزقتنا وقِنا عـذاب النار. اللّهم إنّی أعوذ بک من وعثاء السـفر، وکآبة المنقلب، وسوء المنظر، فی الأهل والمال والولد. اللّهم أنت عضدی وناصـری، بک أحلّ وبک أسـیر. اللّهم إنّی أسألک فی سـفری هذا السرور والعمـل بمـا یرضـیک عنّی. اللّهمّ اقطع عنّی بعـده ومشـقّته، واصـبحنی فیه واخلفنی فی أهلی بخیر، لا حول ولا قوّة إلّا باللّه. اللّهم إنّی عبـدک وهذا حملانک، والوجه وجهک والسـفر إلیک، وقد اطلعت علی ما لم یطّلع علیه أحد، فاجعل سـفری هذا کفّارة لما قبله من ذنوبی، وکن عوناً لی علیه، واکفنی وعثه ومشقّته، ولقّنی من القول والعمل رضاک، فإنّما أنا عبدک وبک ولک.

فإذا جعلت رجلک فی الرّکاب فقل: بسم اللّه الرحمان الرحیم، بسم اللّه واللّه أکبر.

فإذا اسـتویت علی راحلتک واسـتوی بک محملک، فقل: الحمد للّهالذی هدانا للإسـلام [وعلّمنا القرآن]، ومنَّ علینا بمحمّد صـلی الله علیه و آله و سـلم، سـبحان اللّه، سـبحان الـذی سـخّر لنا هـذا وما کنّا له مقرنین، وإنّا إلی ربّنا لمنقلبون، والحمد للّهربّ العالمین. اللّهم أنت الحامل علی الظهر، والمستعان علی الأمر، اللّهم بلّغنا بلاغاً إلی خیر، بلاغاً

ص: ۲۸

یبلغ إلی مغفرتک ورضوانک. اللّهم لا طیر إلّاطیرک (۱) ولا خیر إلّاخیرک ولا حافظ غیرک (۲).

فصل

وینبغی للمسافر أن یتحرّی السیر فی آخر اللیل فإنّ الأرض تطوی فی ذلک الوقت. رواه جمیل بن درّاج وحمّاد بن عثمان فی الصحیح عن أبی عبداللَّه علیه السلام (۳).

وإذا وجد فی طریقه ما یتشاءم به من نحو الغراب الناعق والذئب العاوی والظّبی السانح فلیقل: اعتصمت بک یاربّ من شرّ ما أجد فی نفسی، فاعصمنی من ذلک، فإنّه یعصم منه. رواه سلیمان الجعفری فی الصحیح عن الکاظم علیه السلام (۴).

ویستحبّ له أن یسبّح اللَّه کلّما هبط، ویکبّره إذا صعد، فقد روی معاویة بن عمّار فی الصحیح عن أبی عبداللَّه علیه السلام قال: قال: کان رسول اللَّه صلی الله علیه و آله یفعله (۵).

وروی أبو عبیدة فی الصحیح، عن أحدهما علیهما السلام أنّه قال: «إذا کنت فی سفر فقل: اللّهم اجعل مسیری عبراً وصمتی تفکّراً وکلامی ذکراً» (۶).

وروی الصدوق رحمه الله فی کتاب من لا یحضره الفقیه بطریقه الصحیح، عن محمّد ابن خالد البرقی، عن ابن أبی عمیر، عن صفوان الجمّال، عن أبی عبداللَّه علیه السلام، قال:

«کان أبی علیه السلام یقول: ما یعبؤ بمن یؤمّ هذا البیت إذا لم یکن فیه ثلاث خصال: خُلُق یخالق به من صحبه، وحلم یملک به غضبه، وورع یحجزه عن محارم اللَّه عزّوجلّ» (۷).

وروی الکلینی فی الصحیح، عن علی بن الحکم، عن أبی أیّوب الخزّاز، عن محمّد بن مسلم، عن أبی جعفر علیه السلام، قال: «ما یعبؤ بمن یسلک هذا الطریق إذا لم یکن فیه ثلاث خصال: ورع یحجزه عن معاصی اللَّه تعالی، وحلم یملک به غضبه، وحسن الصّحبة لمن صحبه» (۸).

وروی الصدوق فی الصحیح، عن شهاب بن عبد ربّه، قال: قلت لأبی عبداللَّه علیه السلام: قد عرفت حالی وسعة یدی وتوسیعی علی إخوانی، فأصحب النفر

۱- ۱ فی الأصل: لا ضیر إلّاضیرک.

۲- ۲ الکافی ۴: ۲۸۴، باب القول إذا خرج الرجل من بیته حدیث ۲ وما بین المعقوفین زیادة من المصدر.

۳- ۳ الوسائل ۱۱: ۳۶۴ باب ۱۰ من أبواب آداب السفر حدیث ۱.

۴- ۴ الوسائل ۱۱: ۳۶۳ باب ۹ من أبواب آداب السفر حدیث ۱.

۵- ۵ الوسائل ۱۱: ۳۹۱ باب ۲۱ من أبواب آداب السفر حدیث ۱.

۶- ۶ الفقیه ۲: ۲۷۳ باب ذکر اللَّه عزّوجلّ والدعاء فی المسیر، حدیث ۲۴۲۳.

۷- ۷ الفقیه ۲: ۲۷۴ باب ما یجب علی المسافر من حسن الصحبة حدیث ۲۴۲۶.

۸- ۸ الکافی ۴: ۲۸۶ باب الوصیة حدیث ۲.

ص: ۲۹

منهم فی طریق مکّهٔ، فأوسع علیهم؟ قال: «لا تفعل یا شهاب، إن بسطت وبسطوا أجحفت بهم، وإن هم أمسکوا أذللتهم، فاصحب نظراءک فاصحب نظراءک» (۱).

وفی الصحیح، عن محمد بن خالد البرقی، عن حمّاد بن عثمان، عن ابن أبی یعفور، عن أبی عبداللّه علیه السلام قال: قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم: «ما من نفقهٔ أحبّ إلی اللّه من نفقهٔ قصد، ویبغض الإسراف إلّافی حجّ أو عمرهٔ» (۲).

وروی عبداللّه بن سنان فی الحسن، عن أبی عبداللّه علیه السلام، قال: «کان علیّ بن الحسین علیه السلام إذا سافر إلی الحجّ والعمرهٔ، تزوّد من أطیب الزّاد من اللّوز والسکّر والسویق المحمّص والمحلّی» (۳).

وروی محمد بن مسلم فی الحسن أیضاً، عن أبی جعفر علیه السلام قال: «من خالطت فإن استطعت أن تکون یدک العُلیا علیه فافعل» (۴).

فصل [فی زیارهٔ النبیّ صلی الله علیه و آله و سلم بالمدینهٔ] (۵)

وحیث کان من توفیق اللّه سبحانه فی طریقنا إلی الحجّ الابتداء بدخول مدینهٔ سیّدنا رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم، فلا بأس بتقدیم القول فی فضل زیارته صلی الله علیه و آله، وبیان وظائفها، وسائر ما یستحب من الأعمال فی المدینهٔ. وإن کان المتعارف بین الأصحاب تأخیر الکلام فی ذلک إلی انقضاء مباحث الحجّ.

روی عبد الرحمن بن أبی نجران فی الصحیح، قال: قلت لأبی جعفر الثانی علیه السلام: جُعلت فداک ما لمن زار رسول اللّه صلی الله علیه و آله قاصداً. فقال: «له الجنّهٔ» (۶).

وروی الکلینی فی الصحیح، عن الحسن بن علی الکوفی، عن علی بن مهزیار، عن حمّاد بن عیسی، عن محمد بن مسعود، قال: قال: رأیت أبا عبداللّه علیه السلام انتهی إلی قبر النبیّ صلی الله علیه و آله، فوضع یده علیه وقال: «أسأل اللّه الذی اجتباک واختارک وهداک وهدی بک أن یُصلّی علیک، ثمّ قال: إنّ اللّه وملائکته یصلّون علی النبیّ یا أیّها الذین آمنوا صلّوا علیه وسلّموا تسلیماً» (۷).

وروی فی الحسن عن معاویهٔ بن عمّار، عن أبی عبداللّه علیه السلام قال: «إذا دخلت

۱- ۱ الفقیه ۲: ۲۷۸ باب الرفقاء فی السفر ووجوب حقّ بعضهم علی بعض حدیث ۲۴۴۳.

۲- ۲ الوسائل ۱۱: ۱۴۹ باب ۵۵ من أبواب وجوب الحجّ وشرائطه حدیث ۱.

۳- ۳ الوسائل ۱۱: ۴۲۳ باب ۴۲ من أبواب آداب السفر حدیث ۲، وفی نسخهٔ المحمّض والمحلّی.

۴- ۴ الفقیه ۲: ۲۷۵ باب ما یجب علی المسافر فی الطرق من حسن الصحبهٔ حدیث ۲۴۲۲۹.

۵- ۵ ما بین المعقوفین زیادهٔ من ن.

۶- ۶ الوسائل ۱۱: ۳۳۲ باب ۳ من أبواب المزار وما یناسبه حدیث ۱.

۷- ۷ الکافی ۴: ۵۵۲ باب دخول المدینهٔ وزیارهٔ النبیّ صلی الله علیه و آله حدیث ۴.

ص: ۳۰

المدینهٔ فاغتسل قبل أن تدخلها، أو حین تدخلها، ثمّ تأتی قبر النبیّ صلی الله علیه و آله فتسلّم علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله، ثمّ تقوم عند الاسطوانهٔ المقدّمهٔ من جانب القبر الأیمن عند رأس القبر عند زاویهٔ القبر، وأنت مستقبل القبلهٔ ومنکبک الأیسر إلی جانب القبر، ومنکبک الأیمن ممّا یلی المنبر، فإنّه موضع رأس رسول اللّه صلی الله علیه و آله، وتقول:

أشهد أن لا إله إلّااللّه وحده لا شریک له، وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله، أشهد أنّک رسول اللّه، وأشهد أنّک محمّد بن عبداللّه، وأشهد أنّک قد بلّغت رسالهٔ ربّک، ونصحت لُامّتک، وجاهدت فی سبیل اللّه، وعبدت اللّه حتّی أتاک الیقین بالحکمهٔ والموعظهٔ الحسنهٔ، وأدّیت الذی علیک من الحقّ، وأنّک قد رؤفت بالمؤمنین، وغلظت علی الکافرین، فبلغ اللّه بک أفضل شرف محلّ المکرمین، الحمد للّهالذی استنقذنا بک من الشرک والضلالهٔ، اللّهمّ فاجعل صلواتک وصلوات ملائکتک المقرّبین، وعبادک الصالحین، وأنبیائک المرسلین، وأهل السماوات والأرضین، ومن سبّح لک یاربّ العالمین من الأوّلین والآخرین، علی محمّد عبدک ورسولک ونبیّک وأمینک علی وحیک، ونجیّک وحبیبک وصفیّک، وخاصّتک وصفوتک وخیرتک من خلقک. اللّهمّ أعطه الدرجهٔ والوسیلهٔ من الجنّهٔ، وابعثه مقاماً محموداً، یغبطه به الأوّلون والآخرون. اللّهمّ إنّک قلت: ولو أنّهم إذ ظلموا أنفسهم جاءُوک فاستغفروا اللّه واستغفر لهم الرسول لوجدوا اللّه توّاباً رحیماً (۱)

وإنّی أتیت نبیّک مستغفراً تائباً من ذنوبی، وإنّی أتوجّه بک إلی اللّه ربّی وربّک لیغفر ذنوبی. وإن کانت لک حاجهٔ فاجعل قبر النبیّ صلی الله علیه و آله خلف کتفیک واستقبل القبلهٔ وارفع یدیک وسل حاجتک، فإنّک أحری أن تقضی إن شاء اللّه» (۲).

قال: وقال أبو عبداللّه علیه السلام: «إذا فرغت من الدعاء عند قبر النبیّ صلی الله علیه و آله فائت المنبر فامسحه بیدک وخذ برمانتیه وهما السفلاوان وامسح عینیک ووجهک به، فإنّه یقال: إنّه شفاء للعین، وقم عنده فاحمد اللّه واثن علیه وسل حاجتک، فإنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله قال: ما بین منبری وبیتی روضهٔ من ریاض الجنّهٔ، ومنبری علی

۱- ۱ النساء ۴: ۶۴.

۲- ۲ الوسائل ۱۴: ۳۴۱ باب ۶ من أبواب المزار وما یناسبه حدیث ۱. باختلاف یسیر.

ص: ۳۱

ترعة من (۱) الجنّة، والترعة هی الباب الصغیر. ثمّ تأتی مقام النبیّ صلی الله علیه و آله فتصلّی فیه ما بدا لک، فإذا دخلت المسجد فصلِّ علی النبیّ صلی الله علیه و آله، وإذا خرجت فاصنع مثل ذلک، وأکثر من الصلاة فی مسجد النبیّ صلی الله علیه و آله» (۲).

وفی عدّة أخبار أنّ الصلاة فیه تعدل ألف صلاة فی غیره، إلّاالمسجد الحرام، فإنّه أفضل (۳).

وروی معاویة بن عمّار فی الصحیح، عن أبی عبداللّه علیه السلام قال: «إئت مقام جبرئیل علیه السلام وهو تحت المیزاب فإنّه کان مقامه إذا استأذن علی النبیّ صلی الله علیه و آله، فقل:

أسألک أی جواد، أی کریم أی قریب أی بعید (۴) أن تردّ علیّ نعمتک» (۵).

[زیارة فاطمة علیها السلام] (۶) وروی ابن أبی نصر فی الصحیح عن الرضا علیه السلام: «أنّ فاطمة علیها السلام دفنت فی بیتها، فلمّا زادت بنو امیّة فی المسجد صارت فی المسجد» (۷) فإذا صرت إلی قبرها علیها السلام فقل: السلام علی البتولة الطاهرة، والصدِّیقة المعصومة، والبرّة التقیّة، سلیلة المصطفی، وحلیلة المرتضی، امّ الأئمّة النجباء، اللّهمَّ إنّها خرجت من دنیاها مظلومة [مغشومة]، قد مُلئت [داءً و] حسرة وکمداً وغصّة، تشکو إلیک وإلی أبیها ما فُعل بها، اللّهمَّ انتقم لها وخذ لها بحقّها، اللّهمَّ صلِّ علی الزّهراء الزکیة، المبارکة المیمونة، صلاةً تزید فی شرف محلّها عندک، وجلالة منزلتها لدیک وبلّغها منّی السّلام حیث کانت» (۸).

ویقول أیضاً: یا ممتحنة امتحنک [اللّه] الذی خلقک قبل أن یخلقک فوجدک صابرة، وزعمنا أنّا لک أولیاء مصدّقون وصائرون لکلّ ما أتانا به أبوک صلی الله علیه و آله، وأتی به وصیّه، فنسألکِ إن کنّا صدقناک إلّاألحقتنا بتصدیقنا بهما لنبشّر أنفسنا بأنّا قد طُهّرنا بولایتک» (۹).

[زیارة الأئمّة علیهم السلام بالبقیع] (۱۰) وإذا توجّهت إلی زیارة الأئمّة علیهم السلام بالبقیع، فاجعل القبر بین یدیک وقُل: السلام علیکم أئمّة الهدی، السلام علیکم أهل التقوی، السلام علیکم الحجّة علی أهل الدنیا، السلام علیکم القوّام فی البریة

۱- ۱ فی المصدر: من ترع.

۲- ۲ الکافی ۴: ۴۵۳ باب المنبر والروضة ومقام النبیّ صلی الله علیه و آله حدیث ۱.

۳- ۳ الکافی ۴: ۵۵۵ و ۵۵۶ باب المنبر والروضة ومقام النبیّ صلی الله علیه و آله حدیث ۸ و ۱۰- ۱۲.

۴- ۴ فی المصدر: أی بعید أسألک أن تصلّی علی محمّد وأهل بیته وأسألک.

۵- ۵ الوسائل ۱۴: ۳۴۶ باب ۸ من أبواب المزار وما یناسبه حدیث ۱.

۶- ۶ الزیادة فی هامش نسخة الأصل.

۷- ۷ الوسائل ۱۴: ۳۶۸ باب ۱۸ من أبواب المزار وما یناسبه حدیث ۳.

۸- ۸ رواها المجلسی فی البحار ۱۰۰: ۱۹۷ باب زیارة فاطمة علیها السلام وموضع قبرها حدیث ۱۵، وما بین المعقوفین زیادة من المصدر.

۹- ۹ الوسائل ۱۴: ۳۶۷ باب ۱۸ من أبواب المزار وما یناسبه حدیث ۲ وفی نسخة الأصل أظهرنا بدل طهّرنا.

۱۰- ۱۰ زیادة من هامش نسخة الأصل.

ص: ۳۲

بالقسط، السّلام علیکم أهل الصفوة، السلام علیکم أهل النجوی، أشهد أنّکم قد بلّغتم ونصحتم وصبرتم فی ذات اللَّه، وکُذِّبتم واسیء إلیکم فغفرتم (۱)، وأشهد أنّکم الأئمّة الراشدون المهدیّون، وأنّ طاعتکم مفروضة، وأنّ قولکم الصدق، وأنّکم دعوتم فلم تجابوا وأمرتم فلم تطاعوا، وأنّکم أرکان الدین، ودعائم الأرض (۲)، ولم تزالوا بعین اللَّه ینسخکم فی أصلاب کلّ مطهّر، وینقلکم من أرحام المطهّرات، لم تدنسکم الجاهلیة الجهلاء، ولم تشرک فیکم فتن الأهواء، طبتم وطاب منبتکم، منّ بکم علینا دیّان الدین، فجعلکم فی بیوتٍ أذن اللَّه أن ترفع ویذکر فیها اسمه، وجعل صلواتنا علیکم رحمةً لنا وکفّارة لذنوبنا، إذ اختارکم لنا وطیّب خلقنا بما منَّ به علینا من ولایتکم، وکنّا عنده مسمّین بفضلکم، معترفین بتصدیقنا إیّاکم، وهذا مقام من أسرف وأخطأ واستکان وأقرّ بما جنی ورجا بمقامه الخلاص، وأن یستنقذه بکم مستنقذ الهلکی من الردی، فکونوا لی شفعاء، فقد وفدت إلیکم إذ رغب عنکم أهل الدنیا واتّخذوا آیات اللَّه هزواً، واستکبروا عنها، یا من هو قائم لا یسهو ودائم لا یلهو، ومحیط بکلّ شیء، لک المنّ بما وفّقتنی وعرّفتنی ما ائتمنتنی علیه إذ صدّ عنهم عبادک وجهلوا معرفتهم، واستخفّوا بحقّهم، ومالوا إلی سواهم، وکانت المنّة لک ومنک علیَّ مع أقوام خصصتهم بما خصصتنی به، فلک الحمد إذ کنت عندک فی مقامی هذا مذکوراً مکتوباً ولا تحرمنی ما رجوت، ولا تخیبنی فیما دعوت. وادعو لنفسک بما أحببت» (۳).

وروی معاویة بن عمّار فی الحسن، قال: قال أبو عبداللَّه علیه السلام: «لا تدع إتیان المشاهد کلّها، مسجد قباء، فإنّه المسجد الذی أسّس علی التقوی من أوّل یوم، ومشربة امّ إبراهیم، ومسجد الفضیخ، وقبور الشهداء، ومسجد الأحزاب، وهو مسجد الفتح، قال: وبلغنا أنّ النبیّ صلی الله علیه و آله کان إذا أتی قبور الشهداء قال: السلام علیکم بما صبرتم فنعم عقبی الدار.

ولیکن فیما تقول عند مسجد الفتح: یا صریخ المکروبین، ویا مجیب دعوة

۱- ۱ فی المصدر: فعفوتم.

۲- ۲ فی المصدر: وأنّکم دعائم الدین وأرکان الأرض.

۳- ۳ الکافی ۴: ۵۵۹ باب زیارة البقیع.

ص: ۳۳

المضطرّين اكشف همّى وغمّى وكربى، كما كشفت عن نبيّك همّه وغمّه وكربه، وكفيته هول عدوّه فى هذا المكان» (۱).

وروى معاوية أيضاً فى الحسن، قال: قال أبو عبداللّه عليه السلام: «إذا أردت أن تخرج من المدينة فاغتسل، ثمّ إئت قبر النبىّ صلى الله عليه و آله وبعدما تفرغ من حوائجك فودّعه، واصنع مثل ما صنعت عند دخولك، وقل: اللّهمَّ لا تجعله آخر العهد من زيارة قبر نبيّك، فإن توفّيتنى قبل ذلك فإنّى أشهد فى مماتى على ما شهدت عليه فى حياتى: أن لا إله إلّاأنت وأنّ محمّداً عبدك ورسولك» (۲).

وروى يونس بن يعقوب فى الموثّق، قال: سألت أبا عبداللّه عليه السلام عن وداع قبر النبىّ صلى الله عليه و آله، فقال: تقول: «صلّى اللّه عليك، السلام عليك، لا جعله اللّه آخر تسليمى عليك» (۳).

وتقول فى وداع الأئمّة عليهم السلام: السلام عليكم أئمّة الهدى ورحمة اللّه وبركاته، أستودعكم وأقرأ عليكم السلام، آمنّا باللّه وبالرسول، وبما جئتم به، ودللتم عليه.

اللّهمَّ اكتبنا مع الشاهدين. ثمّ ادع اللّه واسأله أن لا يجعله آخر العهد من زيارتهم» (۴).

فصل [فى أقسام الحجّ] (۵)

لابدّ للحاج قبل شروعه فيه من معرفة الوجوه التى يقع عليها الحجّ، وهو ما فرضه منها إجمالًا؛ ليتمّ له القصد بالقيام إلى الفرض، وهى ثلاثة: تمتّع وقران وإفراد.

أمّا التمتّع: فهو فرض من بَعُدَ منزله عن مكّة بثمانية وأربعين ميلًا.

وصفته: أن يحرم بالعمرة أوّلًا فى أشهر الحجّ من أحد المواقيت التى يأتى بيانها، فإذا قدم مكّة طاف بالبيت سبعة أشواط للعمرة وصلّى ركعتى الطواف، ثمّ سعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط لها، ثمّ يقصّر وقد أحلّ من كلّ شىء كان حرم عليه بالإحرام سوى الحلق. ويبقى مرتبطاً بالحج ليس له أن يخرج من مكّة حتّى

۱- ۱ الوسائل ۱۴: ۳۵۲ باب ۱۲ من أبواب المزار وما يناسبه حديث ۱.

۲- ۲ الوسائل ۱۴: ۳۵۸ باب ۱۵ من أبواب المزار وما يناسبه حديث ۱.

۳- ۳ الوسائل ۱۴: ۳۵۹ باب ۱۵ من أبواب المزار وما يناسبه حديث ۲.

۴- ۴ التهذيب ۶: ۸۰ باب ۲۸ من أبواب وداع من فى البقيع.

۵- ۵ ما بين المعقوفين زيادة من ن.

ص: ۳۴

یأتی به علی تفصیل مقرّر فی محلّه.

فإذا کان یوم الترویة أحرم بالحجّ من مکّة، وتوجّه إلی عرفة فوقف بها فی یومها بعد زوال الشمس إلی غروبها، ثمّ یفیض إلی المشعر فیبیت به بقیّة لیلة النّحر، ویقف به بعد طلوع الفجر من یوم النحر، ثمّ یفیض إلی منی فیرمی بها ذلک الیوم جمرة العقبة، ثمّ یذبح الهدی، ثمّ یحلق أو یقصر، ویأتی من یومه أو بعده إلی مکّة فیطوف بالبیت سبعة أشواط للحجّ ویصلّی رکعتیه، ویسعی بین الصفا والمروة سبعاً، ثمّ یطوف طوافاً آخر وهو طواف النساء ویصلّی رکعتیه، ثمّ یعود إلی منی فیبیت بها لیالی التشریق، ویرمی بها الجمرات الثلاث فی أیّامها علی ما سیجیء تفصیله.

وأمّا القران والإفراد: فإنّهما فرضُ حاضری مکّة ومن کان بُعد منزله عنها لا یبلغ ثمانیة وأربعین میلًا، ویشترکان فی معظم الکیفیّة، وهی: الإحرام بالحجّ أوّلًا فی أشهره من أحد المواقیت، والإتیان بجمیع أفعالها التی عددناها فی حجّ التمتّع إلّا الهدی فإنّه لیس بواجب علی المفرد مطلقاً، وأمّا القارن فستعرف حکمه فیه.

ثمّ یخرج إلی الجعرانة أو الحدیبیّة أو التنعیم، فیحرم بعمرة مفردة ویطوف لها ویسعی، ثمّ یطوف لها أیضاً طواف النساء.

ویمتاز أحدهما عن الآخر بأنّ القارن یسوق فی إحرامه بالحجّ هدیاً، فیجب علیه بالسّیاق ذبحه بمنی وإن کان تبرّعاً، وإنّما یستحقّ (۱) السیاق الموجب للذبح المقتضی لصیرورة الحجّ قِراناً بإشعار الهدی أو تقلیده، سواء عقد إحرامه بأحدهما أو بالتلبیة.

ومن حجّ تطوّعاً فهو بالخیار بین الأنواع الثلاثة وأفضلها التمتّع.

[فی أرکان الحجّ] (۲).

واعلم أنّ بعض الأصحاب (۳) حصر الأرکان من أفعال الحجّ والعمرة فی ثلاثة عشر، نیّة الإحرام بالعمرة، وإحرامها، والتلبیة لها، والطواف، والسعی،

۱- ۱ فی الأصل: یتحقّق.

۲- ۲ ما بین المعقوفین زیادة من ن.

۳- ۳ وهو الشهید فی الدروس ۱: ۳۲۸.

ص: ۳۵

ومثلها للحج، والوقوف بعرفات، وبالمشعر، والترتيب.

وأراد من الركن ما يبطل الحج بفواته عمداً لا سهواً، واستثنى منه فوات الموقفين، فجعله فيه بمعنى ما يبطل عمداً وسهواً.

ولا ضرورة إلى هذا التكلّف مع أنّ الكلام فى الوقوفين لا يخلو من نظر.

وستعلم الحال من تحقيق الحكمين فيهما عند الانتهاء إلى محلّه. ويظهر أنّ الوجه قصر الاستثناء على الوقوف بالمشعر.

فصل [فى حقيقة النيّة] (۱)

ولابدّ للحاج أيضاً من معرفة حقيقة النيّة التى يتوقّف عليها وقوع العبادة على وجهها المطلوب للشارع، فقد طال فى بيانها كلام المتأخّرين وخلى منه حديث أهل البيت عليهم السلام رأساً، وكذلك قدماء فقهائهم، الّذين لم يتجاوزا المأثور عنهم فيما دوّنوه من الأحكام الشرعية، ولم يحتاجوا إلى مضاهاة أهل الخلاف فى توليد المسائل وشدّة الرغبة فى إكثار الاستنباط. والتنافى بين المسلكين فى خصوص هذا الموضع ظاهر، ولكنّ التحقيق فى وجه الجمع بينهما أنّ المقتضى للسكوت عنها سهولة الأمر وبُعد انفكاك أفعال العقلاء عن القصد إليها، وخلوّ عبادات المكلّفين عن إرادة الخروج بها من عهدة التكليف إذا كانت واجبة، أو عن قصد الموافقة لإرادة اللّه سبحانه، والتعرّض لثوابه إذا كانت مندوبة، ولا وجه لاعتبار الزيادة عن هذا المقدار فى نيّة كلّ من الواجب والندب، غاية ما هناك أنّ فى المعنى الذى ذكرناه إجمالًا يمكن أن يفصّل إلى اعتبارات متعدّدة وجهات متغايرة تكثر فى الصورة وتطول على قلّة طائل ومحصول.

والداعى للمتأخّرين إلى ما سلكوه وأطنبوا فيه من تحرير المعنى وتفصيله إلى (۲) القيود المعروفة المؤداة بالعبارات المشهورة، هو ملاحظة حال العوام ومن يتعسّر عليه فهم المراد بدون ذلك وهو غرض هيّن، لكنّه يصلح عذراً.

وعلى كلّ حال فالذى يجب تحصيله فى باب النيّة لأفعال الحجّ وغيرها: هو

۱- ۱ ما بين المعقوفين زيادة من ن.

۲- ۲ فى ن: أنّ بدل إلى.

ص: ۳۶

تشخیص (۱) الفعل فی الذهن، وتمییزه (۲) بوجه ما، ثمّ القصد إلی طاعة اللّه سبحانه به إن کان واجباً، وموافقة إرادته إن کان ندباً.

ومن أراد التجاوز عن هـذا المقدار ورغب فی تعاطی ما یجده فی کلام من یحسن به الظنّ من الأصـحاب فلا حجر، لکن بشـرط عدم اعتقاد توظیفه وأنّ المطلوب لا یحصل بدونه، فإنّه جهل فظیع وتشریع شـنیع. وإن کان ولابدّ لبعض الأفهام من الاستعانة باللفظ فینبغی الاقتصار علی القلیل منه، کالعبارات التی لخّصها الوالد قدس سره فی آخر الأمر (۳).

ونحن نورد هنا نیات (۴) أفعال حجّ التمتّع جملة علی نهج إیراد أفعاله فی الفصل السابق.

فنقول: صورة نیّـة الإحرام بعمرة التمتّع: أُحرم بالعمرة المتمتّع بها إلی الحـجّ طاعـة للّهأو موافقة لإرادته علی حسب الوجوب أو الندب.

وینبغی أن یعلم أنّ الغرض من التمتّع بها إلی الحجّ انضمامها إلیه واتصالها به، فیراد من التمتّع الانتفاع، وتجعل إلی بمعنی مع.

وذکر جماعة من الأصحاب: أنّ معنی الکلام التی یتلذّذ بالتحلّل منها إلی حین الإحرام بالحجّ. وأراه (۵) بعیداً.

وإن احتیج إلی نیّة التلبیة، فصورتها: التی طاعة للّهأو موافقة لأمر اللّه.

ونیّة طواف العمرة: أطوف طواف عمرة التمتّع طاعةً للّه.

ونیّة رکعتیه: اصلّی رکعتی طواف العمرة طاعةً للّه.

ونیّة السعی: أسعی سعی عمرة التمتّع طاعةً للّه.

ونیّة التقصیر: اقصّر طاعةً للّه.

ونیّة الإحرام بالحج: احرم بحجّ التمتّع طاعةً للّه، والتلبیة کما فی العمرة.

ونیّة الوقوفین والمبیت بالمزدلفة: أقف بعرفة إلی الغروب طاعةً للّه. أبیت بالمزدلفة طاعةً للّه، أقف بالمشعر طاعةً للّه.

۱- ۱ فی م: تخصیص بدل تشخیص.

۲- ۲ فی م و ن: وتمیّزه.

۳- ۳ وهی: نیّات الحجّ والعمرة رسالة صغیرة مطبوعة فی نشرة میقات الحج العدد ۲ ص ۸۰.

۴- ۴ فی الأصل بیان بدل نیات.

۵- ۵ فی م: «وأراده».

ص: ۳۷

ونيّات منى يوم النحر: أرمى هذه الجمرة بسبع حصيات طاعةً للّه. أذبح هذا الهدى طاعةً للّه. والأكل منه والتصدّق والإهداء: آكل من هذا الهدى أو أتصدّق أو أهدى طاعةً للّه. أحلق رأسى طاعةً للّه، وإن اقتصر على التقصير فكالعمرة.

ونيّات بقيّة مناسك مكّة: أطوف طواف حجّ التمتّع طاعةً للّه، اصلّى ركعتى طواف حجّ التمتّع طاعةً للّه، أسعى سعى حجّ التمتّع طاعةً للّه، أطوف طواف النساء فى حجّ التمتّع طاعةً للّه، اصلّى ركعتى طواف النساء طاعةً للّه.

ونيّات ما يبقى من المناسك بمنى: أبيت هذه الليلة بمنى طاعةً للّه. أرمى هذه الجمرة بسبع حصيات طاعةً للّه. والإشارة فى الموضعين بهذه إلى كلّ ليلة من الليالى الثلاث بخصوصها وإلى كلّ جمرة من الثلاث بانفرادها. فالعبارة فى الجميع وإن اتّحدت فإنّ المعنى باعتبار الإشارة يتعدّد.

فصل [فى المواقيت] (۱)

يستحبّ لمن أراد الحجّ أن يوفر شعر رأسه إذا رأى هلال ذى القعدة، وأن يتهيّأ للإحرام إذا انتهى إلى أحد المواقيت التى وقّتها رسول اللّه صلى الله عليه و آله.

وهى خمسة، ذو الحليفة وهو مسجد الشجرة، والجحفة، والعقيق، وقرن المنازل، ويلملم؛ ومن لم يمر طريقه بأحدها يتحرّى المحاذى له ويحرم منه. ومن كان منزله دون هذه المواقيت إلى مكّة أحرم منه.

والمعروف فى كلام الأصحاب شمول هذا الحكم لأهل مكّة فيكون إحرامهم بالحجّ من منازلهم، مع أنّ النصّ الوارد بالحكم لا يتناولهم. وفى حديثين من مشهورى الصحيح ما يخالف ذلك.

أحدهما: عن عبد الرحمن بن الحجّاج، عن أبى عبداللّه عليه السلام، قال: قلت له: إنّى أريد الجوار فكيف أصنع؟ فقال: إذا رأيت هلال ذى الحجّة فاخرج إلى الجعرانة فاحرم منها بالحج- وفى جملة الحديث وهو طويل أنّه عليه السلام قال-: «إنّ سفيان فقيهكم أتانى فقال: ما يحملك على أن تأمر أصحابك يأتون الجعرانة فيحرمون

۱- ۱ ما بين المعقوفين زيادة من ن.

ص: ۳۸

منهـا؟ فقلت له: هـو وقت من مـواقيت رسـول اللَّه صـلى الله عليه و آله- وسـاق الكلاـم إلى أن حكى سـفيان أنّه قـال-: أمـا علمت أنّ أصحاب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أحرموا من المسجد؟

فقـال عليه السـلام: إنّ أولئك كانوا متمّعين، في أعناقهم الـدماء، وإنّ هؤلاء قطنوا بمكّـة فصاروا كأنّهم من أهل مكّـة، وأهل مكّـة لا متعـة لهم فـأحببت أن يخرجوا من مكّـة إلى بعض المواقيت، ثمّ قـال عليه السـلام: فقـال لي- يعني سـفيان- وأنـا أخبره أنّهـا وقت من مواقيت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله- يعني الجعرانة-: يا أبا عبداللَّه فإنّي أرى لك أن لا تفعل.

فضحكت وقُلت: ولكنّي أرى لهم أن يفعلوا» (۱).

والحـديث الثاني عن صـفوان بن يحيى بن أبي الفضل سالم الحنّاط، قال: كنت مجاوراً بمكّـة، فسألت أبا عبداللَّه عليه السـلام من أين أُحرم بالحجّ؟ فقال: «من حيث أحرم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله من الجعرانة» (۲).

والعجب من عـدم التفات الأصـحاب إلى هـذين الحـديثين مع انتفاء المنافي لهما من الأخبار وصـحّة طريقهما عند جمهور المتأخّرين، وما رأيت من تعرّض لهما بوجه سوى الشـهيد في الدروس (۳)، فإنّه أشار إلى مضمون الأوّل ساكتاً عليه، وبعض المتأخِّرين عنه، فقال بعد التنبيه عليه: إنّه غير معروف، والاحتياط في ذلك مطلوب، وليس بمتعسّر.

[في الإحرام] (۴)

إذا تقرّر هـذا، فلنعـد إلى إتمـام الكلاـم في التهيؤ للإـحرام، والغرض منه الاسـتطابة بأنواعهـا المعهودة شـرعاً، من تقليم الأظفـار وأخذ الشـارب، ونتف الإبط، وحلق العانـة، والإطلاء، والاستياك، والاغتسال، ثمّ يلبس الرجل ثوبي الإحرام يأتزر بأحـدهما ويرتـدي بالآخر بأن يغطّي منه منكبيه أو يتوشّـح فيقتصر على أحـدهما، ويعتبر فيهما أن يكونا من جنس ما يصـحّ فيه الصـلاة اختياراً. ولا بأس بالزيادة عليهما، ومن لا رداء يجعل على عاتقه عمامة.

ويستحب كون الثوبين من القطن الأبيض.

۱- ۱ الوسائل ۱۱: ۲۶۷ باب ۹ من أبواب أقسام الحجّ حديث ۵.

۲- ۲ الوسائل ۱۱: ۲۶۷ باب ۹ من أبواب أقسام الحج حديث ۶.

۳- ۳ الدروس ۱: ۴۸۴.

۴- ۴ ما بين المعقوفين زيادة من ن.

ص: ۳۹

ویکره أن یحرم فی الثوب الوسخ والمعلّم مع القدرة علی غیره، وأن یغسل الثوب الذی یحرم فیه حتّی یحلّ إلّاأن یصیبه نجاسة فیغسله. ولا بأس بتغییر المحرم ثیابه ولکن إذا دخل مکّة لبس ثوبی إحرامه اللذین أحرم فیهما. ویکره بیعهما.

ولمن حجّ علی طریق المدینة أن یتجهّز منها بجمیع ما ذکرنا ثمّ یأتی مسجد الشجرة. وإن نام بعد الغسل أو لبس ما لا یلبسه المحرم أو أکل ما لا ـ یأکله أعاد الغسل. ویجزیه غسل الیوم للیله، وغسل اللیلة للیوم، ولا بأس أن یدّهن قبل الغسل وبعده بأیّ دهن شاء إذا لم یکن فیه مسک ولا عنبر ولا زعفران ولا ورس.

ولیکن فراغه من ذلک کلّه عند زوال الشمس فإنّه أفضل، ولا ینشئ الإحرام إلّافی دُبر صلاة مکتوبة أو نافلة، فإن اتّفق فی وقت فریضة أحرم بعد التسلیم منها، وإلّا صلّی رکعتین نافلة وأحرم بعدهما، فإذا انفتل من الصلاة حمد اللَّه عزّوجلّ وأثنی علیه، وصلّی علی النبیّ صلی الله علیه و آله ثمّ یقول: اللّهم إنّی أسألک أن تجعلنی ممّن استجاب لک، وآمن بوعدک، واتّبع أمرک، فإنّی عبدک وفی قبضتک، لا اوقی إلّاما وقیت، ولا آخذ إلّا ما أعطیت، وقد ذکرت الحج، فأسألک أن تعزم لی علیه علی کتابک وسنّة نبیّک صلی الله علیه و آله، وتقوّینی علی ما ضعفت عنه، وتتسلّم منّی مناسکی فی یسرٍ منک وعافیة، واجعلنی من وفدک الذین رضیت وارتضیت وسمّیت وکتبت، اللّهمَّ إنّی خرجت من شقّة بعیدة، وأنفقت مالی ابتغاء مرضاتک، اللّهمَّ فتمّم لی حجّتی وعمرتی، اللّهمَّ إنّی ارید التمتّع بالعمرة إلی الحجّ علی کتابک وسنّة نبیّک صلی الله علیه و آله، فإن عرض لی عارض یحبسنی فحلّنی حیث حبستنی بقدرک الذی قدّرت علیّ، اللّهمَّ إن لم تکن حجّة وعمرة، أحرم لک شعری وبشری ولحمی ودمی وعظامی ومخّی وعصبی من النساء والثیاب والطیب، ابتغی بذلک وجهک والدار الآخرة. ثمّ قم فامشِ هنیئة فإذا استوت بک الأرض ماشیاً کنت أو راکباً فلبّ. روی ذلک معاویة بن عمّار فی الصحیح عن أبی عبداللَّه علیه السلام (۱).

وروی نحوه جماعة کثیرة، منهم منصور بن حازم، وعبداللَّه بن سنان،

۱- ۱ الوسائل ۱۲: ۳۴۰ باب ۱۶ من أبواب الإحرام حدیث ۱.

ص: ۴۰

ومعاویة بن وهب، وعبیداللّه الحلبی، وعبد الرحمن بن الحجّاج والکلّ فی الصحیح (۱).

وروی هشام بن الحکم فی الصحیح أیضاً عنه علیه السلام فی الإحرام من العقیق أنّه قال: «إذا صلّیت قلت ما یقول المحرم فی دبر صلاتک، وإن شئت لبّیت فی موضعک.

والفضل أن تمشی قلیلًا ثمّ تُلبّ» (۲) فاعتبار المقارنة بین نیّة الإحرام والتلبیة بنحو مقارنة تکبیرة الإحرام بنیّة الصلاة کما یوجد فی کلام جمع من الأصحاب (۳) خلاف ما تظاهرت (۴) به الأخبار عن أهل البیت علیهم السلام (۵).

فصلٌ [فی التلبیة] (۶)

والأولی فی صورة التلبیة أن تقول: لبّیک اللّهمّ لبّیک، لبّیک لا شریک لک لبّیک إنّ الحمد والنعمة لک والملک لا شریک لک لبّیک بمتعة بعمرة إلی الحجّ. روی ذلک معاویة بن وهب فی الصحیح عن أبی عبداللّه علیه السلام (۷).

ورواه بدون التلبیة الأخیرة عبداللّه بن سنان فی الصحیح أیضاً عنه علیه السلام (۸).

وروی معاویة بن عمّار فی الصحیح عنه علیه السلام أنّه قال: التلبیة أن تقول: «لبّیک اللّهم لبّیک، لبّیک لا شریک لک لبّیک، إنّ الحمد والنعمة لک والملک لا شریک لک [لبّیک] لبّیک ذا المعارج لبّیک، لبّیک داعیاً إلی دار السلام لبّیک، لبّیک غفّار الذنوب لبّیک، لبّیک أهل التلبیة لبّیک، لبّیک ذا الجلال والإکرام لبّیک، لبّیک تُبدئ والمعاد إلیک لبّیک، لبّیک تستغنی ویُفتقر إلیک لبّیک، لبّیک مرهوباً ومرغوباً إلیک لبّیک، لبّیک إله الحقّ لبّیک، لبّیک ذا النعماء والفضل الحسن الجمیل لبّیک، لبّیک کشّاف الکُرب العظام لبّیک، لبّیک عبدک وابن عبدیک لبّیک، لبّیک یا کریم لبّیک. تقول هذا فی دبر کلّ صلاة مکتوبة أو نافلة، وحین تنهض بک بعیرک، وإذا علوت شرفاً أو هبطت وادیاً، أو لقیت راکباً، أو استیقظت من منامک وبالأسحار. وأکثِر ما استطعت واجهر بها، وإن ترکت بعض التلبیة فلا یضرّک، غیر أنّ إتمامها أفضل.

واعلم أنّه لابدّ لک من التلبیات الأربع التی کنّ أوّل الکلام، وهی الفریضة،

۱- ۱ التهذیب ۵: ۸۴ باب صفة الإحرام حدیث ۸۵- ۸۷؛ والفقیه ۲: ۳۲۰ باب عقد الإحرام وشرائطه حدیث ۲۵۶۴.

۲- ۲ الفقیه ۲: ۳۲۱ باب عقد الإحرام وشرطه ونقضه والصلاة له حدیث ۲۵۶۵.

۳- ۳ منهم ابن إدریس فی السرائر ۱: ۵۳۶، والشهیدین فی اللمعة والروضة، انظر الزبدة الفقهیة ۳: ۳۴۴، والمحقّقالکرکی فی جامع المقاصد ۳: ۱۶۷.

۴- ۴ فی هامش ن: «ما تظافرت».

۵- ۵ کما فی الروایات الآنفة الذکر وغیرها.

۶- ۶ ما بین المعقوفین زیادة من ن.

۷- ۷ الوسائل ۱۲: ۳۸۲ باب ۴۰ من أبواب الإحرام حدیث ۱.

۸- ۸ الکافی ۴: ۲۴۹ باب حجّ النبیّ صلی الله علیه و آله حدیث ۷.

ص: ۴۱

وهو التوحيـد، وبهـا لبّى المرسَـلون، وأكثِر من ذى المعـارج فـإنّ رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله كان يُكثر منها. وأوّل من (۱) لبّى بها إبراهيم عليه السـلام، قال: إنّ اللَّه يدعوكم أن تحجّوا بيته فأجابوه بالتلبية فلم يبق أحد أخذ ميثاقه بالموافاة فى ظهر رجل ولا بطن امرأة إلّا أجاب بالتلبية» (۲).

روى الكلينى فى الصـحيح عن ابن فضّال عن رجال شتّى عن أبى جعفر عليه السلام، قال: قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «من لبّى فى إحرامه سبعين مرّة إيماناً واحتساباً أشهد اللَّه ألف ألف ملكٍ ببراءة من النار وبراءة من النفاق» (۳).

وفى خبر مرسل أنّ أبا عبـداللَّه عليه السـلام روئى وهو محرم قـد كشف عن ظهره حتّى أبـداه للشـمس وهو يقول: «لبّيك فى المذنبين لبّيك» (۴).

الهوامش:

۱- ۱ فى الأصل: ما.

۲- ۲ الوسائل ۱۲: ۳۸۲ باب ۴۰ من أبواب الإحرام حديث ۲. وما ورد بين المعقوفين من المصدر.

۳- ۳ الكافى ۴: ۳۳۷ باب التلبية حديث ۸. الوسائل ۱۲: ۳۸۶ باب ۴۱ من أبواب الإحرام حديث ۱.

۴- ۴ الوسائل ۱۲: ۳۸۶ باب ۴۰ من أبواب الإحرام حديث ۹.

ص: ۴۵

الحرمان الشريفان فی كتاب «الحقيقة والمجاز»

الحرمان الشريفان

الحرمان الشريفان

فی كتاب

الحقيقة والمجاز

«الحقيقة والمجاز»

تأليف: عبد الغنی النابلسی ت ۱۱۴۳ ه. ق محمدعلی المقدادی

لا شک فی أنّ السفر قد تولّد ونشأ من حين وجود البشر، فقد سافر الإنسان ورحل منذ أن خُلق؛ لمقاصد وأغراض شتّی، منها الزيارة... وكتابة الرحلة من الأعمال التی قام بها الكثير من العلماء وغيرهم، وصارت ذخيرة طائلة وتراثاً عظيماً للشعوب والمجتمعات، ولأجل ذلک قام الادباء والمثقّفون بنشر وتحقيق العديد من الرحلات، وازدهر أدبها فی العصور القديمة والأخيرة.

وبلاد الحجاز خاصّةً مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة أصبحتا مركزين تجاريين من قديم الدهر ولوقوعهما فی طريق التجارة، ثمّ بعد أن جاء الإسلام ونزل القرآن الكريم فی هذين الحرمين الشريفين. وصارت مكّة المكرّمة مركزاً للبعثة المحمّدية وقبلةً لكلّ المسلمين فی أرجاء الأرض، وبعد أن هاجر منها الرسول صلی الله عليه و آله إلی المدينة الطيّبة و توفی فيها، تميّزت بلاد الحجاز عن غيرها بوجود هذين المعلَمين البارزين للزيارة وأداء الفريضة. فقد تشرّف المسلمون بزيارة الحرمين الشريفين لأداء

ص: ۴۶

النسک وزیارهٔ الرسول الأمین صلی الله علیه و آله، فکثرت الرحلات السنویهٔ وغیرالسنویّهٔ إلیهما.

لقـد کتب أهل الثقافـهٔ والعلم من العرب والعجم؛ حول هـذین المرکزین وعنالسـفر إلیهما وفضـیلته و آدابه و فوائده أکثر من کتابتهم عن سائر البلاد الاخری، مماجعل الرحلهٔ الحجازیهٔ أکبر ثروهٔ فی عالم الثقافهٔ والمعرفهٔ وأدب الرحلات. وقد بذل الأسـتاذ حمد الجاسـر کلّ جهوده لتعریف کتب الرحّالـهٔ العرب، وقام بکتابـهٔ مقالات عدیدهٔ فی مجلّته (مجلّهٔ العرب)، إلا أنها کانت أقل مماکتبه المسـلمون غیر العرب، فقد کتبوا رحلات کثیرهٔ بشتّی لغاتهم، فیا حبّذا لو یُنشأ مرکز إسـلامی لترجمتها؛ لکی یستفید منها الباحثون والذین یحبّون أن یعلمواکیف کانت تتم هذهالرحلات، وکیف تؤدی المناسک و... من صدر الإسلام إلی زماننا هذا.

الحقیقهٔ والمجاز

وکان من جملهٔ الکتب التی دوّنت حول الرحلهٔ الحجازیهٔ، هذا الکتاب المسـمّی ب «الحقیقهٔ والمجاز فی الرحلهٔ إلی بلاد الشام ومصـر والحجاز» لمؤلّفه العالم الأدیب، الحنفی المذهب، الشیخ عبد الغنی بن إسـماعیل النابلسی (۱۰۵۰ إلی ۱۱۴۳ ه. ق). وقد قام بنشر هذا الکتاب وتحقیقه مرکز تحقیق التراث بجمهوریهٔ مصر العربیهٔ سنهٔ ۱۹۸۶ م علی طریقهٔ أفسیت.

إنّ الشـیخ تشـرّف لزیارهٔ الحرمین الشـریفین ثلاث مرّات، والرحلـهٔ التی صـدر لها هـذا الکتاب لم تکن رحلته الوحیدهٔ، فإنّ له رحلتین اخریین.

اولاهما فی سـنهٔ ۱۱۰۰ ه. ق، وثانیتهمـا فی سـنهٔ ۱۱۰۱ ه. ق. امّـا الرحلـهٔ الأـخیرهٔ فهی صـارت رحلـهٔ کبری للمؤلّف، وقـد قام بتألیف یومیّاتها

ص: ۴۷

سنة ۱۱۰۵ ه. ق؛ وفرغ من تدوينها سنة ۱۱۱۰ ه. ق.

هذا الكتاب يحتوى على ثلاثة أقسام:

۱- السفر إلى البلاد الشامية، من الصفحة ۱ إلى الصفحة ۱۶۹.

۲- السفر إلى مصر، من الصفحة ۱۷۰ إلى الصفحة ۲۹۳.

۳- السفر إلى الديار المقدّسة والأقطار الحجازية من الصفحة ۲۹۴ إلى الصفحة ۴۹۱.

وهذا القسم الأخير قد حظى بأكثر صفحات الكتاب، ونحن اقتصرنا على القسم الأخير لما فيه من الأهمّية، واقتصرنا أيضاً على ما كتب حول الأماكن والآثار؛ وبعض العقائد التى كانت سائدة فى ذلك الزمان، فالكتاب وإن كان مملوءاً بالأشعار والحكايات الغريبة وتعريف الكتب الفقهية والتاريخية واللقاءات الكثيرة وغيرها، ويوجد فيه اشتباهات أيضاً، إلّاأنّ التعريف بكلّ هذا يحتاج إلى مجال أوسع من هذا المقال.

إنّ النابلسى قد بيّن غرضه من هذه الرحلة فى الصفحة ۳ و ۴ من كتابه، وقال:

«لقد كنتُ فيما تقدّم من الزمان، مع جملة من الأصحاب والإخوان، والتبرّك بنفحات مجالسهم وهاتيك الحضرات، ويكون ختم ذلك بالحجّ الشريف، وزيارة النبىّ صلى الله عليه و سلم فى ذلك البلد المنيف، إلى أن هيّأ اللّٰه تعالى لنا الأسباب، وقطع عنّا العوايق، وفتح علينا هذا الباب... وكان ذلك فى أواخر فصل الصيف، فى شهر آب، فكنّا نتمتّع بمن ننزل عليهم نزول الضيف... لا نأتى إلى قرية إلّاويقوم لنا أهلها بما يجب من الإكرام، ولا ندخل إلى بلدة إلّابغاية المهابة والاحتشام... نجتمع بأهل الصلاح والدين... ونزور الأولياء، ونتبرّك بقبور السادة الأصفياء ونتباحث مع العلماء... وقضينا فريضة الحجّ، مع كمال العجّ والثّج، ثمّ رجعنا إلى

ص: ۴۸

بلادنا دمشق الشام... فأردنا أن نثبت ذلک فی هذا الکتاب؛ لیکون مذکّراً لنا بنعم اللَّه تعالی علینا وعلی بقیّهٔ الأصحاب، وإنّ فی ذلک لعبرهٔ لُاولی الألباب، وقصدنا التحدّث بنعم اللَّه تعالی بین الأحباب».

بدأ المؤلّف رحلته یوم الخمیس، غرّهٔ المحرّم ۱۱۰۵ ه. ق، وانتهت فی الخامس من شهر صفر ۱۱۰۶ ه. ق. ورافقه ابنه وبعض أصحابه، فاستغرقت رحلته ۳۸۸ یوماً، قضی منها ۹۹ یوماً فی الطریق، من دمشق إلی حدود مصر الشرقیهٔ، ثمّ قضی فی مصر ۸۳ یوماً، ثمّ قضی ۵۴ یوماً فی الطریق من مصر إلی الحجاز، ثمّ قضی ۱۰۹ أیام فی البلاد الحجازیهٔ، ثمّ قضی ۴۳ یوماً فی طریق عودته من الحجاز إلی الشام، فهو تشرّف لزیارهٔ المدینهٔ المنوّرهٔ مرّتین، مرّهٔ قبل الحجّ ومرّهٔ بعده.

***

ص: ۵۱

بسم اللّه الرحمن الرحيم

وقوع الحرب بين أعراب البادية وأمير الحجاز

وحين وصل الشيخ النابلسی إلی ينبع البحر، أخبروه أنّه قد وقعت الحرب بين أعراب البادية- قبيلة حرب- وبين أمير الحجاز، فخرج الشيخ من ينبع البحر حتّی وصل إلی ينبع النخل، وهی قرية كبيرة ذات نخل كثير ومياه غزيرة، وهی المنزل الرابع والعشرون من منازل الحاجّ، وبقی علی الحاج إلی مكة ستّة منازل:

۱- منزل بدر ۲- منزل القاع ۳- منزل رابغ ۴- منزل قديد ۵- منزل عسفان ۶- منزل وادی فاطمة. ولقی الشيخ شريف الحجاز قرب ينبع النخل.

قال المؤلِّف- الصفحة ۳۱۷-: «ثمّ إنّنا سألنا عن السير إلی المدينة المنوّرة فأخبرونا أنّ العرب الذين هم عرب حرب، حاصل بينهم وبين أمير الحجاز سعد ابن زيد منازعة وحرب، وأنّهم واقفون فی وادی الصفراء، يمنعون كلّ من سار إلی المدينة، وقد ظهرت منهم للزائرين خصلة قبيحة كمينة، وأن لا محيص إلّا بالسفر إلی جوار سعد بن زيد الهاشمی أمير الحجاز، فإنّه يقدر إنفاذنا إلی تلك الجهة والجواز، وأمّا علی غير هذا الوجه المذكور، فإنّه لا يمكن أصلًا كما قال الشاعر المشهور:

أيا دارها بالخيف إنّ مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال

فلمّا رأينا الأمر كذلك وتحقّقنا صعوبة هذه المسالك، طلبنا مَن نكتری معه خمسة من الجمال ونسير إلی جهة سعد بن زيد، لنبلغ به غاية الآمال... ثمّ ركبنا وسرنا فوصلنا وقت العصر إلی ينبع النخل علی ماء جاری فی وجه الأرض؛ عذب زلال، فشربنا وسقينا الدواب...، ثمّ ركبنا وسرنا قليلًا بين ذاك النخيل، وإذا بخيام

ص: ۵۲

شریف الحجاز سعد بن زید وعظیم ذلک الرحیل، فدخلنا علیه فی رفیع ذلک المضرب الجلیل، وشریف ذلک المخیّم الجمیل، فتلقّانا بالقبول والاحترام، وأقبلنا علیه بلطائف التحیة والسلام، وجلسنا معه حصّة من الزمان، نتحادث فی وقایع هذا العصر والأوان، ثمّ أمر لنا بخیمة واسعة... ثمّ إنّنا طلبنا من حضرة الشریف المحترم أن یرسلنا إلی المدینة المنوّرة، فقال لنا: لو أرسلنا معکم مائة فارس أو أکثر لا یمکن ذلک فی هذه الأوقات المکدرة، فإنّنا فی محاربة هذه القبایل من عرب حرب، وعندنا هذه العربان المستکثرة، فاصبروا أیّاماً حتّی نذهب نحن وتذهبون معنا فی عافیة وسلامة...» (۱).

شوق لزیارة الحبیب

صار المؤلِّف متعباً من طول الوقوف فی الطریق، وأنشد بعض الأشعار شوقاً لزیارة المدینة المنوّرة.

قال المؤلِّف- الصفحة ۳۲۱-: «... یوم الأحد الحادی والعشرون ومائتان وهو الیوم الخامس عشر من شعبان، وقد زاد بنا الشوق إلی زیارة الحبیب، وکثر الحنین إلیه والنحیب:

وأکثر ما یکون الشوق یوماً إذا دنت الدیار من الدیار

وللّه درّ ابن أبی جابر المغربی حیث قال:

إذا بلغ المرء أرض الحجاز فقد نال أفضل ما أمّ له

وإن زار قبر نبیّ الهدی فقد أکمل اللّه ما أمّله

وقد حال بیننا وبین زیارته والسفر إلیه مع قرب المزار، قبیلة حرب المتفرّقة الأفخاذ فی هاتیک الأقطار، فقلنا فی ذلک من نوع الأشعار:

ألا یا رسول الإله الذی لداء الجفا زورة منه طب

۱- ۱ نهایة المتن فی الصفحة: ۳۲۰.

ص: ۵۳

إلی کم وقد قرب الملتقی وما صار وصل ولا زال حجب

لئن کان بینی وبینک حرب (۱) فما کان بینی وبینک حرب

وهذا المکان الذی نحن نازلون فیه مع حضـرة الشریف حفظه اللَّه تعالی الذی هو ینبع النخل وما حوله من القری، یسمّیه أهل الحرمین بالشام، فلعلّ ذلک لکثرة مائه وفواکهه، فأشبه بلاد الشام؛ أو لغیر ذلک، فإذا أرادوا الـذهاب إلیه قالوا: نرید أن نذهب إلی الشام، کما سمعنا ذلک منهم...» (۲).

جبل رَضْوی

قـال المؤلِّف: «... الیوم السـادس عشـر من شـعبان، ولم نزل فی ذلـک المکـان، وکنّـا نـازلین تحت جبـل یسـمّی جبل رَضْوی... وذکر السـمهودی فی تاریـخ المدینـة تلخیص الوفـا قـال: رضوی بالفتـح کسـکری جبل علی یوم من ینبع وأربعـة أیّام من المدینـة... وتزعم الکیسانیة أنّ محمّد بن الحنفیة مقیم به حیٌّ یرزق، انتهی.

قلت: وهو محمّـد بن علیّ (۳) بن عبـد المطّلب، أبو القاسم، ویقال عبـداللَّه الهاشـمی المـدنی المعروف بابن الحنفیة، وهی خولة بنت جعفر من سبی الیمامة. وقال الزبیر ابن بکّار: وتسمّیه الشیعة المهدی...» (۴).

أقول: هـذه فلتـة ظاهرة من المؤلّف ومن ابن بکّار؛ لأنّ الشـیعة هم الإمامیة وهم غیر معتقدین أصـلًا بإمامة محمّد بن الحنفیة ولیس هو المراد بالمهـدی عندهم، بل المهدی عند الإمامیة هو: الإمام الحجّة المهدی بن الحسن العسـکری بن علی الهادی بن محمّد الجواد بن علیّ الرضا بن موسی الکاظم بن جعفر الصادق بن محمّد الباقر بن علی بن الحسین بن علی بن أبی طالب علیهم السلام.

إنهاء الحرب بین الشریف وحرب

لقد نقل النابلسی قصّة إنهاء الحرب بین شریف الحجاز وقبیلة حرب، وذلک

۱- ۱ أراد المؤلف من الحرب فی المصرع الأوّل، قبیلة حرب.

۲- ۲ الصفحة: ۳۲۱ من الکتاب.

۳- ۳ الصحیح هو محمّد بن علی بن أبی طالب بن عبد المطّلب.

۴- ۴ الحقیقة والمجاز: ۳۲۲.

ص: ۵۴

بسبب حضور نحو سبع وثلاثين قبيلة من قبائل المنطقة، واتّفقوا على غزوهم ضدّ «حرب» ولكن كلّ المشاكل رفعت بموت شيخ قبيلة حرب.

قال المؤلِّف: «... وكان الشريف يرسل لنا فی كلّ ليلة من يحرسنا بلا طلب منّا، فيمكث الاثنان والثلاثة من عبيده حول خيمتنا إلى طلوع الصباح، حذراً علينا من همج الأعراب الذين معه، فضلًا عن أعدائه القباح... إلى أن أصبحنا فی يوم الجمعة، السادس والعشرين ومائتين، وهو اليوم العشرون من شعبان، فأتى الخبر لحضرة الشريف أنّ شيخ قبيلة حرب واسمه «مُضَيان»- بضمّ الميم وفتح الضاد المعجمة وفتح الياء المثناة التحتيّة مشدّدة بعدها ألف ونون- قد مات بداء البطن، فاستبشر الجميع، بخذلان العدوّ الفظيع، فلمّا أصبحنا فی يوم السبت... زاد اشتياقنا إلى المدينة والبقيع...» (۱).

زيارة قبر الحسن المثنّى ابن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام قرب الجابرية

قال المؤلّف: «... فأرسل إلينا الشريف بكرة النهار، فركبنا وركب معنا واحد من جماعتنا وركب هو بنحو مائة فارس وابنه الشريف سعيد حفظه اللّه تعالى كذلك ركب بفرسان وقال لی: نذهب إلى زيارة الإمام حسن المثنّى ابن الإمام حسن ابن الإمام علی بن أبی طالب رضی اللّه عنهم، فسرنا نحو ساعة وإذا مكان هناك فی داخله بيت وفی ذلك البيت قبر، عليه جلالة ومهابة فوقفنا وقرأنا الفاتحة ودعونا اللّه تعالى راجين من كرمه وفضله حصول الإجابة، وقلنا فی ذلك من النظام بحسب ما اقتضاه الإلهام:

زرنا الإمام المثنّیوالقلب فيه تَهنّى فإنّه الحسن ابن السبط الإمام المكنّى

بالسيّد الحسن ابن الزهراء حسّاً ومعنى بنت الرسول إمام الأنام إنساً وجِنّا...» (۲)

۱- ۱ المصدر نفسه: ۳۲۴.

۲- ۲ المصدر نفسه: ۳۲۴- ۳۲۵.

ص: ۵۵

إحراق سعد بن زید قریة سویقة ونخیلها

سویقة قریة من قری ینبع النخل. قال المؤلّف: «... هی المشهورة الآن عندهم بسویق منازل بنی إبراهیم... وقد وجدناها الآن خالیة لیس بها أحد، وقد رحل أهلها وخرجوا علی الشریف سعد بن زید؛ لأنّهم حالفوا قبایل «حرب» فذهبوا معهم یساعدونهم علی قتاله، وهذه القریة فیها ماء جارٍ ونخل کثیر...

فجلسنا علی حافّة ذلک الماء وشربنا القهوة مع الشریف سعد وولده وبقیّة من کان من فرسانهما، وقد أمر الشریف بحرق بیوت القریة، وإنّا لنری النار تتأجّج فی جدرانها التی هی من أخشاب النخل الیابس، والهواء یزیدها تأجّجاً والتهاباً، وقد أمر بقطع النخل، فیصعد العبد الأسود إلی أعلی النخلة ویقطع جمارها وعراجینها، فتسقط العراجین إلی الأرض، کلّ عرجون فیه البسر الأخضر... ثمّ قمنا من ذلک المکان ورکبنا وسرنا نحن ومن کنّا معهم جمیعاً حتّی أقبلنا علی قریة الجابریة- نسبة إلی جابر- وهی بالقرب من قبر الإمام المثنّی الذی ذکرناه فیما مرّ، فخرج أهل القریة یلعبون بالأسلحة لملاقاة الشریف،...» (۱).

زیارة قبر الحسن المثلّث

قال المؤلّف: «... الیوم السادس والعشرون من شعبان، فعزمنا علی السیر إلی المدینة المنوّرة... وأرسل- الشریف سعد- معنا فارساً من فرسانه، فذهب بنا علی حسب طلق عنانه، بمکتوب منه إلی ولده الشریف مساعد... فرکبنا وسرنا بعد الدعاء له وتودیعه... فمررنا علی قریة سویقة المذکورة فیما تقدّم، ثمّ سرنا قلیلًا فوصلنا إلی قریة سویق وقت الظهر، وکأنّما القریتان [سویقة وسویق] کانتا فی الزمان المتقدّم بلدة واحدة، وأسوارها المتهدّمة الآثار بذلک شاهدة، وهی الآن مسکن الأشراف من بنی إبراهیم وهم من ذرّیة الحسین ابن الإمام علیّ بن أبی طالب کرّم اللَّه وجهه الکریم، ووجدنا الشریف مساعد هناک... ونزلنا عنده هناک فی بیت من بیوت القریة المذکورة... وفی تلک القریة بساتین کثیرة من النخیل

۱- ۱ المصدر نفسه: ۳۲۵- ۳۲۶.

ص: ۵۶

والفواكه والموز ونهر كبير تتشعّب منه سواقى جاريـة، وأخبرونـا أنّ هنـاك قبر الإمام الحسن المثلّث، وهو الحسن المثلث ابن الحسن المثنّى ابن الحسن الأوّل وهو سبط النبىّ صلى الله عليه و سلم ابن فاطمة الزهراء زوج علىّ رضى اللّه عنهم، فقرأنا الفاتحة ودعونا اللّه تعالى، ثمّ بينما نحن جالسون هناك وإذا برجل من العرب جاء من الشريف سعد بن زيـد بمكتوب إلى ابنه مساعد فقرأه وقال لنا: قد عيّن الشريف أبى معكم هـذا البـدوى من عرب جُهينـة، واسـمه رُوَيشـد- بصيغة التصغير- يأخذكم إلى المدينة، ففرحنا بذلك غاية الفرح، وزال عنّا ما كان عندنا من التعب والترح...» (۱).

المدينة المنوّرة

إنّ الشيخ النابلسى دخل المدينة المنوّرة فى اليوم الثالث من شهر رمضان المبارك، بعد أن ذهب الثلثان من ليلته، وقد أغلق باب سور المدينـة وكان يفتح كلّ يوم عنـد أذان الفجر، وصام هو وابنه ومن معه لهـذا اليوم الثالث، بعـد أن أكلوا السحور خارج سور المـدينة المنوّرة.

وقد نقل الشيخ النابلسى فى كتابه عن بعض الشعراء قطعة فى مدح الرسول الأمين صلى الله عليه و آله:

يا شفيع العصاة أنت رجائى كيف يخشى الرجاء عندك خيبه

وإذا كنتَ حاضراً بفؤادى غيبة الجسم عنك ليست بغيبه

ليس بالعيش فى البلاد انتفاع أطيبُ العيش ما يكون بطيبه (۲)

***

زيارة قبر النبىّ صلى الله عليه و آله ومحرابه

قال المؤلّف: «... فقمت أنا وابنى وآخر من جماعتى ودخلنا إلى المدينـة، وأبقينا بقيّـة جماعتنا عند الباب، لحراسة الأسباب والدواب، ثمّ توجّهنا فقلت لمن

۱- ۱ المصدر نفسه: ۳۲۸.

۲- ۲ المصدر نفسه: ۳۳۲.

ص: ۵۷

معنا: خذنا على باب السلام، لندخل منه بسلام، فاشتبه عليه الحال، وكان سبق له الزيارة قبل هذه السنة بأعوام وأحوال، فأدخلنا من باب الرحمة، حتّى دخلنا إلى الحرم الشريف، فوجدنا الجماعة فى صلاة الصبح والزحمة، فقلت له: خذنا إلى شبّاك النبىّ صلى الله عليه و آله لنبدأ بالزيارة، ووصلنا إلى مرادنا... وصلّينا بقرب محراب النبىّ صلى الله عليه و آله فى الروضة الشريفة صلاة الصبح مع الإمام... ولنا فى ذلك العهد من النظام بحسب ما اقتضاه المقام:

ليت شعرى فى يقظتى أم منامى إنّنى داخل بباب السلام

وعلى أحمد النبىّ صلاتى وعلى أحمد النبىّ سلامى...

كنتُ أرجو زيارةً منه حتّى حقّق اللّه بُغيتى ومرامى...

وترى الناس فى الشبابيك شتّى حول طه الرسول والشوق نامى

بين باكٍ وخاشعٍ بجواه يتشكّى وقائم باصطلام...

والقناديل أوقدت وشموع مشرقات فى قبضة الخدّام...» (۱)

بيت الإمام جعفر الصادق عليه السلام

إنّ الشيخ النابلسى ذهب إلى بيت شيخ الحرم يوسف آغا الطواشى، وكان فى بيت شيخ الحرم محراب، وكان يشتهر هذا البيت، ب «بيت الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام».

قال المؤلّف: «... ثمّ أخذ بيدى يوسف آغا... وذهبنا إلى داره شرقى الحرم الشريف، خارج باب النساء، وأنزلنا مع جماعتنا فى داخل داره فى مكان يقال: إنّه بيت جعفر الصادق، وفيه محراب، ونحن صائمون فى ذلك اليوم من شهر رمضان...

وصلّينا الظهر والعصر والمغرب والعشاء والتراويح فى الروضة الشريفة، وزرنا حضرة النبىّ صلى الله عليه و سلم، ورجعنا إلى منزلنا، ولله درّ الإمام أبى العبّاس أحمد المقرى عند زيارته الحضرة النبويّة حيث قال:

۱- ۱ المصدر نفسه: ۳۳۴- ۳۳۵.

ص: ۵۸

إليک أفرّ من زللی فرار الخائف الخجل

وكان مزار قبرک بال – مدينة منتهى أملی...

فتهدينی إلى رشدی وتمنعنی من الزلل

وتحملنی على سنن يؤمننی من الوجل

فأنت دليل من عُميت عليه مسالک السُبلِ

وإنّک شافعٌ برٌّ ومؤئلنا من الوهل

وإنّک خير مبتعث وإنّک خاتم الرسل...

و ألحقنی بجنّاتٍ لدى درجاتها الأُوَل...» (۱).

ثمّ نقل المؤلّف مائة اسم للمدينة المنوّرة وقال: «وللمدينة أسماء كثيرة، وكثرة الأسماء تدلّ على شرف المسمّى» وذكر تلک الأسماء فی الشعر وذكر أيضاً سور المدينة وسكّتيها الطويلتين المشتملتين على حوانيت وبيوت وقصور وأسواق، ونقل أسماء الأزقّة وقال: «إنّها كثيرة يتشعّب بعضها من بعض، منها الأزقّة الضيّقة جدّاً، ومنها الواسعة كالمعتاد...» (۲). ثمّ ذكر أبواب الحرم النبوی الشريف الأربعة، أعمدته ومناراته وآداب وكيفيّة صعود المؤذّن إلى المنارة للأذان و...

قال المؤلّف: «وفی حائط الحرم الشرقی شبّاک مطلّ على الطريق قبالة الحجرة الشريفة، تمرّ الحجّاج عليه بجمالهم ودوابّهم بقصد التبرّک وزيارة النبیّ صلى الله عليه و سلم، وعموم البركة للإبل والدواب، فأبواب الحرم النبوی الأربعة؛ بابان يفتحان على الغرب، باب السلام وباب الرحمة، وبابان يفتحان على الشرق، باب البقيع وباب النساء، وطول الحرم النبوی الشريف من الحائط القبلی إلى الحائط الشمالی، اثنان وسبعون ذراعاً، كلّ ذراع ثلاثة أشبار، ومن الحائط القبلی إلى آخر المسقوف منه، اثنان وعشرون ذراعاً، ومن أوّل غير المسقوف إلى الحائط الشمالی ثمانية وأربعون

۱- ۱ المصدر نفسه: ۳۳۵- ۳۳۶.

۲- ۲ المصدر نفسه: ۳۴۳.

ص: ۵۹

ذراعاً، وعرضه من المشرق إلى المغرب ستّة وثلاثون ذراعاً.

وجملة العواميد التى فى الحرم الشريف، مائتان وواحد وتسعون عموداً، فالعواميد التى داخل المسقوف من الحرم مائة وثلاثون عموداً، وعواميد الرواق الغربى الذى فى صحن الحرم أربعة وأربعون عموداً، وعواميد الرواق الشمالى ستّة وخمسون عموداً فى أربعة صفوف.

وفى صحن الحرم الشريف قبّة كبيرة يحيط بها جدران أربعة، وبابها يفتح إلى الشرق لوضع الشمع والزيت، وبقربها مكان فيه نخلتان أو ثلاث نخلات، وبئر ماؤه لطيف فيه بعض ملوحة.

وللحرم الشريف النبوى خمس منارات عاليات مرتفعات فى الهواء يتراسل فيها المؤذّنون فى وقت السحر، وفى الأوقات الخمسة بالأذان والصلوات على النبىّ صلى الله عليه و سلم، فإذا دخل وقت الصلاة يأتى رئيس المؤذّنين إلى شبّاك النبىّ صلى الله عليه و سلم ويسلم عليه ويقرأ الفاتحة، ويصلّى على النبىّ صلى الله عليه و سلم بأعلى صوته، ويفتح باب المنارة التى عند الحجرة الشريفة، ويدخل وحده بالأدب، ويقفل الباب من الداخل ثمّ يصعد ويبتدى هو بالأذان، وبقيّة المنارات الأربع إذا سمع المؤذّنون صوته بالصلاة على النبىّ صلى الله عليه و سلم عند الشبّاك صعدوا إليها، فإذا أذّن أذّنوا، وتسمّى تلك المنارة «الرئيسية» فإذا فرغوا من الأذان يبتدى الرئيس بالصلاة والسلام على النبىّ صلى الله عليه و آله فيتبعه الثانى ثمّ الثالث، ثمّ الرابع، ثمّ يبتدى الرئيس فيتبعه الباقون كذلك، واحد بعد واحد، على ثلاث أو أربع مرّات، ثمّ يختم الرئيس فيختمون بعده بالترتيب، فيكون ذلك على نحو ساعة ..، وهذا الوضع فى الأوقات الخمسة كذلك» (۱).

أئمّة الحرم النبوىّ الشريف وخطباؤه

قال المؤلِّف: «وللحرم الشريف خمسة عشر إماماً، منهم الحنفيّون، ومنهم الشافعيّون، وله أحد وعشرون خطيباً، منهم اثنا عشر خطيباً حنفيّون، وثمانية خطباء شافعيّون، خطيب واحد مالكى، فالأئمّة يصلّون بالنوبة فى كلّ يوم إمام

۱- ۱ المصدر نفسه: ۳۴۴- ۳۴۵.

ص: ۶۰

واحد من الحنفية وإمام من الشافعية، فيبتدئون من الظهر إلى الصبح، والإمام الشافعى يصلّى أوّلًا، ثمّ الإمام الحنفى إلّافى المغرب، فيتقدّم الإمام الحنفى لكراهة تأخير المغرب عنده. ويصلّى الإمام الحنفى يوماً فى محراب النبىّ صلى الله عليه و آله الذى فى الروضة الشريفة، فيصلّى الإمام الشافعى فى ذلك اليوم فى المحراب الذى خلف المنبر (محراب السلطان سليمان)، ثمّ فى ثانى يوم يصلّى الإمام الشافعى كذلك ويصلّى الحنفى مثل ما صلّى هو أوّل يومٍ» (۱).

بقيع الغرقد

قال المؤلّف: «ثمّ إنّنا ذهبنا إلى زيارة تربة البقيع وما فيها من قبور الصالحين... وهذه التربة واسعة مشتملة على مشاهد شريفة لجماعة من الصحابة وغيرهم. قال السمهودى: وفى مدارك عياض عن عياض عن مالك: أنّه مات بالمدينة من الصحابة نحو عشرة آلاف وهناك من سادات أهل البيت والتابعين ما لا يحصى، غير أنّ غالبهم لا يعرف قبره ولا جهته، لاجتناب السلف البناء والكتابة على القبور مع طول الزمان، فمّما عرف من ذلك مشهد إبراهيم بن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، وهناك قبر عثمان بن مظعون رضى الله عنه، روى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن أبيه، لمّا توفى إبراهيم بن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أمر أن يدفن عند عثمان بن مظعون، فرغب الناس فى البقيع وقطعوا الشجر واختارت كلّ قبيلة ناحية... ومشهد العبّاس بن عبد المطّلب، والحسن بن على، ومن معه من آل البيت. وذكر ابن النجّار: أنّ مع الحسن فى قبره ابن أخيه زين العابدين، ومحمّد الباقر بن زين العابدين وجعفر الصادق بن محمّد الباقر ومعهم أيضاً فاطمة بنت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بقرب المحراب، وقدّمنا أنّ قبرها- الكلام للنابلسى- فى بيتها بقرب الحجرة الشريفة وهو المشهور واللَّه أعلم. وهذان المشهدان متقاربان فى أوّل البقيع، وعلى كلّ واحد منهما بنيان وأبواب تقفل وتفتح للزيارة، ولمشهد العبّاس قبّة شامخة وله بابان: باب شمالى وباب غربى، ومشهد زوجات النبىّ صلى الله عليه و آله وفيه أربعة قبور ظاهرة، ولا يعلم تحقيق

۱- ۱ المصدر نفسه: ۳۴۵.

ص: ۶۱

من فيها منهنّ وعليه قبّـة لهـا باب يفتـح للزيارة وهو بالقرب من المشـهدين المـذكورين... فوقفنا عنـد تلك المشاهـد وقرأنا الفاتحـة، ودعونا اللَّه تعالى، ودخلنا إلى بعضـها وجلسـنا فيها متبرّكين بأنوار تلك الأرواح الطاهرة والأسـرار الظاهرة، ومشـينا من أوّل البقيع إلى آخره والتمسنا البركات ودعونا اللَّه تعالى بأنواع الدعوات وفضايل هذه المقبرة بقيع الفرقد كثيرة كثيرة» (۱).

أقول: بما أنّ للشيـخ النابلسى حظّاً وافراً فى الشعر، فقد نظم أشعاراً عند كلّ موقف وعند زيارة قبر من قبور الصالحين، أو شخص جليل سواء أكان حيّاً أم ميّتاً. فقد أنشد شعراً عندما زار البقيع وقبور الأئمّة المدفونين فيه:

قد نعمنا بقبّة العبّاسِ وبآل البيت الشريف الراسى

يالها فى البقيع من أفق نور ضاء بين القبور كالنبراسِ..!

والإمام المفضّل الحسن السبط وأخوه مطهِّر الأرجاس

وعليّ نجل الحسين وزين العابدين الذى به إيناسى

وابنه الباقر الذى بقر العلم بكشف عن أصله ومساس

وكذا الصادق ابنه جعفر الصدق ومن طاب فى أجل غراس

نورهم ساطع بها وهداهم جلّ للاقتداء والاقتباسِ

صلوات الإله منه عليهم كلّ حين مع السلام المواسى.. (۲)

حلقات التدريس

إنّ الشيـخ النابلسـى- بعـد أن طلب منه بعض طلّاب المدينة المنوّرة أن يدرّس هناك- بدأ بالتدريس وذلك بعد أن قرّر أن لا يدرّس فى المدينة إجلالًا لنبيّ اللَّه الأكرم صلى الله عليه و آله.

قال المؤلِّف: «... وكنت لمّا دخلت المدينـة على شـكل المـذهول الطايش العقل من حين دخولى إليها، لا أتكلّم فى شـىء من العلوم، ولا أبحث مع أحد فى منطوق

۱- ۱ المصدر نفسه: ۳۵۱.

۲- ۲ المصدر نفسه: ۳۵۵.

ص: ۶۲

ولا مفهوم، هيبةً من الحضرة المحمّدية وإجلالًا، وحقارة لنفسى وإذلالًا... حتّى وردت علينا جماعات ممّن فى المدينة المنوّرة يقرؤون علينا فى منزلنا، فكنّا نبقى فى الدرس إلى وقت الظهر...» (۱).

التبرّك بشَعر النبىّ صلى الله عليه و آله

قال المؤلِّف: «... وكان رجل من علماء الهنود اسمه غلام محمّد وكنيته أبو محمّد يقرأ علينا... الفتوحات المكّية للشيخ الأكبر محيى الدين بن العربى... وكان يخبرنى أنّ فى قطر الهند عند اناس متعدّدين فى بلاد متعدّدة شعرات من شعر النبىّ صلى الله عليه و آله... وأخبرنى عن رجل من الصالحين فى الهند أنّه يخرج ذلك فى كلّ سنة مرّة يوم التاسع من شهر ربيع الأوّل ويجتمع عنده ناسٌ كثيرون... وقد نقل بعض المؤرِّخين- والكلام لازال للنابلسى- بأنّ الملك العادل نور الدين الشهيد كان عنده فى خزائنه شعرات من شعر النبىّ صلى الله عليه و آله وإنّه لمّا مات أوصى أن توضع فى عينيه وأنّها الآن موضوعة فى عينيه معه فى قبره، وقالوا: ينبغى لمن يزوره أن يقصد التبرّك بذلك أيضاً، وهو الآن مدفون عندنا فى دمشق الشام، فى مدرسته التى بناها للعلماء والطلبة، وعليه قبّة رفيعة البناء...» (۲).

زيارة الحجرة الشريفة من الداخل

قال المؤلِّف: «ذهبنا إلى الحرم الشريف فصلّينا الظهر بعد زيارة النبىّ صلى الله عليه و آله ثمّ صلّينا العصر على عادتنا واجتمعنا بشيخ الحرم، فقال لنا ابتداءً: تريدون أن تدخلوا إلى داخل الحجرة الشريفة؟ فقلنا له: إن أراد اللَّه تعالى كان ذلك، وكيف لنا بذلك؟ فقال: إن أردتم فى هذه الليلة وقت المغرب، وإن أردتم فى وقت الصباح فقلنا له: وقت المغرب أقرب.

فأرسل إلى الطواشية يأمرهم بإدخالنا، فشددنا فوق القبا من الصوف الأحمر الذى كنّا نلبسه شالة من صوف على هيئة الخدّام، وفتح باب الحجرة الذى هو باب فاطمة رضى اللَّه عنها، ودخل قدّامنا طواشى من الخدّام، ووراءنا طواشى اخر،

۱- ۱ المصدر نفسه: ۳۶۷- ۳۶۸.

۲- ۲ المصدر نفسه: ۳۶۸.

ص: ۶۳

وأعطونـا شـعلة من الحديـد فى رأسـها شـعلة من نار، والطواشـى معه إناء من الفخار لوضع المشـعلة فيه حتّى جئنا فى داخل الحجرة... ورفعت يدىّ وقرأت الفاتحة ودعوت اللّه تعالى...» (۱).

تمور المدينة

بما أنّ للشـيخ النابلسـى وقتاً خاصّاً للبحث والتحقيق فقـد جمع مطالب جميلة عن تمور المدينة وأسـمائها المختلفة وقال: «... والتمر فى المدينـة أنواع كثيرة وهو من أحسن التمر، ومنه نوع يسـمّى الحلوى، كـلّ واحـدة مثـل الخيـارة الصـغيرة، يقطر العسل منها،... انتهى ما وجدناه، فجملته مائة وثلاثة عشر نوعاً...» (۲).

زيارة مسجد قبا

تشـرّف المؤلّف بزيارة مسـجد قبا فى يوم الاثنين السادس من شـهر شوّال، وقد نقل مطالب مفيدة من كتب الحديث والتاريخ حول قبا ومسجده، ونقل أيضاً من تلك المصادر مساحة المسجد وتجديد عمارته على مرّ العصور ثمّ يقول: «...

وهو الآن عتق بنيانه فهو محتاج إلى التجديد والعمارة، فنسأل اللّه تعالى أن ييسّر ذلك على يد أهل الخير...» (۳).

محراب الكشف

قـال المؤلّف: «... وفى ذلك المسـجد [مسـجد قبا] محراب ومنبر عظيم وفى آخر الحائط القبلى محراب آخر يسـمّى محراب الكشف؛ لأنّ النبىّ صـلى الله عليه و آله كشف له هناك عن مكّـة وعن الكعبـة، وهناك محراب آخر يقال: إنّ الآية الشـريفة نزلت هناك وهى قوله تعالى: لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ... (۴)

الآية، وهذه الآية مكتوبة على المحراب وبالقرب منه محراب آخر يقال له: مبرك الناقة... وهى آثار حسـنة فى مسـجد مبارك، فينبغى التبرّك بها على كلّ حال، فصلّينا فى كلّ محراب ركعتين» (۵).

۱- ۱ المصدر نفسه: ۳۶۸.

۲- ۲ المصدر نفسه: ۳۷۰- ۳۷۱.

۳- ۳ المصدر نفسه: ۳۸۹.

۴- ۴ سورة التوبة: ۱۰۸.

۵- ۵ الحقيقة والمجاز: ۳۹۰.

ص: ۶۴

مسجد علیّ بن أبی طالب، ومسجد السیّدة فاطمة، ومسجد الشمس

وممّا یجدر ذکره أنّ النابلسی ذکر کلاماً حول هذه المساجد الثلاثة بأنّها کانت قریبة لمسجد قبا وکانت عامرة أیضاً، وإلیک نصّه: «... ثمّ خرجنا من ذلک المسجد [یعنی مسجد قبا] ومشینا قلیلًا، فدخلنا إلی مسجد الإمام علیبن أبی طالب رضی الله عنه، وهو مسجد صغیر فصلّینا فیه رکعتین ودعونا اللَّه تعالی، ثمّ خرجنا فمشینا قلیلًا إلی مسجد السیّدة فاطمة رضی اللَّه عنها، فصلّینا فیه رکعتین ودعونا اللَّه تعالی، ثمّ خرجنا ومشینا قلیلًا إلی مسجد یقال له مسجد الشمس،... فدخلنا ذلک المسجد وصلّینا فیه رکعتین ودعونا اللَّه تعالی...» (۱).

زیارة حمزة رضی الله عنه بأحُد

قال المؤلّف: «... مزار سیّد الشهداء حمزة رضی الله عنه، وهو فی ذیل جبل احد، وحوله فی الخارج قبور شهداء أحُد، وکانت قصّة أحُد هناک مع المشرکین، فدخلنا إلی مزاره الممتلی بالهیبة والجلال، وعلیه قبّة عظیمة، وحوله مسجد شریف فیه محراب، وله منارة لطیفة عالیة، وقبره کبیر عظیم، وعلیه دایر من الخشب فی غربی المسجد، وله شبکة من الحدید... وقفنا هناک بقرب قبر السیّد حمزة رضی الله عنه وقرأنا الفاتحة ودعونا اللَّه تعالی...» (۲).

حفل المولد لحمزة سیّد الشهداء

قال المؤلّف: «... وخرجنا [من مزار حمزة] وقرأنا الفاتحة لبقیّة الشهداء، شهداء أحد، ودعونا اللَّه تعالی عند قبورهم، ورأینا تلک المصاطب (۳) المعمّرة هناک لأکابر أهل المدینة المنوّرة، وعلمائها وأعیانها، کلّ واحد منهم له مصطبة معلومة، یجتمعون هناک فی کلّ سنة فی شهر رجب، یمکث الناس فیه من أوّل الشهر إلی ثانی عشر یوم منه، ویعملون المولد للسیّد حمزة رضی الله عنه، وتخرج إلیه البیّاعون بأنواع المآکل وغیرها، ویصیر الموسم کأیّام منی فی مکّة، ویأتی إلی هذا المولد اناس من مکّة ومن الطائف ومن الیمن ومن العرب وغیرهم» (۴).

۱- ۱ المصدر نفسه: ۳۹۰- ۳۹۱.

۲- ۲ المصدر نفسه: ۳۹۵.

۳- ۳ المصاطب جمع مصطبة، هی مجتمع الناس، وهی أرض شبه الدکّان، یجلس علیها ویتّقی بها الهوام باللیل. مجمع البحرین ۲: ۶۰۷.

۴- ۴ الحقیقة والمجاز: ۴۰۱.

ص: ۶۵

قبر هارون بن عمران

قال المؤلّف: «... وقد رأينا فی رأس جبل أحُد قبّة، فأخبرونا أنّ فيها قبر هارون بن عمران عليهما السلام، وقد ذكر السمهودی فی تاريخ المدينة فی أوائل الفصل الأوّل من الباب الثالث عن ابن شبّة بسند لا بأس به... أقبل موسی وهارون عليهما السلام حاجّين فمرّا بالمدينة فخافا من يهود فخرجا مستخفين فنزلّا أحُداً فغشی هارون الموت، فقام موسی عليه السلام فحفر له لحداً، ثمّ قال: يا أخی إنّک تموت، فقام هارون عليه السلام فدخل فی لحده فقبض فحثی عليه موسی عليه السلام التراب؛ انتهی، فوقفنا قبالة ذلک وقرأنا الفاتحة ودعونا اللَّه تعالی ثمّ ذهبنا إلی مسجد القبلتين...» (۱).

زيارة مسجد القبلتين

قال المؤلّف: «... دخلنا إليه [مسجد القبلتين] متبرّكين به، ورأينا فی داخله محراباً إلی جهة القبلة وفی خارجه محراباً آخر إلی جهة بيت المقدس، وهو مسجد قديم رثّ البنيان، بعضه متهدّم... فدخلنا إلی داخله وصلّينا ركعتين إلی محرابه الذی نحو الكعبة ودعونا اللَّه تعالی، وقد بلغنا أنّ بعض الجهّال من الحجّاج يصلّی ركعتين إلی المحراب الذی نحو بيت المقدس بقصد التبرّک بالقبلة الاولی، بأمر الجهّال من المزورين، وهو فعل حرام لا يجوز، بل المعتمد لذلک يخشی عليه الكفر، ولا حول ولا قوّة إلّاباللَّه العلیّ العظيم» (۲).

زيارة المساجد الخمسة

قال المؤلّف: «ثمّ ذهبنا مع الاخوان إلی زيارة المساجد الخمسة بين هاتيک الجبال فابتدأنا بالصعود إلی مسجد الفتح الذی هو أعلی الجميع... ثمّ نزلنا إلی المسجد الذی فی أسفل الجبل، المعروف بمسجد أبی بكر... ثمّ دخلنا إلی مسجد سلمان الفارسی... ثمّ ذهبنا إلی مسجد النبیّ صلی الله عليه و آله الذی بات فيه ليلة الأحزاب، وهو مسجد واسع ليس له سقف، فدخلنا إليه ودعونا اللَّه تعالی فيه، وهو مكان يقال له شعب بنی حرام... وهو الذی الآن يسمّی مسجد النبیّ صلی الله عليه و آله؛ لأنّه صلّی فيه، وتحوّلهم

۱- ۱ المصدر نفسه: ۴۰۱.

۲- ۲ المصدر نفسه: ۴۰۱- ۴۰۲.

ص: ۶۶

إلی هذا الشعب کان بإذنه صلی الله علیه و سلم، ویقرب من ذلک مغارَهٔ النبیّ صلی الله علیه و آله وهو کهف سلع وهو کهف بنی حرام، مکان یقصد للتبرّک به» (۱).

أقول: لم یذکر المؤلّف المسجد الخامس بل ذکر أربعهٔ منها فقط وهی: مسجد الفتح، ومسجد أبی بکر، ومسجد سلمان الفارسی، ومسجد النبی، ویحتمل أنّ المراد من الخامس من تلک المساجد هو مسجد القبلتین.

ولا یخفی أنّ المساجد الموجودهٔ الآن فی هذه المنطقهٔ المختصّهٔ لحرب الأحزاب، هی کالتالی:

۱- مسجد الفتح ۲- مسجد سلمان الفارسی ۳- مسجد أبی‌بکر ۴- مسجد فاطمهٔ، وهذا المسجد صغیر جدّاً لیس له سقف، وقد سدّوا بابه بالجدار الاسمنتی سنهٔ ۱۴۲۰ الهجریهٔ، وقد ذکرت هذا المطلب حتّی یبقی کشاهد فی زاویهٔ من زوایا التاریخ؛ لأنّه یخاف هدمه وتخریبه. ۵- مسجد الإمام علی بن أبی طالب.

زیارهٔ مسجد النبیّ (مسجد غمامهٔ)

قال المؤلّف: «ثمّ بعد صلاهٔ العصر فی الحرم النبوی وزیارهٔ النبیّ صلی الله علیه و آله ذهبنا مع الإخوان إلی خارج الباب المصری وزرنا مسجد النبیّ صلی الله علیه و آله فی خارج المدینهٔ وعلیه قبّهٔ وفیه جلالهٔ ومهابهٔ وزرنا بالقرب منه مسجد أبی بکر ومسجد الإمام علیّ وتبرّکنا بتلک الآثار، وتملّینا بهاتیک الأنوار...» (۲).

أقول: یبدو أنّ المراد من المسجد فی قوله: مسجد النبی، هو مسجد غمامهٔ وأراد من المسجد معنی اسم المکان فقط. أی المحلّ الذی سجد فیه رسول اللَّه صلی الله علیه و آله، ولیس المراد منه المسجد النبویّ الشریف، ومسجد غمامهٔ معروف الآن وهو بقرب مسجد الإمام علی علیه السلام ومسجد أبی بکر وتقام فیه صلاهٔ الجماعهٔ.

ولا یخفی أنّ الباب المصری کان فی غرب المسجد النبوی الشریف ومن أراد أن یذهب إلی مسجد غمامهٔ و... کان یخرج من الباب المصری الذی کان ملاصقاً

۱- ۱ المصدر نفسه: ۴۰۲.

۲- ۲ المصدر نفسه: ۴۰۸.

ص: ۶۷

بسور المدينة المنوّرة، ولم يكن آنذاك باب فى الناحية الغربية من المدينة المنوّرة سوى الباب المصرى.

قبر محمّد بن عبداللَّه المحض

خرج الشيخ النابلسى ذات يوم إلى ضيافة صديق له كان بيته خارج الباب الشامى- كان الباب الشامى شمال المسجد النبوى الشريف وقبال جبل أحُد- وكان هناك قبر محمّد بن عبداللَّه المحض بن الحسن المثنّى ابن الإمام الحسن المجتبىسلام اللَّه عليه.

قال المؤلّف: «... وكان فى مقابلة المكان الذى نحن فيه، مدفن الإمام الزكى محمّد بن عبداللَّه المحض بن الحسن المثنّى ابن الإمام الحسن السبط ابن الإمام على المرتضى رضى اللَّه عنهم وعليه قبّة ذات هيبة وتلالى...» (۱).

مكتبة الحرم النبوى الشريف

زار الشيخ النابلسى خزانة الكتب الموجودة فى مكتبة الحرم النبوى الشريف فى يوم الثلاثاء، الخامس من شهر ذى القعدة الحرام، فوجد كتباً كثيرة فى علوم شتّى منها: الجامع الكبير فى الحديث للسيوطى فى خمسة مجلّدات كبار. ومنها:

تاريخ دمشق لابن عساكر فى خمسمائة وسبعين مجلّداً، ونقل هذه العبارة من الجزء الأخير من تاريخ دمشق:

«... تمّ الجزء السبعون والخمسمائة، وهو آخر الأجزاء جميعها، وهذا آخر ما تيسّر من هذا الكتاب، واللَّه الموفّق فيه للرشاد والصواب...» (۲).

ثمّ استعار النابلسى كلّ أجزاء هذا الكتاب من خزانة الكتب وقال:

«... فاستعرت هذه الأجزاء كلّها وجئت بها إلى منزلى وطالعت فيها ونقلت منها ما أردت، ثمّ أرجعتها إلى محلّها من خزانة الكتب المذكورة» (۳).

ليلة الكنيس

قال المؤلّف: «... وكانت هذه الليلة [السابعة عشرة من شهر ذى القعدة

۱- ۱ المصدر نفسه: ۴۱۵.

۲- ۲ المصدر نفسه: ۴۲۵.

۳- ۳ المصدر نفسه: ۴۲۶.

ص: ۶۸

الحرام] تسمّی عند أهل المدینة لیلة الکنیس؛ لأنّ فی صبیحتها یکنسون الحرم الشریف، ورأینا بعض الناس من عادتهم أنّ من علیه دیناً منهم، یجمع شیئاً من حبّ القمح بمقدار ما علیه من الدین، ویضعه فی خرقة بیضاء ویعقدها ویرمیها من داخل الحجرة الشریفة من الشبّاک المکرّم، ویقولون: إنّ ذلک سبب لقضاء ما علیهم من الدین ببرکة النبیّ صلی الله علیه و آله...

ثمّ من عادة أهل المدینة فی مثل هذا الیوم [الیوم السابع عشر] أنّهم بعد فراغهم من کنس الحرم الشریف، یخرجون إلی خارج المدینة، ویذهبون إلی حدائق النخیل، یتنزّهون وینبسطون فی المآکل والمشارب، ویحصل لهم الانشراح والصفاء... فیجتمعون فی مکان یقال له القُرین؛ بصیغة التصغیر، وهو قریب من المدینة علی نحو نصف ساعة، ویبقون هناک إلی العشیّ، ثمّ یعودون کذلک بالذکر والنشید، وتخرج النساء والرجال والأولاد لأجل الفرجة علیهم، ویصیر یوماً عظیماً. وقد خرجنا نحن وجماعتنا إلی بستان هناک قریب من بئر بضاعة، یسمّی بالفیروزیة وبقینا إلی آخر النهار...» (۱).

زیارة قبر الإمام جعفر بن محمّد الصادق

قال المؤلّف: «... ذهبنا مع بعض الأصحاب إلی جهة بئر بصة من جهة البقیع، وهو فی داخل بستان فیه نخیل، وهناک برکة ماء واسعة بجانب ذلک [تلک] البئر... ثمّ عدنا إلی الحرم الشریف فزرنا فی الطریق قبر سیّدنا جعفر الصادق رضی الله عنه، فی مکان عظیم بقبّة مستقلّة، وقرأنا الفاتحة ودعونا اللّه تعالی، وصلّینا المغرب والعشاء فی الحرم الشریف وزرنا النبیّ صلی الله علیه و سلم» (۲).

إلی المیقات

خرج الشیخ النابلسی من المدینة المنوّرة یوم الأربعاء، وهو الیوم السابع والعشرون من ذی القعدة الحرام، متوجّهاً إلی مکّة المکرّمة لأداء مناسک الحجّ.

وبما أنّ فی مزاجه ضعفاً وأنّ الوقت غیر قابل للتحمل، فلم یحرم من میقات ذی

۱- ۱ المصدر نفسه: ۴۳۱.

۲- ۲ المصدر نفسه: ۴۳۵.

ص: ۶۹

الحليفة؛ لأنّه أبعد المواقيت عن مكّة المشرّفة، فهو لأجل كلّ ذلك راجع الكتب المختصّة بفقه الحنفية، وبدأ أيضاً بكتابة رسالة حول الترخيص بالإحرام من رابغ.

وبعد أن أحرم مرافقوه من ميقات ذی الحليفة، سار إلی منزل الشهداء الذی يسمّی منزل التجّار وليس منزلًا للحجّاج، ثمّ سار إلی قرية الغزالة، ثمّ إلی قرية الجُدَيدة، ثمّ وادی الصفراء، وهی مشتملة علی نحو ستّ أو سبع قری؛ يمنة الذاهب إلی مكّة ويسرته... ثمّ إلی بدر.

قال المؤلّف: «... وبدر هذه كثيرة الماء يجری فيها الماء علی وجه الأرض، غير البركة التی يستقی منها الحجّاج... وهناك محلّ الشهداء الذين استشهدوا فی غزوة بدر مع النبیّ صلی الله عليه و سلم، وهناك جامع الغمامة، وهو جامع عظيم مبارك، فمكثنا فی ذلك المنزل مع الحجّاج...» (۱).

ثمّ سار النابلسی مع القافلة حتّی نزل فی منزل القاع، وليس فيه ماء وهو برّية واسعة سهلة الجوانب، لا انخفاض ولا ارتفاع، ثمّ وصل إلی قرية المستورة، ثم سار نحو ساعتين حتّی وصل منطقة رابغ.

قال المؤلّف: «ذهبنا فاغتسلنا فی تلك البركة الواسعة، وكان الماء فی نصفها وهی غير نابعة، والناس ينزلون فيها للاغتسال، ثمّ أحرمنا بالعمرة من ذلك الميقات (۲) بقصد التمتّع».

ثمّ قال: «... ثمّ مررنا بمكان فيه من الرمل الكثير... يسمّی ذلك المكان بالرمل الدفين... فقطعناه مع الحجّاج بجهد جهيد وتعب ما عليه من مزيد...» (۳).

۱- ۱ المصدر نفسه: ۴۳۸.

۲- ۲ لم نجد فی رحلته هذه إشارة إلی ميقات الجحفة، بل المذكور فيما كتبه هو: «ثمّ أحرمنا بالعمرة من ذلك الميقات...». وكتب أيضاً فی الصفحة ۴۳۷: «وعملنا رسالة فی الترخيص بالإحرام من رابغ...»، فعلی ذلك لا يعلم من هذين النصّين أنّ المؤلّف هل أحرم من الجحفة- نفس الميقات- أو أحرم من المحاذاة، ولا يخفی أنّه هل منزل رابغ كان محاذياً للميقات أم لا؟ فهذا أوّل الكلام!، ولابدّ للحصول علی كلّ ذلك إلی الدقة والبحث والمراجعة.

۳- ۳ المصدر نفسه: ۴۳۹.

ص: ۷۰

منازل الحجیج فی الطریق إلی مکّة سنة ۱۱۰۵ الهجریة

میقات ذی الحلیفة (المدینة المنوّرة)- منزل الشهداء- قریة الغزالة- قریة الجُدیدة- وادی الصفراء- بدر- منزل القاع- قریة المستورة- رابغ- الجحفة- منزل القُدید (بالتصغیر) قریة من قری مکّة المشرّفة- عقبة السکر- خُلیص (بالتصغیر) قریة من قری مکّة المشرّفة- مُدَرَّج عُسْفان وهو کثیر الأوعار من الرمل والأحجار، وادی بین جبلین، فیه العلوّ والهبوط، والارتفاع والسقوط، والاستقامة والإعوجاج، بحیث یضرب به المثل بین الحجّاج، یقولون للمعوج غیر المستقیم: من کلّ شیء یهان، کأنّه مُدَرَّج عُسْفان- عُسْفان، وهو قریة من قری مکّة المشرّفة- وادی فاطمة، ویقال: إنّما سمّی بذلک؛ لأنّه وقف للسیّدة فاطمة- سلام اللَّه علیها، وفیه ماء غزیر، ونخل کثیر، وبساتین مؤتلفة، وفواکه مختلفة- التنعیم (۱).

مکّة المکرّمة

قال المؤلف: «... ذهبنا جهة مکّة المشرّفة... حتّی دخلنا قبل جمیع الحجّاج... وکان ذلک الیوم؛ یوم الجمعة، وهو الیوم السادس من ذی الحجّة، فتفرّقت الحجّاج فی مکّة... وحین شاهدنا الکعبة تذکّرنا بشعر محمّد بن محمّد البدری الأندلسی الغرناطی:

مولای بالباب ذو فاقة وهذا محطّ خطایا الامم

فجُد لی بعفوک عن زلّتی فجود الکریم بقدر الکرم...» (۲).

لقد ذکر الشیخ النابلسی مطالب حول مکّة المکرّمة من وجه تسمیتها وأسمائها وجبالها وتجدید بناء الکعبة علی مرّ العصور، واستفاد من المصادر الخاصّة بهذا المورد؛ کالأحکام السلطانیة للماوردی، وأخبار مکّة للأزرقی، والإعلام بأعلام بیت اللَّه الحرام و...

۱- ۱ المصدر نفسه: ۴۳۹- ۴۴۰.

۲- ۲ المصدر نفسه: ۴۴۱.

ص: ۷۱

وللأسف الشديد أنّه لم يحكِ ما رأى بعينه فى الحرم المكّى الشريف وما جاوره من الأماكن والآثار؛ لنستفيد منه ونعرف مافيها أيضاً، بل المؤلّف اكتفى بنقل ما جاء فى المصادر الموجودة فى أيدينا، والحقّ أنّه ذكر أشياء كثيرة من المشاهد والآثار التى لا ـ يمكن التعرّف عليها بسهولة ولم يذكر فى ساير الكتب مثلها.

الهوامش:

حدود الطواف ومكانه دراسة فقهيّة استدلالية مقارنة

ص: ۷۳

حدود الطواف ومكانه دراسة فقهيّة استدلالية مقارنة

حيدر حبّ اللَّه

وقع بحث فقهى بين المسلمين فى المدى الذى لابدّ أن يحتفظ به الطائف بالكعبة الشريفة حين طوافه، أو بتعبير آخر فى مكان الطواف المحدّد فى الشريعة الإسلامية، ففى الوقت الذى كان البحث على المستوى السنّى ينصبّ على مسألة الطواف داخل المسجد فى قبال الطواف خارجه، كان البحث الفقهى فى الدائرة الشيعيّة يتركّز فى نطاقٍ أضيق ألا وهو اشتراط كون الطواف بين الركن- أى بين البيت- ومقام إبراهيم عليه السلام؛ ومن هنا يمكن القول بأنّ المسألة المبحوثة فى الفقه الشيعى فيما يتعلّق بمكان وحدود الطواف ليس لها أثرٌ- كشرطيّة- فى الوسط الفقهى السنّى على ما سوف يظهر إن شاء اللَّه تعالى، وأنّ المسألتين المبحوثتين فى الفقهين تقع إحداهما داخل الاخرى تقريباً.

التأريخ الفقهى للمسألة

ووفق ما تقدّم من الضرورى تقديم إطلالة تاريخية حول هذه المسألة على مستوى الفقه الإسلامى عامّةً؛ الشيعى والسنّى.

ص: ۷۴

أ– المسألة على ضوء الفقه الشيعى

ذهب مشهور الفقهاء من الإمامية (۱) إلى ضرورة كون الطواف الواجب بين البيت ومقام إبراهيم عليه السلام، بل ادّعى بعض الفقهاء الإجماع عليه كما فى غنية النزوع (۲)، وإن كانت عبارة الفيض الكاشانى تفيد عدم جزمه إن لم نقل جزمه بعدم انعقاد إجماع؛ لأنّه عبّر «بل كاد يكون إجماعاً» (۳)، بل فى جامع المدارك أنّ مضمون خبر ابن مسلم الآتى متّفقٌ عليه بين المسلمين علماً وعملًا ولعلّ كلامه شاملٌ للحكم هنا (۴).

وفى قبال هذا الرأى المشهور (۵) أو الأشهر على حدّ تعبير صاحب الحدائق (۶)هناك قولان آخران هما:

القول الأوّل: ما ذهب إليه ابن الجنيد كما نقل عنه العلّامة فى المختلف (۷)، وهو منسوبٌ أيضاً إلى الشيخ الصدوق (۸)، والظاهر أنّ السبب فى نسبة هذا القول إليه مع أنّه لم يذكره فى المقنع والهداية هو نقله خبر الحلبى الآتى الذى استفيد من قبل البعض دلالته على هذا التفصيل فى الفقه (۹)، وفقاً لما تعهّد به فى أوّل الكتاب من عدم إيراده إلّاما يراه حجّةً بينه وبين ربّه، وسيأتى أنّ الخبر غير دالّ، ومعه فيحتمل أنّ الصدوق قد فهم منه ما سوف نفهمه منه لاحقاً، وهذا كافٍ فى عدم الجزم بنسبة هذا القول إليه.

وعلى أيّة حال فهذا القول يظهر شىءٌ من الميل إليه أيضاً عند الحرّ العاملى والعلّامة الحلّى ٠ وغيرهم (۱۰)، وهو سقوط هذه الشرطية وجواز الطواف خارج المقام عند الضرورة، ولعلّ صاحب هذا القول قد اعتمد على صحيحة الحلبى الآتية كما تشير إليه بعض الكلمات، وإن كانت الصحيحة لا تفيد هذا القول كما سنلاحظ لاحقاً إن شاء اللَّه تعالى.

والذى يبدو فى إطار الفرق بين هذا الرأى وما ذهب إليه المشهور؛ هو أنّ وقوع الطواف بين هذين الحدّين يمثّل شرطاً لصحّة الطواف بصورةٍ دائمةٍ بحيث إنّه

۱- ۱ ذهب إلى هذا القول كلّ من الشيخ الطوسى فى المبسوط ۱: ۳۵۶– ۳۵۷، والنهاية: ۲۳۷، وابن حمزة فى الوسيلة: ۱۷۲، وابن زهرة الحلبى فى غنية النزوع: ۱۷۲، والحلّى فى السرائر ۱: ۵۷۲، وابن البرّاج فى المهذب ۱: ۲۳۳، وإن لم يذكر هذا الشرط فى «جواهر الفقه»، وابن مجد الحلبى فى إشارة السّبق: ۱۳۱، والشهيد الأوّل فى الدروس ۱: ۳۹۴، واللمعة: ۷۰، والشهيد الثانى فى المسالك ۲: ۳۳۴، والروضة ۲: ۲۴۹، والمحقّق الحلّى فى الشرائع ۱: ۱۹۹، والمختصر النافع: ۹۳، والعلّامة الحلّى فى المختلف ۴: ۲۰۰ وإن نسب إليه فيه غيره، والقواعد ۱: ۴۲۶، وإرشاد الأذهان ۱: ۳۲۴، وتحرير الأحكام ۱: ۵۸۱، وقطب الدين البيهقى فى إصباح الشيعة بمصباح الشريعة: ۱۵۵، والفيض الكاشانى فى مفاتيح الشرائع ۱: ۳۶۹ حيث يظهر منه الميل إليه فيه، والشيخ النجفى فى جواهر الكلام ۱۹: ۲۹۵– ۲۹۹، والمحقّق النراقى فى المستند ۱۲: ۷۵– ۷۶، والمحدّث البحرانى فى الحدائق ۱۶: ۱۱۰ لكنّه فى آخر بحثه جعل المسألة فى غاية الإشكال ومال إلى الاحتياط ص: ۱۱۴، والسيّد الطباطبائى فى الرياض ۶: ۵۳۶– ۵۳۷، والفاضل الهندى فى كشف اللثام ۵: ۴۲۰، والمحقّق الأردبيلى فى مجمع الفائدة والبرهان ۷: ۸۵– ۸۷، والمحقّق الكركى فى جامع المقاصد ۳: ۱۹۳، وابن سعيد الحلّى فى الجامع للشرائع: ۱۹۷، والمحقّق العراقى فى شرح تبصرة المتعلّمين ۴: ۱۱۵، والشيخ الأراكى فى مناسك الحجّ: ۱۲۴، والسيّد الخوانسارى فى ظاهر جامع المدارك ۲: ۴۹۴– ۴۹۵، والإمام الخمينى فى تحرير الوسيلة ۱: ۳۹۷ و السيّد السبزوارى فى مناسك الحجّ: ۹۶ وإن كان له رأى آخر سيأتى.

هذا واحتاط السيّد الگلپايگانى وجوباً فى مناسك الحجّ: ۱۱۱، وإن تغير رأيه أخيراً كما أنّ الشيخ الطوسى فى الخلاف ۲: ۳۲۴– ۳۲۵ ذكر عدم جواز الطواف بالسقاية وزمزم، ونسب للشافعى الجواز، واستدلّ الطوسى لرأيه بالقطع بالجواز دون ذلك وغيرُه غير مقطوع

به فالاحتياط يقتضى عدمه.

۲- ۲ غنية النزوع: ۱۷۲.

۳- ۳ مفاتيح الشرائع ۱: ۳۶۹.

۴- ۴ جامع المدارک ۲: ۴۹۵.

۵- ۵ نصّ على شهرة هذا القول النراقى فى المستند ۱۲: ۷۵، والسيّد العاملى فى المدارک ۸: ۱۳۱، والطباطبائى فى‌الرياض ۶: ۵۳۶، والسيّد الخوئى فى مناسک الحجّ: ۱۴۵ مسألة ۳۰۳، والشهيد فى الدروس ۱: ۳۹۴، والخراسانى فى كفايـة الأحكام: ۶۶، والعراقى فى شرح التبصرة ۴: ۱۱۳.

هـذا وقال الأكثر كما فى الحدائق ۱۶: ۱۱۱، والمعروف من مـذهب الأصـحاب كما فى ذخيرة المعاد: ۶۲۸، ولا خلاف معتـدّ به أجده كما فى الجواهر ۱۹: ۲۹۵، وممّا لا خلاف فيه بين الأصحاب كما فى مجمع الفائدة والبرهان ۷: ۸۵ وغيرهم.

۶- ۶ الحدائق الناضرة ۱۶: ۱۱۰.

۷- ۷ كتاب مجموعة فتاوى ابن الجنيد: ۱۳۶ نظّمه الإشتهاردى.

۸- ۸ نسبه إليه فى مفاتيح الشرائع ۱؛ ۳۶۹.

۹- ۹ الفقيه ۲: ۲۴۷ باب ۱۳۲ من الحجّ. ط دار التعارف ۱۹۹۰ م.

۱۰- ۱۰ يظهر منه الميل إليه فى منتهى المطلب ۲: ۴۹۱، وتذكرة الفقهاء ۸: ۹۳، وهو ظاهر عنوان الحرّ العاملى فى‌الوسائل ج ۱۳ كتاب الحـج- أبواب الطواف باب ۲۸، والشيخ الأنصارى فى رسالة مناسک الحجّ: ۲۰۵- ۲۰۷، وقـد وافقه فيه حسب الظاهر كلٌّ من الميرزا محمّد حسن الشيرازى والآخوند الخراسانى والسيّد كاظم اليزدى والشيخ عبد الكريم الحائرى والميرزا محمد حسن أحمدى يزدى، وقد شرط الشيخ الأنصارى اتصال الطائف بالبقيّة لو تجاوز مع الضرورة.

ص: ۷۵

حتّی لو عجز عنه الإنسان فإنّ الشرطیة تبقی علی حالها؛ لعدم شمول أدلّة الاضطرار ونحوه لها ما دامت لا تمثّل تکلیفاً شرعیاً بقدر ما تمثّل حکماً وضعیاً یوجب انتقال الوظیفة فی حال عدم توفّره للعجز إلی الاستنابة، وهذا بخلاف المنقول عن ابن الجنید فإنّ الشرطیة بنفسها مقیّدة بمورد القدرة دون العجز والاضطرار.

القول‌الثانی: عدم‌اعتبار هذاالشرط سواءً عند الاختیار و القدرة أوحال العجز والاضطرار، وإنّما العبرة بصدق الطواف بالکعبة المشرّفة عرفاً علی الطائف، فلو کان بعیداً جدّاً بحیث لم یصدق علیه أنّه یطوف بالبیت إلّابعنایةٍ وتکلّفٍ لم یصحّ.

وقد ذهب إلی هذا الرأی السیّد الخوئی (۱) والسیّد السبزواری فی مهذّب الأحکام (۲) وغیرهما (۳)، فیما اعتبر فی «کفایة الأحکام» أنّ العدول عن مقتضاه مشکلٌ فیما القول بالشرطیة أحوط (۴)، واستحسنه النراقی فی المستند لولا الإجماعات والشهرات (۵) و..، کما أنّ جملةً من الفقهاء لم یذکروا هذه الشرطیة فی أبحاثهم فی الحجّ کالسیّد المرتضی فی الناصریّات وجمل العلم والعمل والانتصار، وکذلک سلّار فی المراسم العلویة، وأبو الصلاح الحلبی فی الکافی، والصدوق فی کتابیه الفقهیّین المقنع والهدایة، والشهید الصدر فی مناسک الحجّ وغیرهم، وقد یفهم من بعضهم بقرینة السیاق أنّه لا یری هذا الشرط. کما أنّ السیّد الگلپایگانی احتاط وجوباً فی هذا الشرط فی مناسکه ممّا قد یوحی بعدم ثبوته عنده علمیّاً وقد أفتی آخر عمره بصحّة الطواف خارج الحدّ بشرط اتصال الطائفین (۶).

وبهذه الصورة یتّضح- زائداً عن أنّ المسألة ذات مدرکٍ واضح سنذکره لاحقاً یضعّف من حجّیة الإجماع هنا- أن لا حجّیة لدعوی الإجماع فی المقام بعد ملاحظة ما تقدّم، وعلیه فما ذکره فی الغنیة من الاستدلال بالإجماع (۷) ونحوه غیره غیر دقیقٍ، کما أنّ ما ذکره البعض من مناقشة لهذا الإجماع بأنّ المقدار المنعقد علیه هو صحّة الطواف بین الرکن والمقام لا بطلانه فی الزائد عن المقام (۸)... وما ذکره

۱- ۱ مناسک الحج: ۱۴۵ وجعل رعایة الاحتیاط مع التمکّن أولی، والمعتمد ۴: ۳۴۲.

۲- ۲ مهذّب الأحکام ۱۴: ۶۱- ۶۲.

۳- ۳ ففی الکفایة: ۶۶ إنّ العدول عنه مشکلٌ والقول به أحوط، ونحوه الذخیرة: ۶۲۸، وفی مدارک الأحکام ۸: ۱۳۱ أنّه غیر بعید والمشهور أولی، وذهب إلیه أیضاً السیّد الروحانی فی مناسکه: ۱۲۵.

۴- ۴ ن. م.

۵- ۵ مستند الشیعة ۱۲: ۷۶.

۶- ۶ مناسک الحج: ۱۱۱. وانظر آراء المراجع فی الحجّ: ۲۳۸.

۷- ۷ غنیة النزوع: ۱۷۲.

۸- ۸ رسالة مناسک الحجّ للشیخ الأنصاری- تعلیقة المیرزا محمد حسن أحمدی یزدی: ۲۲۰.

ص: ۷۶

هـذا البعض غير واضـح، فـإنّه على تقـدير تحقّق الإجماع هنا من الواضـح بملاحظـهٔ كلمات الفقهاء أنّ بطلان الطواف في الخارج عن المقـام كـان مصـرّحاً به عنـدهم على حـدّ تصـريحهم بصـحّهٔ الطواف الواقع بينهما، والتفكيك بين الأمرين إن تمّ فإنّما يتمّ في مقـدارٍ ضئيلٍ جـدّاً من العبارات الفقهيّـهٔ، الأمر الـذي لا يضـرّ بقوّهٔ الإجماع، لا سيّما وأنّ التفكيك ظهر بدلالهٍ سـلبيّهٔ سـكوتيّهٍ ولم يصـرّح به لديهم.

وعلى أيّـهٔ حـال فالإجماع من الناحيـهٔ الصـغرويهٔ غير محرزٍ، لا سيّما وأنّ أمثال السـيّد المرتضـى وسـلّار وأبي الصـلاح والصـدوق من المتقدّمين لم يذكروا مثل هذا الشرط في أحكام الطواف وواجباته.

كما ظهر أيضاً أنّ القول بلزوم كون الطواف داخل المسـجد الحرام هو مقتضـى الشـرطيّهٔ المتقدّمهٔ، وعدم تصـريح فقهاء الشيعهٔ بشرطٍ كهذا؛ لعلّه كان من ناحيهٔ التسالم عليه ووضوحه عندهم.

ب- المسألهٔ على ضوء الفقه السنّي

وأمّا على مستوى فقه المذاهب السنّيهٔ فقد:

۱- ذكر عبد الرحمن الجزيري في (الفقه على المذاهب الأربعهٔ). أنّ الحنابلهٔ والمالكيهٔ جعلت من سـنن الطواف القرب من البيت، فيما خصّصت الشافعيهٔ هذه السنّهٔ بالرجال (۱).

۲- كما شرح الدكتور وهبهٔ الزحيلي موقف المذاهب الأربعهٔ في المسألهٔ حيث ذكر:

أ- أنّ من شـروط الطواف عنـد الحنفيـهٔ هو الالـتزام بالمكـان المحـدّد له وهو «أن يقع حول البيت في المسـجد؛ لقوله تعالى: وليطوّفوا بالبيت العتيق، والطواف بالبيت هو الطواف حوله، فيجوز الطواف في المسـجد الحرام قريباً من البيت أو بعيـداً عنه بشـرط أن يكون في المسجد» (۲).

ب- أمّا عند المالكيهٔ فيشترط في الطواف «أن يكون بداخل المسجد» (۳).

۱- ۱ راجع الكتاب السابق ۱: ۸۵۹- ۸۶۰.

۲- ۲ الدكتور وهبهٔ الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدلّته، الطبعهٔ الثالثهٔ، دار الفكر، ۱۹۸۹ م، ۳: ۱۵۳.

۳- ۳ م، ن: ۱۵۶.

ص: ۷۷

ج- وتقول الشافعيّة: «إنّ الطواف داخل المسجد، للاتباع، فلا يصحّ حوله بالإجماع، ويصحّ داخل المسجد وإن وسّع» (۱).

د- وهذا هو موقف الحنابلة حين يشترطون أن يكون الطواف «داخل المسجد لا يخرج عنه» (۲).

هذا وقد أشار الزحيلى إلى أنّه يُستحب القرب من البيت للذكور (۳).

۳- وموقف الشافعية كلّه صرّح به الإمام الشافعى نفسه فى كتاب «الأم» بقوله: «والمسجد كلّه موضعٌ للطواف» (۴)، «وإن خرج من المسجد فطاف من ورائه لم يعتدّ بشيءٍ من طوافه خارجاً من المسجد، لأنّه فى غير موضع الطواف...» (۵).

۴- وقد صرّح الإمام الغزالى فى الوسيط بأنّ الرابع من واجبات الطواف هو «أن يطوف داخل المسجد، فلو طاف خارج المسجد لم يجز، ولو وسّع المسجد يجوز الطواف فى أقصى المسجد؛ لأنّ القرب مستحبٌّ لا واجب (۶).

۵- وفى حاشية ابن عابدين قال: «واعلم أنّ مكان الطواف داخل المسجد ولو وراء زمزم لا ـ خارجه لصيرورته طائفاً بالمسجد لا بالبيت...» (۷).

۶- أمّا ابن حزم الأندلسى فقد أشار فى «المحلّى» إلى شرطٍ أزيد لم يذكره فقهاء السنّة المعروفون إذ قال: «لا يجوز التباعد عن البيت عند الطواف إلّافى الزحام؛ لأنّ التباعد عنه عملٌ بخلاف فعل رسول اللّه صلى الله عليه و آله، وعبثٌ لا معنى له فلا يجوز» (۸).

ومن هنا يتّضح الفارق الذى أشرنا إليه فى مطلع البحث من اختلاف مركز الاهتمام بين الشيعة والسنّة وإن اتّفقوا جميعاً على أنّ الطواف بالبيت لابدّ أن يكون داخل المسجد لا خارجه.

وعلى أيّ حال فسوف نبحث هنا كلّاً من الشرطيّة المتقدّمة عند الشيعة، وشرطيّة كون الطواف داخل المسجد ضمن محورين من الحديث هما:

۱- ۱ م، ن: ۱۵۹.

۲- ۲ م، ن: ۱۶۰.

۳- ۳ م، ن: ۱۶۸.

۴- ۴ الإمام الشافعى، موسوعة الإمام الشافعى، كتاب الامّ، الطبعة الاولى، دار إحياء التراث العربى، ۲۰۰۰ م، ۳: ۲۵ و ۲۶.

۵- ۵ م، ن: ۲۷، وراجع أيضاً: ۲۹.

۶- ۶ الإمام الغزالى، الوسيط فى المذهب، الطبعة الاولى، ۱۹۹۷ م، دار السلام للطباعة، ۲: ۶۴۵.

۷- ۷ ابن عابدين، ردّ المحتار على الدرّ المختار المعروف بحاشية ابن عابدين، الطبعة الاولى، دار إحياء التراث العربى، ۳: ۴۵۱.

۸- ۸ ابن حزم الأندلسى، المحلّى، طبعة دار الجيل والآفاق الجديدة، بيروت، ۷: ۱۸۱.

ص: ۷۸

المحور الأوّل: شرطيّة الطواف بين البيت ومقام إبراهيم عليه السلام

أدلّة القول بالشرطية:

وقد ذكر الفقهاء (رض) جملة وجوهٍ لإثبات هذه الشرطية المطروحة فی الفقه الشیعی- کما تقدّم-، أبرزها- مع التغاضی عن الإجماع الذی تقدّم الحدیث عنه- أمورٌ هی:

الوجه الأوّل: ما ذکره فی الغُنیة (۱) من أنّ الطواف بین البیت والمقام هو طریقة الاحتیاط، ونحن نحتاج إلی الیقین ببراءة الذمّة، الأمر الذی لا یحصل إلّابإیقاع الطواف فی هذا الإطار المحدّد.

وهذا الوجه قد تعرّض- وفق الدراسات الأصولیّة الأخیرة- لانتقاداتٍ، فإنّ جریان أصالة الاشتغال إنّما یکون فی مورد الشکّ فی المکلّف به لا فی التکلیف الشامل لأصل الحکم ولقیده وشرطه، وبالتالی فالقضیّة تابعةٌ لمدی دلالة النصوص، وهل هی بحیث تفسح فی المجال لسریان الشکّ إلی مرحلة المکلّف به أم أنّ الشکّ علی ضوء ما تنتجه إنّما هو فی دائرة التکلیف والتی هی مجری البراءة؟ وسوف یظهر أنّه وبقطع النظر عن الروایات الواردة فی خصوص المقام فإنّ الأدلّة العامّة فی باب الطواف شاملة للطواف خارج المقام أیضاً، وبالتالی فهناک دلیل لفظی یبرّر ذلک فلا تصل النوبة إلی مرحلة الأصل العملی.

الوجه الثانی: روایة محمّد بن مسلم قال: «سألته عن حدّ الطواف بالبیت الذی من خرج عنه [منه] لم یکن طائفاً؟ قال: کان الناس علی عهد رسول اللّه صلی الله علیه و آله یطوفون بالبیت والمقام، وأنتم الیوم تطوفون ما بین المقام والبیت، فکان الحدّ موضع المقام الیوم فمن جازه فلیس بطائف، والحدّ قبل الیوم والیوم واحد قدر ما بین المقام وبین البیت من نواحی البیت کلّها، فمن طاف فتباعد من نواحیه أبعد من مقدار ذلک کان طائفاً بغیر البیت بمنزلة من طاف بالمسجد؛ لأنّه طاف فی غیر حدّ ولا طواف له» (۲).

۱- ۱ الغنیة: ۱۷۲.

۲- ۲ الوسائل ج ۱۳ کتاب الحج، أبواب الطواف باب ۲۸ ح ۱.

ص: ۷۹

وتقريب الاستدلال بالرواية أنّ ظاهرها كون الطواف ما بين البيت وحيث هو المقام اليوم المسمّى فيها بالحدّ واجباً لا مفرّ منه، كلّ ما فى الأمر أنّ المقام كان فى زمن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بقرب البيت حيث هو مقرّه الواقعى؛ لأنّ كلمة- مقام- مأخوذة لغةً من موضع قدم القائم- كما ذكره فى الجواهر- فكأنّ إبراهيم عليه السلام كان يقوم عليه لبناء البيت أو لغير ذلك، وفى الأيّام اللّاحقة لعهد الرسالة- وعلى حدّ بعض النصوص كما سيأتى أنّه حصل فى زمن عمر بن الخطّاب- تمّ جعله فى موضعه الحالى حيث كان عليه قبل الإسلام وفق بعض النصوص الاخرى كما سنلاحظ.

وكيف كان فالرواية دالّة على الشرطية معتضدةً بعمل المشهور.

وقد يناقش فى الرواية:

أوّلًا: أنّها ضعيفة من الناحية السنديّة وذلك من جهتين:

۱- جهالة ياسين الضرير الوارد فى سندها ومعه فلا يعتمد عليها (۱).

۲- الإضمار فإنّ محمّد بن مسلم لم يذكر اسم الشخص الذى روى عنه هذا الخبر، ومعه فلا يحرز أنّه الإمام عليه السلام فتسقط الرواية عن الاعتبار.

غير أنّه قد يرمّم هذا الخلل السندى بأمور هى:

أ- إنّ الشيخ الطوسى فى الفهرست له سندٌ صحيح إلى جميع كتب وروايات حريز بن عبداللَّه السجستانى (۲) والذى هو راوى هذا الحديث عن محمّد بن مسلم، ووفقاً لنظرية التعويض يمكن استبدال السند الذى يسبق حريزاً فى هذه الرواية والذى اشتمل على ياسين الضرير بسند الشيخ الطوسى إلى حريز فتتمّ الرواية، وقد أشار إلى هذا الأمر الميرزا الأحمدى فى تعليقته على رسالة المناسك (۳).

ب- إنّ الإضمار من أجلّاء ومشاهير الأصحاب يورث الوثوق برجوع الضمير إلى الإمام عليه السلام؛ لأنّ الغالبية الساحقة من روايات أمثال محمّدبن مسلم إنّما هى عنه عليه السلام، ووفقاً لذلك فإنّ احتمال أن تكون هذه الرواية المضمرة عن غير

---

۱ - ۱ يراجع معجم رجال الحديث للسيّد الخوئى ۲۰: ۱۱، وقد صرّح بضعف سند الحديث جملة من الفقهاء كالسيّد الخوئى فى المعتمد وغيره، راجع المصادر المتقدّمة.

۲ - ۲ والسند هو «أخبرنا بجميع كتبه ورواياته الشيخ أبو عبداللَّه محمد بن محمد بن النعمان المفيد رحمه اللَّه تعالىعن جعفر بن محمد بن قولويه عن أبى القاسم جعفر بن محمد العلوى الموسوى عن ابن نهيك عن ابن أبى عمير عن حمّاد عن حريز. وأخبرنا عدّة من أصحابنا عن محمد بن على بن الحسين عن أبيه عن سعد بن عبداللَّه وعبداللَّه بن جعفر ومحمد بن يحيى وأحمد بن إدريس وعلى بن موسى بن جعفر كلّهم عن أحمد بن محمد عن الحسين بن سعيد وعلى بن حديد وعبد الرحمن بن أبى نجران عن حمّاد بن عيسى الجهنى عن حريز. وأخبرنا الحسين بن عبيداللَّه عن أبى محمد الحسن بن حمزة العلوى عن على بن إبراهيم عن أبيه عن حمّاد عن حريز. راجع الفهرست ص ۱۱۸ باب الواحد رقم [۲۴۹]- ۱- ط مؤسسة نشر الفقاهة ۱۴۱۷ ه. ۳۴.

۳- ۳ مصدر سابق: ۲۱۰.

ص: ۸۰

الإمام عليه السلام مع ندرة لو لم نقل انعدام رواياته عن غيره عليه السلام هو احتمال منعدم عملياً طبقاً لحساب الاحتمالات الرياضى، وهذا ما يجعلنا نحصّل الوثوق بكون المضمرة منقولة عن الإمام عليه السلام.

نعم، على تقدير العثور على مقدارٍ مهمّ من روايات الراوى المباشر عن غير الإمام عليه السلام فإنّ هذا يرفع من احتمال كون المضمرة عن غيره أيضاً وبالتالى يفقدنا الوثوق المذكور، وهذا يعنى أنّ الأخذ بالرواية المضمرة لا- يرتبط- كما ذكر جمع من المحقّقين- بجلالة ومقام الراوى بقدر ما يرتبط بحجم رواياته إلى جانب المقدار الذى أحرزنا أنّه رواه عن غير الإمام عليه السلام، لا سيّما بملاحظة أنّ الرواة- كما كبار المحدّثين لاحقاً كان يهمّهم العثور على أكبر قدر ممكن من روايات أهل البيت عليهم السلام سواء كان ذلك عن طريق المباشرة أو عن طريق راوٍ آخر لا سيّما إذا كان هو الآخر جليلًا ومتقدّماً.

كما أنّ افتراض (۱) أنّ طبيعة الإضمار تتطلّب أن يكون صاحب الضمير معروفاً وبارزاً حتّى يصحّ الإضمار حسبما تقتضيه أدبيّات اللغة العربية، هو الآخر افتراضٌ يتجاهل الفارق التدوينى الذى حصل بين مرحلة الرواة الأوائل وبين مرحلة الكتب والمجاميع الحديثيّة، التى اتّسمت كما هو معروف بالتقطيع، وفرز تلك الأحاديث المتلاحقة ووضع كلّ واحدٍ منها فى بابه، وهذا يعنى أنّ من الممكن جدّاً- ونفس قوّة الاحتمال كافية هنا- أن يكون الإضمار قد حصل نتيجة ذكر المسؤول فى الرواية أو الروايات السابقة بحسب ترتيب الراوى المتقدّم، وبالتالى فلا نرى ما يوجب حصر تفسير ظاهرة الإضمار بمعروفيّة صاحب الضمير.

ج- إنّ الرواية منجبرة بعمل المشهور كما أشار إليه فى الرياض (۲) وجامع المدارك (۳) ومستند الشيعة (۴) والجواهر (۵)، فإنّه لا يتوفّر هنا غير هذه الرواية مدركاً للحكم لاسيّما بعد ورود النصّ الصحيح السند بما يدلّ على عكسها وهو خبر الحلبى الآتى، فإنّ قولهم بما تقتضيه رواية ياسين الضرير وتركهم لمضمون رواية

۱- ۱ وقد ذكر هذا القول الاستاذ الشيخ باقر الإيروانى فى «دروس تمهيدية فى القواعد الرجالية» ص ۲۱۲- ۲۱۳، مع أنّه ذكر عقيب ذلك وتحت عنوان منشأ الإضمار: أنّ طبيعة الكتب السابقة- كما ذكرناه فى المتن- تقتضى رجوع الضمير إلى مذكور فى أوّل الكلام وليس إلّاالإمام عليه السلام وناقشه باحتمال غيره، والجمع بين أطراف كلامه حفظه اللّه قد يواجه بعض المشاكل.

۲- ۲ مصدر سابق: ۵۳۶.

۳- ۳ مصدر سابق: ۴۹۵.

۴- ۴ مصدر سابق: ۷۵.

۵- ۵ مصدر سابق: ۲۹۶.

ص: ۸۱

الحلبى بالرغم من الصحّة السندية للرواية الثانية وضعف الاولى، يمثّل شاهداً مهمّاً لتبرير تجاهل الضعف السندى الفنّى بجهالة ياسين الضرير وبالتالى ارتقاء هذا الخبر إلى مستوى الصحّة، إذ كيف اعتمدوا عليه وتركوا بسببه خبراً صحيحاً مع عدم اعتقادهم بصحّته؟!..

غير أنّ هذا الترميم قابل للمناقشة بما حاصله:

أ- إنّ المقدار المتّضح لنا من موقف الفقهاء المتقدّمين والمقاربين لزمن الشيخ الطوسى، والذين يؤثّر موقفهم أحياناً فى الحكم على نصٍّ أو حديث، ليس مقداراً قابلًا للاعتماد عليه فى جبر خبرٍ ضعيفٍ؛ لأنّ هؤلاء الفقهاء هم الشيخ الطوسى وابن حمزة وابن زهرة وابن البرّاج وابن مجد، فى حين يقف فى قبالهم ممّن لم يذكر هذا الشرط أصلًا فى واجبات الطواف كلّ من السيّد المرتضى وسلّار وأبى الصلاح والصدوق، بل ما نقل عن ابن الجنيد أيضاً، بل جملة فقهاء من تلك الحقبة لم يظهر موقفهم من أمثال الشيخ المفيد (وهو لم يتعرّض لهذا الشرط فى بحث الطواف فى كتابه المقنعة) والصدوق الأوّل وابن أبى عقيل والجعفى والرضى وابن حمزة الجعفرى والمفيد الثانى ولد الطوسى وغيرهم، هذا فضلًا عن عشرات أو مئات العلماء من الطبقة الثانية فى تلك الفترة الزمنية.. ووفقاً لذلك كيف نقول: بأن شهرةً قد انعقدت وأثّرت فى تصحيح سند وصدور روايةٍ ضعيفةٍ؟!

وهنا من الضرورى الإشارة إلى نقطة كبرويّة تجرى فى مثل ما نحن فيه وهى ما هو المحقّق الموضوعى للمشهور؟ بمعنى أنّ الشهرة التى يجرى الاعتماد عليها اليوم وقبل اليوم أيضاً هى شهرةٌ لم تضع فى حساباتها سوى حوالى خمسين فقيهاً (۱) من فقهاء الإمامية على امتداد حوالى اثنى عشر أو أحد عشر قرناً من الزمن، وتجاهلت الكثير من المجتهدين الذين صنّفوا العديد من الكتب والرسائل والذين يُعثر فى مؤلّفاتهم على كثير من الآراء الاخرى، بل إنّ المادّة التى اعتمد عليها المدّعون للشهرة هى أيضاً مادّة محدودة نسبيّاً يلاحظها المتتبع من خلال ملاحقة

۱- ۱ وحتّى هذا الرقم منّا مبالغٌ فيه جدّاً لمن تتبع الكتب الفقهية.

ص: ٨٢

المصادر التى تـداولها هـذا الفقيه أو ذاك، فكتاب مفتاح الكرامـة للسيّد العاملى رحمه الله والـذى يصـنّف كجهد موسوعى هامّ على مستوى الفقه الشيعى لم يعتمـد أكثر من ثلاـثين كتاباً مع قطع النظر عن الكتب التى اعتمـد عليها فى مواضع قليلـة... فى تقـديرى فإنّ جهداً موسوعيّاً للفقه الشيعى يراعى مساحة أكبر فى الاستقصاء يمكنه أن يبدّل كثيراً من الرؤية الموجودة اليوم.

وعلى كلّ حال فهذا موضوع طويل ومستقلّ يكتفى له بهذه الإشارة.

ب- إنّه من غير الواضح ما هى مبرّرات التصحيح السندى عنـد المتقدّمين فى موردنا، فلعلّهم صحّحوا خبر ياسين الضرير لقرائن لو توفّرت لنا لم نقتنع بإفادتها صحّة الخبر.

كما أنّه ليس من الضرورى أن يكون اعتمادهم على هـذا الخبر قد نشأ من وثاقة الراوى عندهم حتّى يُلزم بذلك من يلتزم بحجّية خبر الثقة دون الموثوق.

ج- إنّه من المحتمل أنّهم أخـذوا بخبر ياسين الضرير بملاك الرشد فى خلافهم، فلاح لنا أنّهم تجاهلوا صحيحة الحلبى بلا مبرّر ممّا ضاعف عنـدنا من القيمـة الاحتماليـة لصحّة خبر ياسين. كما يحتمل أنّهم رجّحوا خبر ياسين لاشتماله على قصّة نقل المقام المؤيّدة برواياتٍ اخرى عن أهل البيت عليهم السلام...

ثانياً: أنّ الرواية معارضة بخبرٍ صحيح السند وهو ما رواه محمّد بن على الحلبى، قال: «سألت أبا عبداللّه عليه السلام عن الطواف خلف المقام قال: ما أحبّ ذلك وما أرى به بأساً فلا تفعله إلّاأن لا تجد منه بُدّاً» (١).

فإنّ هـذه الروايـة ظاهرة فى كراهـة تجاوز المقام فى الطواف على أبعـد تقدير وأنّ هذه الكراهة ساقطة فى مورد الاضطرار، ولعلّ ابن الجنيد قد اعتمد عليها فى الحكم بالتفصيل بين حالتى الضرورة وعدمها، لكن ظاهرها غير ذلك، بل هو سقوط الكراهة حال الاضطرار لا الشرطية؛ فإنّ صيغة النهى عن الفعل وإن وردت فى كلام الإمام عليه السلام بقوله «فلا تفعله» إلّاأنّ صدر الرواية المصرّح بنفى

١- ١ الوسائل ج ١٣- الحج- أبواب الطواف- باب ٢٨ ح ٢.

ص: ۸۳

البأس عن الطواف خارج المقام مع إبرازه عليه السلام عدم محبّته لهذا الفعل الظاهر من سياقه الترفّع وأفضلية الاجتناب يمثّل قرينة مساعدة وجيّدة على عدم إرادة الحرمة من النهى المذكور فيها.

وبناءً على ذلك كلّه فإذا قبلنا بما يصحّح سند الرواية الأولى من التعويض أو الانجبار... حصلت المعارضة بين الروايتين، وبالتالى نحتاج إلى ما يحلّ التعارض فى المقام، وأمّا إذا لم نقبل بتصحيح الرواية الاولى فتكون الرواية الثانية هى المحكّمة وبالتالى يلتزم بعدم الشرطية.

غير أنّ الرواية الثانية فى حدّ نفسها قد سجّلت عليها ملاحظات- لابدّ من تجاوزها للوصول إلى مرحلة استحكام التعارض- أبرزها:

الملاحظة الاولى: ما ذكره المقدّس الأردبيلى رحمه الله من توقّفه فى شأن أبان الوارد فى الرواية بعد أن استظهر أنّه أبان بن عثمان حيث ذهب إلى عدم الأخذ بمفرداته (۱).

غير أنّ هذه الملاحظة غير واضحة، فأبان بن عثمان من أصحاب الإجماع بنصّ الكشّى، وهو ثقة على أكثر من مبنى رجالى؛ فقد ورد فى كامل الزيارات وتفسير القمّى وهو من كثيرى الرواية، وروى عنه الأجلّاء أمثال ابن أبى عمير والحسن بن على بن فضّال والحسن بن محبوب وحمّاد وهشام بن سالم والوشّاء ويونس وغيرهم، ولم يرد ما يقدح فيه سوى اتّهامه بأنّه كان ناووسياً واقفاً على الصادق عليه السلام واخرى بأنّه فطحى، والاختلاف المذهبى لا يضرّ بالوثاقة والأخذ بالرواية كما قرّر، نعم هناك رواية واحدة عن إبراهيم بن أبى البلّاد تقدح فيه رواها الكشّى، لكنّها لا تقف إزاء دعوى كونه من أصحاب الإجماع، فتوقّف الأردبيلى فيه غير واضح (۲).

الملاحظة الثانية: ما ذكره الميرزا الأحمدى من أنّ الرواية مبتلاة بالتناقض الداخلى بين أجزائها، إذ كيف يمكن التوفيق بين نفى الحبّ الظاهر فى الحرمة ونفى

۱- ۱ مجمع الفائدة والبرهان ۷: ۸۶- ۸۷.

۲- ۲ يراجع فى حال أبان بن عثمان معجم رجال الحديث ۱: ۱۵۷- ۱۶۴.

ص: ۸۴

البأس الظاهر فى الجواز لاسيّما مع ضمّ النهى الآخر أيضاً (۱).

غير أنّ التقريب للاستدلال بالرواية يرفع هذه الملاحظة إذ نفى الحبّ غير ظاهر فى الحرمة، لا سيّما بعد إسناده إلى شخص الإمام عليه السلام ولم يقل: إنّه غير محبوب للّه مثلًا، ومن الممكن أن يعبّر عن الأمر المكروه بأنّه غير محبوب لا أقلّ أنّ صيغةً كهذه تعدّ صيغةً طيّعة لتأثير قرينة اخرى فيها، وأمّا التنافى بين نفى البأس والنهى فإنّ العرف يفهم منه المرجوحيّة لاسيّما وأنّ دلالة النهى على الحرمة من حيث المبدإ هى دلالة ظهورية، وأمّا صيغة نفى البأس فإنّها تُعدّ ذات دلالة نصّية وصريحة فتكون صالحة للقرينية على المراد من النهى.

وبعبارة اخرى لو القيت هذه الجملة على العرف لم يجد فيها أىّ تناقض فنحن نقول: «لا أحبّ هذا الفعل لكنّه لا بأس به» كما نقول «لا مشكلة فى هذا الفعل لكن لا تقم به» ونقصد مرجوحية هذا الفعل. ولعلّ هذا هو مراد المستشكل نفسه هنا من أنّها دالّة بمجموعها على الكراهة (۲).

الملاحظة الثالثة: ما ذكره الأحمدى أيضاً تفريعاً على ما ورد فى الملاحظة المتقدّمة من أنّ نفى الحبّ فى الرواية يفيد الحرمة، أمّا نفى البأس فهو لا يتعرّض للناحية التكليفيّة، وإنّما غرضه الآثار والمتطلّبات الناجمة عن الفعل على تقديره من قبيل الكفّارة ونحوها لا سيّما وأنّ الحجّ مليء بذلك، ومعه فتكون الرواية من أدلّة الشرطية لا معارضة لها (۳).

غير أنّ هذا الوجه لا يمثّل سوى مجرّد احتمال لا يصل إلى حدّ الظهور ولا توجد قرينة مؤيّدة له، ومجرّد أنّ تعبير نفى البأس ورد أحياناً نادرةً للدلالة على ذلك، لا يعنى أنّ المراد هنا هو ذلك أيضاً ما دمنا لا نشعر بتناقض داخلى فى الرواية يفرض علينا مثل هذا التفسير كما تقدّم.

ووفقاً لما تقدّم يتبيّن أنّ الرواية الثانية تامّة دلالةً وسنداً، وبالتالى وطبقاً لتصحيح الرواية الاولى فنحن بحاجة إلى ما يحلّ هذه المنافاة كما تقدّم بإبراز جمع

۱- ۱ مصدر سابق: ۲۱۹.

۲- ۲ م. ن.

۳- ۳ مصدر سابق: ۲۱۶.

ص: ۸۵

عرفی بینهما أو ترجیح واحدةٍ علی الاخری، أو غیر ذلک علی تقدیر استقرار التعارض.

وحاصل ما یذکر فی هذا المجال المحاولات التالیهٔ:

المحاولهٔ الاولی: أن یجمع بینهما بحمل الاولی علی صورهٔ عدم الضرورهٔ فیما تحمل الثانیهٔ علی صورهٔ الضرورهٔ کما أشار إلیه الشیخ الأحمدی (۱) کاحتمال، وذلک أنّ خبر محمد بن مسلم المثبت للشرطیّهٔ لم یرد فیه ذکر اسم الإمام علیه السلام فنحمله علی أنّه الباقر علیه السلام حیث عاصره ابن مسلم، وفی تلک الفترهٔ لم یکن هناک ازدحام شدید، وأمّا خبر الحلبی فهو عن الصادق علیه السلام وفی تلک الفترهٔ کان هناک تزاید یؤدّی إلی ازدحام المطاف بالطائفین، بل إنّه یمکن الأخذ بهذه المحاولهٔ للجمع حتّی علی تقدیر أن محمّد بن مسلم متقدّم زماناً عن الحلبی فیما الحلبی متأخّر حیث روی عن الإمام الکاظم علیه السلام، وهذا یعنی أنّ ابن مسلم قد روی الروایهٔ أو سمعها فی الفترات الاولی من حیاهٔ الإمام الصادق علیه السلام فیما سمع الحلبی الروایهٔ الثانیهٔ فی الفترات الأخیرهٔ، وحیث إنّ الفترهٔ الاولی لم یکن فیها ازدحامٌ بخلاف الثانیهٔ، فإنّ الروایتین لا تتعارضان.

وهذه المحاولهٔ من حیث الخلفیهٔ التی انطلقت منها جیّدهٔ، لکنّها غیر صحیحهٔ ظاهراً؛ لأنّها تفتقر إلی إبراز إثباتٍ تاریخیٍّ یفید أنّ فترهٔ خمسین سنهٔ تقریباً قد ظهر فیها تزاید سکّانی أو تحسّن اقتصادی ملحوظ أو نحو ذلک، أدّی إلی تغیّر أحوال الطواف وظهور ازدحام شدید لم یکن من قبل موجوداً إلّانادراً، وما لم نثبت ذلک یصبح هذا الجمع تبرّعیاً، خصوصاً وأنّ الفترهٔ لیست طویلهٔ وأنّ الامم الاخری کانت قد دخلت فی الإسلام قبل ذلک بعشرات السنین، وشخصیاً لیس لدیّ رؤیهٌ واضحهٌ فی حدود تتبعی حول هذا الموضوع تاریخیاً فلا أجزم بالعدم لکنّی أستبعده، وعدم الدلیل علیه بحکم الدلیل علی العدم عملیاً تقریباً.

وتجدر الإشارهٔ إلی أنّه وبناءً علی هذا القول یصبح الموقف الشرعی فی

۱- ۱ مصدر سابق: ۲۱۴.

ص: ۸۶

المسألة هو التفصيل بين صورة الازدحام الشديد وعدمه؛ فتكون النتيجة عين المنقول عن ابن الجنيد أو قريبة منه.

المحاولـة الثانيـة: ما يفهم من كلمات المحقّق آغا ضـياء الـدين العراقى من أنّ الخبر الثانى- خبر الحلبى- مطروحٌ، وذلك للأخذ بخبر ابن مسلم نظراً لاشتهاره حيث لم يقل أحد بمضمون صحيحة الحلبى (۱).

غير أنّ هـذه المحاولـة قابلـةٌ للنظر؛ إذ لو اريـد الشـهرة الروائيـة فهى غير واضـحة، فلكلٍّ من الروايتين طريقٌ واحدٌ، وقد ورد أمثال أبان والحلبى والصـفّار وأيّوب بن نوح ومحمـد بن أبى عُمير وصـفوان بن يحيى وغيرهم، وهؤلاء أهمّ فى عالم الرواية لو لُوحظ مجموعهم وقوبل بأمثال محمّد بن يحيى وابن عيسـى ومحمّد ابن عيسـى وحريز وابن مسـلم، ولا أقلّ من أنّ هذه المقايسة ترفع احتمال الأشهرية، كمـا ترفع احتمـال أن يكون خبر الحلبى شـاذّاً ونـادراً حيث أورده الصـدوق فيما أورد الآخر الكلينى ونقله عنه الطوسـى، وأمّا لو اريد الشـهرة الفتوائيـة المؤثّرة على الخبر ضـعفاً وتوهيناً كما هو الظاهر من كلام العراقى، فقـد تقـدّم معنى ما يفيد أنّ مثل هذه الشـهرة غير واضحة فى المقام حتّى لو سلّمت الكبرى.

وعليه فالتعارض بين الروايتين ثابتٌ وتامّ، فلا محيص ظاهراً عن سـقوطهما والرجوع إلى الأدلّـة العامّـة فى باب الطواف، والتى أخـذت عنوان الطواف بالبيت بمعناه العرفى الصادق على الطواف داخل مقام إبراهيم عليه السلام وخارجه.

والمتحصّل: أنّ هذه الشـرطية لم يظهر دليل حجّة عليها ومقتضـى الأصل عدمها، والاقتراب قدر الإمكان من البيت أفضل، لا سيّما وأنّ هناك جملة مستحبّات عند جدران الكعبة تقتضى الاقتراب شبه الدائم منها كمستحبّات الحجر الأسود والمستجار وغيرهما.

المحور الثانى: الطواف داخل المسجد الحرام

وهو ما يظهر التسالم عليه بين الشيعة إذا بنينا على انعقاد الإجماع على

۱- ۱ شرح تبصرة المتعلّمين ۴: ۱۱۵.

ص: ۸۷

الشرطيّة المتقدّمة، بل إنّ بعضاً من الذين ذهبوا إلى نفى الشرطيّة قد صرّحوا بلزوم إيقاع الطواف داخل المسجد كما تقدّم فلا نعيد، أمّا على مستوى الفقه السنّى فقد تقدّم أيضاً التصريح بذلك بشكلٍ واضحٍ وإن لم يذهب هذا الفقه إلى الشرطية المتقدّمة عند الفقه الشيعى.

وعلى أىّ حالٍ فإنّ أهمّ ما يمكن ذكره كأدلّةٍ لهذا الشرط امور هى:

الوجه الأوّل: ما تقدّم ذكره عن ابن عابدين من أنّ الطواف خارج المسجد غير جائز؛ لأنّه طوافٌ بالمسجد لا بالبيت، وهذا معناه عدم تحقّق الطواف الواجب الذى هو الطواف بالبيت (۱).

إلّا أنّه يمكن المناقشة بأنّ كون الطواف فى هذه الصورة كائناً بالمسجد لا يُلغى فى حدّ ذاته كونه حاصلًا بالنسبة إلى البيت أيضاً ما لم يمنع العرف عنه، ويمكن تصوّر عدم المنع العرفى فى حالة هدم المسجد كلّياً والطواف فى فلاةٍ، فإنّ العرف فى هذه الحالة وإن كان يقبل كون هذا الطواف طوافاً بأرض البيت إلّاأنّه لا يمنع من صدق عنوان الطواف بالبيت عليه، لا سيّما لو بنينا على البيت القديم لا التوسعة الحاصلة عبر الأيّام، وهذا معناه أنّ الملاک فى تحديد عنوان الطواف بالشىء هو العرف، وحكم العرف قابلٌ للتغيّر هنا بتغيّر الحالات الطارئة.

والذى يبدو أنّ ابن عابدين كان ينظر إلى الموقف العرفى فى الحالات الطبيعيّة، ولعلّه لو قدّمت له صورة اخرى غير الحالة المتعارفة لقبِل بها.

الوجه الثانى: ما ذكره الدكتور وهبة الزحيلى عن الشافعية من التمسّک بدليل الاتباع والتأسّى، وهو ما يمكن استنتاجه من كلمات ابن حزم الأندلسى من أنّ البعد- وهو يشمل ما نحن فيه- عملٌ بخلاف فعل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وبالتالى فهو غير جائز، وقد تقدّمت كلماتهما آنفاً.

إلّا أنّ هذا الوجه قابل للتأمّل وذلک:

أوّلًا: أنّ الاقتراب من البيت هو مقتضى الأداء الطبيعى للطواف بالبيت

۱- ۱ مصدر سابق: ۴۵۱.

ص: ۸۸

المأمور به شرعاً؛ ولهذا فإنّ قيام المعصوم عليه السلام به لا يدلّل على خصوصيةٍ دينيّةٍ؛ وذلك لأنّ الفعل الذی توجد له مبرّرات طبيعيّة واضحة، يكون احتمال نشوئه من دوافع دينية بعيداً، أو لا أقلّ لا يصل إلى حدّ الاطمئنان والتأكّد كما هو مبحوثٌ فی دراسات علم اصول الفقه، وهذا يعنی أنّ ما نحن فيه لا يوجد ما يؤكّده بالمعنى المطروح فی الاستدلال.

ثانياً: أنّ الاقتراب من البيت من أهمّ المستحبّات المعروفة بين المسلمين جميعاً، وهذا من شأنه أن يفسّر لنا السبب فی تركيز الرسول صلی الله عليه و آله على الاقتراب من البيت، وبالتالی فلا يكشف لنا- وبدرجةٍ واضحةٍ- عن حكم وجوبیّ فی كون الطواف داخل المسجد؛ لأنّه لا يتحدّث عن عنوانٍ كهذا، وبعبارة اخرى أنّ استحباب الاقتراب من البيت يكون استحباباً مؤكّداً ويمكنه أن يفسّر لنا السيرة التی كان يجری عليها الرسول صلی الله عليه و آله، وبالتالی فلا يكون تفسير هذه السيرة مختصّاً بالوجوب حتّى يكون التأسّی تأسّياً بأمرٍ واجبٍ كما هو المدّعى.

الوجه الثالث: ما أشار له ابن حزمٍ أيضاً من العبثية فی الابتعاد عن البيت كما تقدّم (۱).

وهذا الوجه يمكن الملاحظة عليه:

أوّلًا: أنّ الابتعاد عن البيت قد يكون لرغبةٍ فی إطالة الطواف بغية المزيد من الفعل المحبوب لديه تعالى، أو لرغبةٍ فی الإكثار من الذكر الممدوح حال الطواف، وهذا- وغيره- مبرّرٌ كافٍ لرفع العبثيّة المفترضة هنا.

ثانياً: أنّ كبرى حرمة الفعل العبثی غير ثابتةٍ، ولا دليل عليها. نعم، الاجتناب عن الأعمال العبثيّة هو الفعل العقلائی، إلّاأنّ الإلزام به- ودائماً أمرٌ لا دليل عليه شرعاً.

الوجه الرابع: رواية ياسين الضرير المتقدّمة، فهی صريحة فی تشبيه الإمام عليه السلام الطواف خارج مقام إبراهيم عليه السلام بالطواف خارج المسجد، وكأنّها بذلك

۱- ۱ مصدر سابق: ۱۸۱.

ص: ۸۹

تشير إلى مفروغيّة عدم جواز الطواف خارج المسجد: نظراً لجعلها إيّاه فى مقام المشبه به الأجلى عادةً فى وجه الشبه- الذى هو عدم الجواز هنا- من المشبّه، وهذا معناه عدم إجزاء الطواف خارج المسجد الحرام.

لكن يجاب عنه:

أوّلًا: أنّ الرواية لم تذكر الطواف خارج المسجد، وإنّما قالت «بمنزلة من طاف بالمسجد» أى أنّها تشير إلى صورة أن يطوف الإنسان بالمسجد الظاهرة فى وجود المسجد، وقد قلنا سابقاً: إنّ العرف يحكم فى هذه الصورة بعدم صدق الطواف بالبيت فيها، الأمر الذى يوجب البطلان.

ثانياً: أنّه من غير الواضح كون تشبيه الإمام عليه السلام الطواف خارج المقام بالطواف خارج البيت على نحو الإشارة إلى كبرى شرعية فى المشبّه به، فلعلّه إشارة إلى الارتكاز العرفى بعدم صحّة مثل هذا الطواف؛ نظراً لعدم صدق الطواف بالبيت عليه لا تعبّداً بحرمة هذا الطواف حتّى لو صدق عليه أنّه طواف بالبيت عرفاً، وهذا معناه أنّ الرواية لا تؤكّد مقولة أزيد من مرجعيّة العرف هنا حتّى تكون مفيدةً لمطلبٍ زائدٍ على الأدلّة العامّة فى الطواف.

هذا وقد يستدلّ لإثبات المسألة بما تقدّم فى المحور الأوّل وقد عرفت المناقشة فيه.

والمتحصّل أنّ الشريعة الإسلاميّة قد أمرت بالطواف بالبيت العتيق، وتحديد مصداق الطواف أمرٌ راجعٌ إلى العرف العام، وهو لا يحكم بشىءٍ اسمه جغرافيا الطواف، وإنّما يرى أنّ القضية متحرّكة، والمهم على كلّ الأحوال صدق الطواف عرفاً كما ركّز عليه السيّد أبو القاسم الخوئى رحمه اللّه تعالى (۱).

تنبيهات

وفى نهاية هذا البحث لا بأس بذكر تنبيهات مختصرة:

التنبيه الأوّل: بناءً على ثبوت الشرطيّة المتقدّمة، فظاهر ما رواه ياسين

۱- ۱ مصدر سابق.

ص: ٩٠

الضرير ثبوتها من تمام الجهات لقوله عليه السلام «من نواحى البيت كلّها» فلا يكفى وقوعه كذلك من طرف المقام دون بقيّة الأطراف.

وأمّا على الرأى الآخر النّافى لهذه الشرطية، فلا بأس أوقع الطواف كلّه من تمام النواحى بين البيت والمقام أو خارجه أو فى بعض النواحى فى تمام الأشواط أو فى بعضها أو فى أحدها، ما لم يخل بالصدق العرفى للطواف كما تقدّم.

التنبيه الثانى: أنّ المراد بالمقام هو نفس الصخرة أو العمود من الصخر الذى كان إبراهيم عليه السلام يصعد عليه عند بناء البيت، أو الذى صعد عليه عند أذانه للناس ودعوتهم للحج أو غير ذلك كما ذكرته بعض الروايات.

وتشير المصادر المتعدّدة أنّه توجد عليه آثار القدمين الشريفتين لإبراهيم الخليل عليه السلام، وأنّ ذلك كان من دلائل نبوّته أو كرامة له عليه السلام كما قد يقال.

ومن هنا فما يتعارف فى الإطلاق العرفى للمقام من أنّه البناء المرفوع على نفس الصخرة ليس هو الحدّ، وذلك ترجيحاً للمعنى اللغوى على العرفى الطارئ، وقد أشار إلى ذلك الشهيد الثانى (١) والمحقّق العراقى (٢) (رحمهما اللّه تعالى).

التنبيه الثالث: قد ذكر لقصّة تحديد موضع المقام روايات تأريخيّة عديدة نشير إليها وهى (٣):

الروايـة الاولى: إنّ أهل الجاهلية ألصقوا المقام بالبيت خوفاً عليه من السيول وبقى إلى زمن عمر بن الخطّاب كذلك حتّى ردّه عمر إلى الموضع الذى كان عليه أيّام الخليل عليه السلام.

وناقش صاحب الجواهر هذه الرواية ببعد ترك الرسول صلى الله عليه و آله لذلك خصوصاً مع علمه بموضعه وعدم علم عمر به.

وليس هذا هو بحث هذه الوريقات غير أنّه يوجد تعليقان على مناقشة صاحب الجواهر قدس سره بغضّ النظر عن إعطاء جواب نهائى حول صحّة هذه الرواية التاريخية أو عدم صحّتها وهذان التعليقان هما:

١- ١ الروضة ٢: ٢٤٩، والمسالك ٢: ٣٣٤.

٢- ٢ شرح تبصرة المتعلّمين ۴: ١١۵، وصرّح به الشيخ محمّد إبراهيم الجنّاتى أيضاً فى مجلّة ميقات الحجّ العدد: ۶: ١١۶ عام ١۴١٧ ه. ق.

٣- ٣ جواهر الكلام، مصدر سابق، ولم نتعرّض لتحقيق هذه الروايات لعدم دخولها فى مورد بحثنا.

ص: ۹۱

التعليق الأوّل: إنّ مسألة استبعاد علم عمر به غير واضحة إذ من الممكن جدّاً أنّه وبحكم كونه من صحابة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قد سمع منه هذا الأمر والموضع الحقيقى للمقام، وليس من الضرورى أن يكون علم عمر مجامعاً لعدم علم الرسول صلى الله عليه و آله.

التعليق الثانى: وأمّا مسألة استبعاد ترك رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لذلك فهى أيضاً غير واضحة، لأنّه لنفرض أنّه كان على عهد الخليل عليه السلام فى هذا الموقع وأنّ العرب قد أزالوه عن موقعه لكن لماذا يجب أن يعيده الرسول صلى الله عليه و آله؟! فمن المحتمل جدّاً أنّ طبيعة مكان المقام ليست بالقضية ذات الاهتمام ما دام فى المسجد الحرام ويمثّل رمزاً للحادثة، كما أنّه لعلّ إبراهيم عليه السلام- خصوصاً على بعض روايات المقام- قد جعله فى الموقع الفلانى لأمرٍ استلزمته الظروف لا لضرورة دينيّة بحيث لم تكن القضية ذات بُعد دينى مقدّس كما هو المفروض فيما وراء ذهن المستشكل، ومن هنا لم يرجعه رسول اللَّه بينما توهّم عمر بأنّه لابدّ من إرجاعه أو استحسن إعادته إلى موقعه الأوّلى، هذا من جهة.

ومن جهة اخرى من الممكن أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله كان أيضاً يريد إرجاعه إلى مكانه الطبيعى لكن الظروف الموضوعية لم تكن لتسمح له بذلك ربما لانزعاج العرب أو... وهذا الاحتمال وإن لم يكن بالقريب جدّاً لكن تعدّد الاحتمالات يفى برفع استبعاد صاحب الجواهر رحمه الله.

الرواية الثانية: ما هو محكىّ فى الجواهر عن ابن أبى مليكة من أنّ موضعه اليوم هو موضع زمن الجاهلية، غايته أنّ السيل أخذه أيّام عمر، ولمّا جاء إلى مكّة رأى أنّهم بعد السيل قد ألصقوه بالبيت فردّه إلى موضعه الحالى بعد أن سأل عنه منهم.

الرواية الثالثة: أنّ موضعه- كما نقله فى الجواهر أيضاً عن ابن سراقة- أيّام الجاهلية كان على تسعة أذرع من البيت، ووسّعه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إلى حدود عشرين ذراعاً حتّى لا ينقطع الطواف بالمصلّين خلفه، ثمّ أخذه السيل أيّام عمر ثمّ ردّه عمر

ص: ۹۲

إلى موضع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وهو موضعه الحالى.

غير أنّ هذه الروايهٔ تفتقر إلى تبرير الستّهٔ أذرع والنصف التى هى الفارق بين الموضع الحالى والموضع المذكور فى الروايهٔ، لأنّ المقام اليوم يبعد ستّهٔ وعشرين ذراعاً ونصف الذراع عن البيت، ولكنّه من الممكن أنّ تعبير «حدود عشرين ذراعاً»- لو كان وارداً فى كلام ابن سراقهٔ بهذا الشكل- أريد به ما لا ينافى فارق ستّهٔ أذرع ونصف، كما لعلّه المحتمل بشهادهٔ أنّه يبعد أن يكون قد تغيّر الموقع بين زمن ابن سراقهٔ وزماننا.

الروايهٔ الرابعهٔ: ما ورد فى بعض الروايات عن أهل البيت عليهم السلام من أنّ موضعه أيّام الجاهليهٔ كان كموضعه الآن، ثمّ ألصقه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بالبيت، ثمّ ردّه عمر إلى موضعه الذى كان أيّام الجاهليهٔ وبقى إلى يومنا هذا، ويؤيّد روح هذا المضمون خبر ياسين الضرير المتقدّم كما لاحظنا.

الهوامش:

من فلسفهٔ الحجّ

ص: ٩٦

من فلسفة الحجّ

لؤى الدليمى

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى الْحَجّ (١)(٢)

.

أتى ابن أبى العوجاء الإمام الصادق عليه السلام يوماً فجلس إليه فى جماعة من نظرائه، ثمّ قال له: يا أبا عبداللّه إنّ المجالس أمانات، ولابدّ لكلّ من كان به سعال أن يسعل، فتأذن لى فى الكلام؟

فقال الصادق عليه السلام: تكلّم بما شئت.

فقال ابن أبى العوجاء:

«إلى كم تدوسون هذا البيدر، وتلوذون بهذا الحجَر، وتعبدون هذا البيت المرفوع بالطوب والمدر، وتهرولون حوله هرولة البعير إذا نفر؟

من فكّر فى هذا أو قدّر؟ إنّ هذا فعلٌ أسّسه غير حكيم ولا ذى [ذو] نظر، فقل فإنّك رأس هذا الأمر وسنامه وأبوك أسّه ونظامه».

فكان ممّا قاله الإمام الصادق جواباً عن هذا الهجوم الساخر وغير المهذّب:

«... وهذا بيت استعبَد به اللّه خلقه؛ ليختبر طاعتهم فى إتيانه، فحثّهم على تعظيمه وزيارته، وقد جعله محلّ الأنبياء وقبلة المصلّين، وهو شعبة من رضوانه، وطريق يؤدّى إلى غفرانه...» (٣).

١- ١ البقرة: ١٩٧.

٢- ١ البقرة: ١٩٧.

٣- ٢ أمالى الصدوق ۴: ۴۹۳، التوحيد ۴: ۲۵۳.

ص: ٩٧

أمّا فلسفة الإمام على للحج و «الهرولة حول هذا البيت» فكانت أكثر إبلاغاً وأفصح إيجازاً وأجلى بياناً، وكان ممّا قاله- سلام اللّه عليه- فى هذا السياق:

«ألا ترون أنّ اللّه سبحانه اختبر الأوّلين من لدن آدم- صلوات اللّه عليه- إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضرّ ولا تنفع ولا تُبصر ولا تسمع، فجعلها بيته الحرام الذى جعله للناس قياماً، ثمّ وضعه بأوعر بقاع الأرض حجراً، وأقلّ نتائف الدنيا مدراً، وأضيق بطون الأودية قطراً، بين جبال خشنة ورمال دمثة، وعيون وشلة، وقرًى منقطعة، لا يزكو بها خفّ ولا حافر ولا ظلف، ثمّ أمر سبحانه آدم وولده أن يثنوا أعطافهم نحوه، فصار مثابةً لمنتجع أسفارهم، وغاية لملقى رحالهم، تهوى إليه ثمار الأفئدة من مفاوز قفار سحيقة ومهاوى فجاج عميقة، وجزائر بحار منقطعة، حتّى يهزوا مناكبهم ذللًا، يهلّلون للّه‌حوله، ويرملون على أقدامهم شعثاً غبراً له، قد نبذوا السرابيل وراء ظهورهم، وشوّهوا بإعفاء الشعور محاسن خلقهم، ابتلاءً عظيماً، وامتحاناً شديداً، واختباراً مبيناً، وتمحيصاً بليغاً، جعله اللّه سبباً لرحمته، ووُصلةً إلى جنته».

بعدها يبيّن أمير المؤمنين السرّ وراء ذلك الاختيار الإلهى لهذا المكان المقفر وعدم اختياره لمكان مورق مشجر، فيقول- عليه أفضل الصلاة وأتمّ السلام-:

«ولو أراد سبحانه أن يضع بيته الحرام ومشاعره العظام، بين جنّاتٍ وأنهار، وسهل وقرار، جمّ الأشجار، دانى الثمار، ملتفّ البنى، متّصل القرى، بين بُرّة سمراء، وروضة خضراء، وأرياف محدقة، وعراص مغدقة، وزروع ناضرة، وطرق عامرة؛ لكان قد صغُر قدر الجزاء على حسب ضعف البلاء».

أى أنّ التكامل الإنسانى يأتى عبر الاختبار الشديد والابتلاء الأشدّ، وفى مواطن التضحية والعطاء وليس فى محطّات الترف والرخاء، فيواصل سلام اللّه عليه تفسيره مستأنفاً:

«ولو كان الأساس المحمول عليها،

ص: ۹۸

والأحجار المرفوع بها، بين زمرّدة خضراء وياقوتة حمراء، ونور وضياء، لخفّف ذلك مصارعة الشكّ في الصدور، ولوضع مجاهدة إبليس عن القلوب، ولنفى معتلج الريب من الناس، ولكن اللّه يختبر عباده بأنواع الشدائد، ويتعبدهم بألوان المجاهد، ويبتليهم بضروب المكاره، إخراجاً للتكبّر من قلوبهم، وإسكاناً للتذلّل فى نفوسهم، وليجعل ذلك أبواباً فُتُحاً إلى فضله وأسباباً ذُللًا لعفوه..» (۱).

ومن كلام لأمير المؤمنين وسيّد البلغاء الإمام على بن أبى طالب عليه السلام فى فلسفة الحج قولٌ آخر، جاء فيه: (۲) «وفرض عليكم حجّ بيته الحرام، الذى جعله قبلةً للأنام، يردونه ورود الأنعام، ويألهون إليهولُوهالحَمام، و جعله سبحانه علامةً لتواضعهم لعظمته، و إذعانهم لعزّته، واختار من خلقه سُمّاعاً أجابوا إليه دعوته، وصدّقوا كلمته، ووقفوا مواقف أنبيائه، وتشبّهوا بملائكته المطيفين بعرشه، يحرزون الأرباح فى متجر عبادته، ويتبادرون عنده موعد مغفرته، جعله سبحانه وتعالى للإسلام علَماً، وللعائذين حرماً، فرضَ حقّه، وأوجب حجّه، وكتب عليكم وفادته، فقال سبحانه:

وللّه على الناس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلًا ومن كفر فإنّ اللّه غنى عن العالمين» (۳).

ويبدو فى هذا العرض الوصفى البليغ لأمير المؤمنين عليه السلام أنّ اللّه تعالى جعل من بيته العتيق ملاذاً (يألَه) إليه المؤمنون، أى يلوذون به ويعكفون عليه، ولكن بأىّ شكل؟ ولوه الحمام الوديع والطيور الآمنة إلى أعشاشها، كما جعله سبحانه وِرداً يردُه عباد اللّه الصادقون بتواضع وانكسار مُقرّين بعظمة ربّ البيت سمّاعين لدعوته مؤدّين فريضته يقفون مواقف الأنبياء فى تلبية النداء، مؤدّين واجبات الزيارة إتماماً لمظهر العبودية وترسيخاً لمبدإ الولاية والطاعة، وإقراراً بوحدانية الحقّ واستجابة لنداء الخالق العظيم ومن كلّ الأرض وعلى كلّ ضامرٍ يأتين من كلّ فجٍّ عميق» (۴).

الحج سياحة وعبادة

وفى كلمة أخرى له (سلام اللّه عليه)

۱- ۱ نهج البلاغة: الخطبة ۱۹۲.

۲- ۲ نهج البلاغة- الخطبة الأولى.

۳- ۳ آل عمران: ۹۷.

۴- ۴ الحج: ۲۷.

ص: ۹۹

وإضافة إلى ما أشار إليه فى هذه الخطبة من أنّ الحج متجر عبادة وحرز أرباح حلال، يقول أمير المؤمنين:

«... وحجّ البيت واعتماره فإنّهما ينفيان الفقر ويرْحَضان الذنب» (۱)ويرحَض هنا، بمعنى يمنع أو يغسل. أى أنّ هذه الفريضة العبادية وفضلًا عمّا فيها من طلب رزق حلال وتجارة كريمة، ترفع غائلة الفقر وذلّ الحاجة، فإنّه موسم عبادى لانعتاق الروح وغسل الذنوب والتقرّب إلى اللَّه سبحانه وتعالى فى أيّام معلومات يسمّيها (أيّام اللَّه) يلتقى فيه أبناء الشرق أبناء الغرب يتدارسون همومهم ويعيشون آمالهم وتطلّعاتهم، وفى أجواء عبادة وتسامى نحو الملكوت فى بيتٍ أذن اللَّه تعالى أن يُذكر فيها اسمه، وبعيداً عن كلّ ألوان الوصاية الدنيوية والرقابة الأرضية التى يفرضها الطواغيت والظالمون على أممهم وشعوبهم..

ففى كتاب له عليه السلام إلى عامله على مكّة (قثم بن العبّاس) جاء فيه:

«أمّا بعد... فأقم للناس الحجّ وذكّرهم بأيّام اللَّه، واجلس لهم العصرين، فأفتِ المستفتى، وعلّم الجاهل، وذكّر العالم، ولا يكن إلى الناس سفيرٌ إلّالسانك، ولا حاجبٌ إلّا وجهك، ولا تحجبن ذا حاجة عن لقائك بها..» (۲).

ويُسمّى أمير المؤمنين هنا أيّام الحجّ بأنّها أيّام اللَّه وهى الأيام التى يُعاقب فيها المذنبون بذنوبهم ويجازى الصالحون المؤمنون على إيمانهم وأعمالهم الصالحة. وكأن أيّام الحجّ هذه هى أيّام اختبار وتمحيص ينكشف فيها من يلبّى داعى اللَّه لحجّ بيته، ومن ينكفئ غير عابئ بنداء السماء، فضلًا عمّا فيها من عروج فى معانى القيم والفضائل وابتعاد عن اللغو والجدل والفسوق واللهو التى تكتنف أيّام الإنسان الأخرى حين يكون مشدوداً إلى أعماله اليومية بعيداً عن استحضار هذه القيم والمعانى التى يمكن استحضارها فى لقاء الإنسان لأخيه الإنسان فى أيّامٍ حرام وبيت حرام ومشعر حرام ولا يُذكر فيها غير اللَّه ولا تُستحضر غير رحمته ولطفه وعنايته، فالكلّ مشدود نحوه وبكلّ

۱- ۱ نهج البلاغة: الخطبة ۱۱۰.

۲- ۲ نهج البلاغة: الكتاب ۶۷ إلى قثم بن العبّاس.

ص: ۱۰۰

الألسن واللهجات واللغات والكلّ يلهجون بذكر اللّه ويتّجهون نحو قبلته وهم موحّدون متّحدون وتحت شعار خالد واحد يهتف به الجميع مردّدين:

«لبّيك اللّهم لبّيك.. لبّيك لا شريك لك لبّيك.. إنّ الحمد والنعمة لك والمُلك لا شريك لك».

البُعد المفهومى للحجّ:

وحين يأتى الإمام على عليه السلام ليشرح البُعد المفهومى للحجّ، وعند مقارنته مع الفرائض والعبادات الأخرى فى دين الإسلام، يعطيه معنى خاصاً، ويفرد له مذاقاً خاصّاً فيقول (سلام اللّه عليه):

«فرضَ اللّه الإيمان تطهيراً من الشرك، والصلاة تنزيهاً عن الكِبر، والزكاة تسبيباً للرزق، والصيام ابتلاءً لإخلاص الخَلق، والحجّ تقربةً للدين، والجهاد عزّاً للإسلام، والأمر بالمعروف مصلحة للعوام، والنهى عن المنكر ردعاً للسفهاء....» (۱).

فالحجّ اذن، تقربة للدين كما هو علم للإسلام، وهى التفاتة سياسية دقيقة، بالمعنى الدينى للسياسة طبعاً. أى أنّه وسيلة كسب واحتواء ومحطة تعبئة واستيعاب لمن يُراد لهم الاقتراب من الدين والدعوة له والترويج إليه.. فهو من ناحية الفرد نفسه يكون تقربةً لدينه، كماأنّ الزكاةتكون تسبيباً للرزق، والصلاة تنزيهاً عن الكبر. وهو من ناحية الجماعة المسلمة يكون تقريباً أيضاً وتعارفاً وتآلفاً وتحاباً يشدّ من عضد الجماعة، ويُشعرها بانتمائها لتحقيق أهدافٍ كبرى أومواجهة أزمة شاملة أو عدو مشترك. أى أنّ الحج وبهذا المؤتمر العالمى والحشد المليونى الهائل ومن كلّ أقطار العالم الإسلامى يمكن أن يكون مثابة انطلاق كبرى لإعزاز الدين والتقرّب إلى اللّه أكثر، وفى أقلّ التقادير الاعتزاز بهذا الانتماء الكريم لدين اللّه والتعرّف على أبناء الدين الواحد وفى هذه الأيّام الخالدة وانطلاقاً من قوله تعالى:

يا أيّها الذين آمنوا إنّا خلقناكم من ذكرٍ وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند اللّه أتقاكم (۲).

إشارة استيعاب لافتة:

وفى إشارة دقيقة أخرى، ومن بُعدٍ

۱- ۱ نهج البلاغة: باب المختار من حكم أمير المؤمنين- ۲۵۲.

۲- ۲ الحجرات: ۱۳.

ص: ۱۰۱

آخر، وفى كلمة وصفية، يعالج الإمام على عليه السلام الضعفاء من المسلمين ويُداريهم مداراة نفسية غاية فى الدقّة، فيلمس جُرحهم ويلتمس لضعفهم عذراً، ويترك الباب مفتوحاً، لمن يرى نفسه مؤهّلًا يوماً ما لخطوة متقدّمة فى الجهاد مثلًا فيقول- سلام اللَّه عليه-:

«والصلاة قربان كلّ تقى، والحجّ جهاد كلّ ضعيف» (۱).

أى أنّه- سلام اللَّه عليه- يريد أن يستوعب الفقير الذى لا مال لديه يتقرّب به إلى اللَّه، فيجعل الصلاة بديلًا لهذا القربان أو عوضاً لمن لا يستطيع أو لا يملك مالًا يبذله فى سبيل اللَّه أو ينفقه على عيال اللَّه. ويستوعب الضعيف كذلك الذى لا يقوى على الجهاد فجعل له الحجّ جهداً أو جهاداً يبذله مقابل الجهاد الذى ينوء بأدائه لضعفه أو استضعافه.

وفى هذا لمسة نفسية أو حالة تربوية لمن يُريد أن يحتفظ به فى دائرة العطاء الصغرى تمهيداً للدائرة الأوسع التى فيها بذل وتضحية بالأموال والأنفس، وهى الدرجة التى امتدحها القرآن الكريم وأثنى على رجالها فى قوله عزّ من قائل:

الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل اللَّه بأموالهم وأنفسهم أعظم درجةً عند اللَّه (۲).

الحجّ دين ودنيا

ومن تلمّس هذه الإشارات فى أقوال وحِكَم الإمام على عليه السلام ودراستها والتأمّل فيها نرى أنّ الحجّ سياحة وجهاد، تجارة وعبادة، ترويح وعمل، وبه ومن خلاله يمكن تعبئة الفرد المسلم روحياً وتحشيد المسلمين فى مؤتمر عبادى جهادى تجارى قلّما يتوفّر مثله لدين أو مذهب أو أتباع دين... ومن هذا الملتقى المليونى الذى يفرضه الدين الإسلامى على أتباعه تتحقّق أغراض عديدة يلتقى بعضها مع أحدث ما توصّل إليه علم النفس المعاصر فى ضرورة ترويح النفس عبر السفر والسياحة وما فيها من تجربة مضافة وعلم مضاف ومستأنف، وهذا ما تسعى لتطبيقه العديد من الدول المعاصرة حين تفرض على رعاياها أو تمنحهم منحة سنوية تحت هذا العنوان، أى أنّها تحرّضهم على السفر والعودة

۱- ۱ نهج البلاغة: باب المختار من حكم أمير المؤمنين- ۱۳۶.

۲- ۲ التوبة: ۲۰.

ص: ۱۰۲

بنفَسٍ جديد وطاقة جديدة لاستئناف العمل ومواصلة الكفاح مع الحياة.

وحين يأتى الحجّ تحت هذا العنوان فإنّه يجمع الدين والدنيا معاً، ويجمع العلم المضاف والتجربة المضافة مع الربح والتجارة، وحيث يعود الإنسان المسلم من موسم حجّه وهو مغفور الذنب نظيف الثوب مقبول التوب، معافىً نفسياً وروحياً، يستقبله أصدقاؤه وأحبّاؤه بعبارة معروفة:

«حجّاً مبروراً وسعياً مشكوراً وذنباً مغفوراً» ليبدأ رحلة كدح جديدة مع الحياة بروح سامية، غسلت أدرانها مشاهد ومواقف خالدة تذكّر فيها مواقف عظماء الإسلام وهم يطوفون حول البيت العتيق ليحملوا رسالة السماء إلى أهل الأرض وعبر تضحيات جسام ما كانوا لينالوا كلّ هذا الخلود لولاها...

استحضار القيم والمواقف

فكم هو رائع وبهى أن يستحضر «الحاجّ» مواقف النبى صلى الله عليه و آله وأصحابه وهم ينشرون الأخوّة والعدل والمساواة بين بنى البشر بتلك التضحيات الغالية! وكم هو عجيب وغريب مثلًا أن يُمنح النبى صلى الله عليه و آله ذكراً حسناً ومجداً خالداً حيث لا تمرّ دقيقة واحدة فى شرق الأرض وغربها إلّاويذكر فيها اسمه من مآذن المسلمين وعلى حساب المواقيت ومواعيد الصلاة وعلى امتداد ساعات الليل والنهار... وهكذا تستحضر مواقف أصحابه وجهودهم وجهادهم وهم ينتقلون بين مكّة والمدينة، وبين العراق والشام، وبين اشبيليا والصين وأفريقيا وأسبانيا، ومن أين؟ من غار حراء، من عرفات ومنى، ومن يثرب والمسجد النبوى ومن شعاب مكّة وغار جبل ثور ومعارك المسلمين فى أُحُد وبدر وحنين.

وحين يستحضر الحاج كلّ تلك المشاهد والمواقف، وحيث يضع قدمه فى موضع ربّما وطأه يوماً عدد من الصحابة الأجلاء، فإنّه يستحضر أوّل ما يستحضر مواقف علىّ وشجاعته وسيفه فى معارك المسلمين ودوره الحاسم فى انتصار الإسلام وانتشار دين اللَّه فى الأرضين...

ولعلّ أفصح ما يستحضره الحاج فى

ص: ۱۰۳

أيّام اللَّه تلك هى حجّة الوداع التى ودّع فيها النبى امّته مشيراً أنّه ربما لا يلقاهم بعد عامهم هذا وكيف أنّه صلى الله عليه و آله أوصى بما أوصاه فى على عليه السلام وأقواله الخالدة فيه:

«من كنت مولاه فهذا على مولاه...

اللّهم وال من والاه، وانصر من نصره، واخذل من خذله...» وكيف أنّ المسلمين بآلافهم المؤلّفة يصغون ويسمعون حتى راح بعضهم يهنئون علياً ويقولون له: بخّ لك ياعلى: لقد أصبحت مولى كلّ مؤمن ومؤمنة.. (۱)، وكيف أعقب هذا الحديث الكبير نزول الوحى بقوله عزّ من قائل:

.. اليوم أكملت لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا.. (۲)

، وكيف أنّ عمر ابن الخطّاب نفسه لقى علياً وقال له:

«هنيئاً أصبحت وأمسيت مولى كلّ مؤمن ومؤمنة» (۳).

وهكذا فى مشاهد وأعمال الحجّ وحيث الطواف حول الكعبة، ومقام إبراهيم والسعى بين الصفا والمروة واستحضار التاريخ ومواقف الأنبياء والأئمّة فى عرفات وفى غيرها.

الهدف الأكبر بين الشكل والمحتوى:

ولعلّنا نأتى إلى ذروة ما أراده اللَّه سبحانه وتعالى فى جعل الحجّ فريضةً على كلّ مسلم ومسلمة، فى قوله عزّوجلّ:

لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ* ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ* ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (۴)

.

أمّا ذروة ما وصل إليه الإمام على عليه السلام من توصيفه للحج وفلسفته فهو حين جعله «علماً للإسلام» و «تقربةً للدين» و «جهاداً للضعيف» ولم يُفته أن يوصى به عند وفاته قائلًا: «اللَّه اللَّه فى بيتِ ربّكم، لا تخلّوه ما بقيتم، فإنّه إنْ تُرك لم تناظروا» (۵).

۱- ۱ الحديث مشهور وترويه كلّ كتب المسلمين بجميع فرقهم وطوائفهم.

راجع: مسند أحمد بن حنبل ۴: ۳۸۱، ۳۶۸ دار صادر. وتفسير ابن كثير ۱: ۲۲. وسنن ابن ماجه المقدمة: ۱، باب ۱۱، وراجع البداية والنهاية لابن كثير أيضاً بعدّة طرق ۷: ۳۶۰- ۳۶۱.

۲- ۲ المائدة: ۳.

۳- ۳ مسند الإمام أحمد بن حنبل ۴: ۲۸۱، وقد أشهد علىٌّ جمعاً من الناس، فشهد له ثلاثون أنّهم سمعوا هذا الحديث من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله.

۴- ۴ الحج: ۲۸- ۳۰.

۵- ۵ نهج البلاغة: الكتاب ۴۷.

ص: ۱۰۴

ولم يكن الأئمّـة عليهم السـلام ليتركوا هـذه الفريضة فى إطارها الشـكلى فقط، بل حرّكوا مضـمونها ومقاصدها، إذ قال الإمام الصادق عليه السلام: «الحجّ حجّان:

حجّ للّهوحجّ للناس، فمن حجَّ للّه كان ثوابه على اللّه الجنّة، ومن حجَّ للناس كان ثوابه على الناس يوم القيامة» (۱).

أمّا الإمام الباقر عليه السـلام فقد كان أكثر جرأة على أولئك الذين يكتفون بالشـكل وينسون المحتوى، أو يهتمون بالإطار ويتجاهلون المضمون، فقال سلام اللّه عليه:

«لئن أعول أهـل بيتٍ من المسـلمين وأشـبع جوعتهم وأكسو عُريهم وأكفّ وجوههم عن النـاس، أحبّ إلىّ من أن أحـجّ حجّـة وحجّة وحجّة حتى انتهى إلى عشرة ومثلها ومثلها حتى انتهى إلى سبعين» (۲).

وعن عبد الرحمن بن كثير قال:

حججتُ مع أبى عبداللّه عليه السلام، فلمّا صرنا فى بعض الطريق، صعد على جبل فأشرف فنظر إلى الناس فقال: ما أكثر الضجيج وأقلّ الحجيج (۳)!

وهكذا فصلَ أئمّتنا عليهم السلام بين الحج كهدف والحج كوسيلة، وكيف جعل بعضهم إغاثة ملهوف أفضل من الطواف حول الكعبة مثلًا، وجعلوا حرمة المؤمن أفضل من حرمة الكعبة، بل ترك إمامنا سيّد الشهداء الحسين عليه السلام الحجّ حين عزم على الرحيل إلى كربلاء لطلب الإصـلاح فى أمّة جدّه بعد أنْ شـعر أنّ حدود اللّه قد ديست وأنّ حرمات المؤمنين قد انتُهكت فقال قولته الشـهيرة: «إنّى لم أخرج أشـراً ولاـ بطراً، ولاـ ظالمـاً ولاـ مفسـداً وإنّما خرجتُ لطلب الإصـلاح فى أمّـة جـدّى رسول اللّه، لآمر بالمعروف وأنهى عن المنكر» وخاصة بعد أن شخّص- سلام اللّه عليه- تجاوز الدعىّ حدود اللّه، فأضاف:

«اللّهم إنّـك تعلم أنّه لم يكن الـذى كـان منّا منافسـة فى سـلطان ولاـ التماسـاً لفضول الحطـام، ولكن لنردّ المعـالم من دينـك ونظهر الإصلاح فى بلادك ويأمن المظلومون من عبيدك ويُعمل بفرائضك وسننك وأحكامك».

وهذا ما يريده المصلحون على امتداد العهود والأزمان، بل ما أراده اللّه

۱- ۱ ثواب الأعمال ۱۶: ۷۴.

۲- ۲ ثواب الأعمال: ۱۷۰.

۳- ۳ بحار الأنوار للمجلسى ۳۰: ۱۸۱، ۲۷.

ص: ١٠٥

تعالى فى فرضه لبعض الشعائر والتعاليم والسنن، فكما أنّ القرآن مثلًا لم ينزل لكى يتمّ التبرّك به ويقرأ فى المقابر وحدها وعلى الموتى وفى المحافل فقط، وإنّما للعمل به وتطبيق سننه وأحكامه، فإنّ الحجّ وزيارة البيت الحرام هو الآخر لم يُفرض لاستحصال الثواب وحسب وإنّما للتعبير عن الطاعة لربّ البيت والرفق بعبيد هذا الربّ واللطف بهم والإحسان إليهم، وذلك عبر إشباع حاجاتهم وإغاثة ملهوفهم وحفظ حرمات المستضعفين منهم.

الهوامش:

الارثُ العظيم

ص: ۱۰۷

الإرثُ العظيم

محسن الأسدی

إنّ الصفا والمروة من شعائر اللَّه فمن حجّ البيت أو اعتمر فلا جُناح عليه أن يطوّف بهما ومَن تطوّع خيراً فإنّ اللَّه شاكر عليم سورة البقرة: ۱۵۸

انطلق نبیّ اللَّه إبراهيم عليه السلام بأهله، يقطع الفيافی ويجوب البوادی فی رحلة إيمانية ربّانية، لا ينتابه شكّ، ولا يخامره تردّد، بل طاعة خالصة لا شبهة فيها ولا ريب، وهو يصوّب ناظريه، إلی حيث تأمره السماء التی ما انفكت إرادتها ترافقه فی سفره هذا، وكلّما لاحت لإبراهيم الزوج الكريم والأب الحنون بين تلال تلك الوديان واحةٌ تحيطها شجيرات لا يتجاوز عددها أصابع اليد الواحدة، أو لمح بقعة يحفّها زرع ويظلّلها نخيل إلّاوتمنّی أن تكون هی المكان الذی اختارته السماء مأوًی لأهله ولذرّيته من بعدهم.

إنّها مجرّد أمانٍ لا غير، وخواطر تخطر علی قلب أبٍ مملوء رحمةً وحناناً، وهو أمر بشری وحالة طبيعية لم يتخلّ عنها الأنبياء مع منزلتهم السامية وشأنهم العظيم.. لا يتنافی هذا مع تسليمه وانقياده إلی خالقه وبارئه تعالی.

بيدَ أنّ وحی السماء راح يحدو بهذا الشيخ الكبير وبمن معه (زوجته هاجر

ص: ۱۰۸

وابنه الرضيع إسماعيل) فأمامه شوط بعيد، في وديانٍ جدباء، وصحارى ملتهبة، ونظرات النبيّ إبراهيم توزّعت هنا وهناك؛ يرمق السماء ببعضـها مبتهلًا داعياً فيما يحنو ببعضها الآخر على ولده الوحيد يومذاك، وزوجته المطيعة الأمينة التى اختارتها السماء لوظيفة عظيمة،... هى الاخرى ظلّت عيونها تارةً تحلّق بعيـداً فى هـذه الفيافى القاحلـة، وتارةً اخرى تـذرف دموعها خوفاً على رضـيعها الـذى وقع اختيار السماء عليه أيضاً لدور آخر لا يقلّ عظمةً عن دور امّه، فراحت تستنزل بعبرتها وبرقّتها المعروفة وعواطفها الجيّاشة رحمة اللَّه...

ظلّ الثلاثـة يواكبهم جبرايـل ما إن يجتازوا هضـبةً وعرة إلّاالينحـدروا فى اخرى، وما إن يعبروا وادياً جـديباً حتّى يهبطوا آخر أكثر منه جفافاً وجدباً... فى أرض نائية لا زرع فيها ولا ظِلال... حتّى هبطوا البطحاء... إنّها بطحاء مكّة، حيث محطّ رحالهم..

إذن ماذا يُريد هذا الشيخ بأهله فى هذه الصحارى وبين هذه الجبال؟ بل ماذا يُراد به وبأهله..؟

ونجد جواب ذلك فى قول إبراهيم الخليل حيث همَّ بالرجوع من حيث أتى، وقد ترك زوجته وابنه مع زاد يسـير وماء قليل عند بيتك المحرم.

نظرت إليه زوجته وقد رأته يهمّ بالعودة إلى الشام دونهما، فقالت:

يا إبراهيم أتـدعنا فى موضع ليس فيه أنيسٌ ولا ماءٌ ولا زرعٌ؟! إلى أين تذهب؟ ولمن تتركنا فى هذا الوادى الموحش المقفر؟ وراحت تستعطفه، فأبان لها وقد رقّ قلبه ودمعت عيناه.. اللَّه الذى أمرنى أن أضعكم فى هذا المكان هو يكفيكم.

فما كان لها بعد أن وعت قوله إلّاالانقياد لحكم اللَّه والتسـليم له، والركون لرحمته، وهى تردّد «لن يضـيّعنا اللَّه»، فيما راح دعاء إبراهيم فى وادى مكّة يتردّد صداه فى سفوحها ووديانها وجبالها...

ص: ۱۰۹

ربّنا إنّي أسكنت من ذرّيتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرّم ربّنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدةً من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلّهم يشكرون (۱)

.

ليقيموا الصلاة

كلّ هذه الرحلة الشاقّة والمريرة والمحفوفة بالمخاطر من أجل هذا الهدف العظيم بكلّ ما يحمله من معانٍ سامية ويضمّه من مفاهيم عظيمة... نعم ليقيموا الصلاة بكلّ ما تحمله من معانٍ جميلة وأهداف جليلة.. لا في أيّ مكان، إنّما في هذه البقعة المباركة.. حيث القلوب التي تهوي وحيث الرزق الوفير.. وحيث الطمأنينة والأمان... وحيث البيت الطاهر، وحيث الطائفون والراكعون والساجدون... إنّه المكان الذي تظلّله السماء برحمتها وتنزل عليه بركاتها.. لتقام الصلاة كما تريدها السماء شكلًا ومضموناً.. لتنطلق إلى كلّ بقاع الدنيا وفجاجها..

*** عاد إبراهيم، وبدأت رحلة اخرى لهاجر لا تقلّ مشقّةً ومخاطر عن الرحلة الاولى، إن لم تكن أكثر خطورة منها وأعظم، حيث لا وحي ولا نبيّ يرافقها، إنّما لتبدأ حياتها وقد ارتدت لباس التقوى وتحلّت بالصبر الجميل، وحيدةً بجوار بيت اللَّه الحرام ولتتمّ رسالتها ووظيفتها، فقد تكفّلت رعاية نبي آخر، تدفع عنه الأذى، وترعاه رضيعاً ويافعاً.. فمكثت ترعى وليدها وتأكل ممّا تركه لها إبراهيم عليه السلام حتى نفد ماؤها وقلّ زادها.. وجفّ ضرعها.. فعلا صراخ طفلها.

قامت تبحث عن منقذٍ في بطن وادٍ مخيف، تصوّب نظراتها إلى هذه الجبال الشاهقة وإلى تلك التلال البعيدة.. فهنا جبل أبي قبيس حيث الصخور الملساء، يقابله جبل قعيقعان حيث الحجارة الرخوة.. وهي في واد لا حياة فيه إلّا لشجيرات عجفاء متناثرة هنا وهناك.. إنّها الصحراء.. ذات الشمس المحرقة واللهب اللافح.. تعيش حاضراً حزيناً وغداً غامضاً بهيماً.. لتخلد في ذاكرة

۱- ۱ سورة إبراهيم: ۳۷.

ص: ۱۱۰

التاريخ.. وتعيشها النفوس ذكرًى عظيمةً عبر شعيرة مقدّسة..

إذن هنا ابتلاء آخر لها فى بطحاء مكّة.. فقد بدأ العطش يأخذ أثره ويحزّ فى كبدها وكبد رضيعها.. الذى راح يلوك بلسانه باحثاً عن قطرة ماءٍ فى فضاء فمه المتيبِّس.. فعلاـ بكاؤه وطال نحيبه.. فما كان من امّه التى اضطربت لمنظر ابنها.. إلّا أن تبحث له عن شربة ماءٍ تنقذ بها حياته.. اندفعت هنا وهناك تعلو صخرة وتهبط اخرى، وإذا بها بين جبلين وواد يربط بينهما، فارتفعت فوق صخرات الصفا لتنظر بعيداً فترى سراباً تخيلته لجّةً فأسرعت إليها، فإذا هى بجبل لم تجد عنده شيئاً إلّا الأحجار.. فأدارت بوجهها من حيث جاءت متطلّعةً إلى الوادى الآخر الذى اجتازته.. فبعُد عنها مكان ابنها ولم تعد تراه، وإذا بها تجد شيئاً آخر عند بداية انطلاقتها الاولى إنّه ماء فعادت مسرعةً إليه.. لتغترف منه غرفةً تسعف بها غليل وليدها، وقد راح كلّ منهما يستغيث.. ولمّا لم تجد عنده شيئاً علت ملامحها خيبة وانكسار، نظرت إلى خلفها فوجدت هناك سراباً حسبته ماءً.. وهكذا حتّى أكملت بعملها هذا سبعة أشواط ذهاباً وإياباً؛ لتنتهى فى شوطها السابع عند المروة..

تقول الرواية:... لما نفد الماء.. صعدت الصفا تستغيث بمن يأتيها بالماء، ثمّ سعت منه إلى المروة، ثمّ عادت إلى الصفا تستغيث سبع مرّات حتّى أغاثها جبريل بنبع الماء بجوار إسماعيل عليه السلام.. (۱).

نظرت هناك إلى ابنها الذى علا صراخه وراح يضرب الأرض باحثاً عن قطرة ماء.. عادت إليه تعبة خائرة القوى.. قضت سبعة أشواط بين سرابين دون أن تحصل على قطرة ماء له.. هنا كانت المفاجأة، فقد وجدت إسماعيل يلهو ويلعب بماءٍ نبعَ من تحت قدميه وهى لاتصدّق ما تراه.. إنّها الرحمة الإلهية نزلت بعد أن امتحنها اللّه تعالى، فما زادها هذا الامتحان إلّاصبراً وتحمّلًا وإيماناً.. وهى نفسها حكمة السعى والطواف بين هذين الجبلين لجوء المؤمن إلى ربّه والسعى نحوه

۱- ۱ الشارح الجامع للُاصول ۲: ۱۳۴.

ص: ۱۱۱

والهرولهٔ بین یدیه المبارکتین متوکّلًا علیه تائباً لائذاً به متوسلًا سائلًا ما ینجیه من خزی الدنیا وعذاب الآخرهٔ..

هاهی امنیهٔ إبراهیم تتحقّق، وها هو الماء الذی ستهوی إلیه الأفئدهٔ.. وها هو المکان الذی سیکون منبَع خیر وعطاء ورحمهٔ للعالمین.

فحقّقت سیدتنا هذه شعیرهٔ کانت ولا زالت من شعائر اللَّه تعالی، وأصبح سعیها بین هذین الجبلین منسکاً عظیماً من مناسک فریضهٔ الحجّ التی أوجبها اللَّه تعالی علی عباده المؤمنین، واحتلّت بذلک مکاناً مرموقاً فی التشریع الإسلامی، وغدا ذا دلالات کبیرهٔ ومعانٍ جمهٔ، فراح الحجیج بمجموعهم یحذون حذوها، یسعون سعیها، یتذکّرون معاناهٔ هذه المرأهٔ التی دخلت التاریخ الإنسانی والدینی، وهی تعلو تلک الصخور الجرداء الملساء وتشقّ صعاب ذلک الوادی الأجرد الخالی من کلّ مقوّمات الحیاهٔ، فی لفحهٔ شمسٍ شدیدهٔ ورمالٍ ملتهبهٔ وجوًی یلمّ بقلبها علی ولیدها الذی ترکته غیر بعید، یعتصر قلبه عطش مریر، وهو فی رمقه الأخیر..

لم تکن تعلم أنّ جهدها هذا ومعاناتها وتعبها وقلقها وخوفها سیکون یوماً منسکاً یُتعبّد به فی عبادهٔ یهفو لها جمیع المسلمین من کلّ فجٍّ عمیق وواجباً ورکناً ینهدم به الحجّ إن لم یؤتَ به..

فلیس هناک ریب فی أنّ السعی الذی سعته هاجر بین جبلی الصفا والمروهٔ بأشواطه السبعهٔ منسک من مناسک فریضهٔ الحجّ عند جمیع المسلمین وواجب من واجباتها ورکن من أرکانها التی هی: (النیّهٔ، الإحرام، الوقوف بعرفهٔ، الوقوف بالمشعر، الطواف، السعی) یبطل الحجّ بترک واحد منها، وهو رکن أیضاً فی العمرهٔ سواء أکانت عمرهٔ التمتّع بالحجّ، أو فی العمرهٔ المفردهٔ، ویشکّل واحداً من أرکانهما الأربعهٔ (النیّهٔ، الإحرام، الطواف، السعی)، یبطل الحجّ وتبطل العمرتان المذکورتان بالترک العمدی لأیّ من هذه الأرکان بما فیها السعی الذی نحن بصدده.

ص: ۱۱۲

وهناك تفصيل خاصّ فى الوقوفين يذكره الفقهاء ليس هذا محلّه...

حقّاً؛ إنّه إرث مبارك أورثته لنا هذه المرأة الصالحة المؤمنة باللّه تعالى الوفية لزوجها نبى اللّه إبراهيم، المتفانية فى رعاية وليدها..

حقّاً؛ إنّه دورٌ عظيم وإرث مبارك صاغته يد الغيب، وحظيت هاجر؛ النموذج النسائى الرائع والمرأة المؤمنة والزوجة الصالحة والامّ المتفانية، التى عرفت بكمال انقطاعها إلى اللّه تعالى، بأن تكون بطلة هذا الدور، وصاحبة هذا الإرث.

ورحم اللّه حبر الامّة ابن عبّاس، وقد رأى قوماً يطوفون بين الصفا والمروة فقال:

هذا ما أورثتكم أُمُّكم امّ إسماعيل.

مع رواية ابن عبّاس

... ثمّ جاء بها (هاجر) إبراهيمُ وبابنها إسماعيل وهى ترضعه، حتّى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد، وليس بمكّة يومئذٍ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جِراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثمّ قفى إبراهيم منطلقاً فتبعته امّ إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم! أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولا شىء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: اللّه أمرك بهذا؟ قال: نعم.

قالت: إذاً لا يُضيّعنا.

ثمّ رجعت، فانطلق إبراهيم حتّى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت بهذه الدعوات، ورفع يديه فقال: ربّ إنّى أسكنتُ من ذرّيتى بوادٍ غير ذى زرع حتّى بلغ يشكرون وجعلت امّ إسماعيل تُرضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتّى إذا نفد ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوّى- أو قال: يَتَلَبَّط- فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها (إليها)، فقامت عليه، ثمّ استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحداً،

ص: ۱۱۳

فلم ترَ أحداً، فهبطت من الصفا، حتّى إذا بلغت الوادى، رفعت طرف دِرعها، ثمّ سعت سعى الإنسان المجهود، ثمّ جاوزت الوادى، ثمّ أتت المروة فقامت عليه، فنظرت هل ترى أحداً فلم ترَ أحداً، ففعلت ذلك سبع مرّات.

قال ابن عبّاس: قال النبىّ صلى الله عليه و آله: «فذلك سعى الناس بينهما».

فلمّا أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صهٍ! تريد نفسها، ثمّ تسمّعت فسمعت أيضاً فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث (من الإغاثة وهى الإعانة)! فإذا هى بالمَلك عند موضع زمزم فبحث بعقبه- أو قال بجناحه- حتّى ظهر الماء، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا (وهو حكاية فعلها وهو من إطلاق القول على الفعل) وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعدما تغرف.

قال ابن عبّاس: قال النبىّ صلى الله عليه و آله: «يرحم اللَّه امّ إسماعيل! لو تركت (زمزم)- أو قال: لو لم تغرف من الماء- لكانت زمزم عيناً معيناً».

قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافى الضيعة، فإنّ هاهنا بيت اللَّه يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإنّ اللَّه لا يضيّع أهله...

القراءة

هناك قراءات متعدّدة لهذه الآية:

فقد روى عطاء عن ابن عبّاس أنّه قرأ فلاـ جُناح عليه ألّا يطوف بهما وهى قراءة ابن مسعود، ويُروى أنّها فى مصحف أُبَىّ بن كعب كذلك ويروى عن أنس مثل هذا، وأنّ محمّد بن سيرين مولى أنس بن مالك كانت هكذا قراءته.

وإضافةً إلى كونها قراءة شاذّة، هناك ردود ذكرت على هذه القراءة منها:

(۱) أنّها مخالفة لما ثبت فى المصحف، ولا يصحّ الانتقال من الذى ثبت فى المصحف إلى قراءة اخرى هى موضع خلاف ولا يُدرى أصحّت أم لا.

(۲) أنّ عطاءً كان يكثر الإرسال عن ابن عبّاس من غير سماع.

ص: ۱۱۴

(۳) وأنّ الرواية عن أنس أيضاً غير مضبوطة.

وإن ثبتت هذه القراءة ففيها احتمالان:

الأوّل: أنّ (لا) زائدة كما فی قوله تعالی، الآية ۱۲ من سورة الأعراف: قال ما منعک ألّا تَسجُدَ.

وكما فی قول أبی النجم:

وما ألومُ البيضَ ألّا تسخرا لمّا رأين الشَّمطَ القفندَرا

القفندر: القبيح المنظر.

إذن علی فرض صحّة هذا الاحتمال فلا فرق بين القراءتين.

الثانی: أنّ (لا) غير زائدة، ويكون المعنی هكذا: أنّ رفع الجُناح فی فعلِ الشیء هو رفع فی تركه، فهو تخيير بين الفعل والترک.

فلا تتّحد القراءتان علی هذا الاحتمال، وبالتالی فيكون الفرق بينهما فی أنّ القراءة الأولی أنّ يطوّف قد رفع فيها الجناح الذی يترتّب علی الفعل أی السعی بين الصفا والمروة، فيما يكون رفع الجناح فی القراءة الثانية قد ترتّب علی ترک الفعل (۱).

نحن والآية

مع أنّ كلماتهم اتّفقت علی أنّ السعی واحد من واجبات فريضة الحجّ والعمرتين وإن اختلفوا فی ركنيته، كما تدلّ عليه الروايات عند الفريقين والسيرة النبوية قولًا وفعلًا، وأقوال أئمّتهم وعلمائهم، إلّاأنّهم اختلفوا فی أنّ الآية المذكورة بذاتها تدلّ علی الوجوب هذا أو لا يمكن استفادة هذا الوجوب منها..، بل اتّخذ بعضهم الآية دليلًا علی عدم وجوب السعی كما سنری.

ونحن هنا نقف عند الذی اختلفوا فيه وهو الآية بعيداً عمّا اتّفقوا عليه من

۱- ۱ انظر فی هذا الدرّ المصون فی علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبی ۲: ۱۸۸- ۱۹۳ فإن فيه فوائد جمّة، ومعجم القراءات القرآنية ۱: ۱۲۸ وغيرهما.

ص: ۱۱۵

السيرة والروايات.. لنرى هل الآية، التى نزلت فى عمرة القضاء سنة ۷ ه (وسميت كذلك لأنّها شرط من شروط صلح الحديبيّة سنة ۶ ه والـذى بـدأ ب هـذا مـا قاضـى به..) تصـلح لأـن يسـتدلّ بها على وجوب السـعى أو نفيه، أو لا هـذا ولا ذاك، وغايـة ما تـدلّ عليه هو الاستحباب أو لا تدلّ على شىء من هذه الأحكام التكليفيّة أصلًا..

إذن وقع الخلاف فى الاسـتفادة من هذه الآية، وهل فيها أو فى ظاهرها دلالة على وجوب السـعى، الذى ذهب إليه جمع من المفسّرين والفقهاء من الفريقين كما سنرى، أو لا دلالة فيها على ذلك، وكلّ ما تدلّ عليه هو استحباب السعى أو إباحته وهو ما استفاده آخرون.

وكلمـة فلاـ جناح هى المحور الرئيس لهـذا الخلاف فى فهم الآيـة ودلالتها، فيما ظلّت فمن تطوّع خيراً... دليلًا آخر اسـتعان به بعضـهم على عدم دلالة الآية على وجوب السعى، وكلّ ما تدلّ عليه هو التخيير...

بعـد هـذه الخلاصـة، نأتى إلى الآية الكريمة، وهى الوحيدة فى موضوعها التى ذكرت فى القرآن الكريم، والتى جاءت إمّا ردّاً على ما توهّموه من حظر السـعى بين الصـفا والمروة بعـدما ذكر اللّه تعالى فى كتابه الطواف بالبيت ولـم يذكر السـعى، وإمّا جواباً عن تساؤلهم عن حكم السعى الآن، بعد أن كان من مناسك الجاهلية، أو درءاً لشبهة عرضت لهم أو رفعاً لحرجٍ وقعوا فيه بسبب وجود الأصنام على الصفا والمروة...

وقد رأيت أن تدرس الآية عبر مقاطعها الثلاثة:

المقطع الأوّل: إنّ الصفا والمروة من شعائر اللّه.

المقطع الثانى: فمن حجّ البيت أو اعتمر فلا جُناح عليه أن يطوّف بهما.

المقطع الثالث: ومن تطوّع خيراً فإنّ اللّه شاكرٌ عليم.

ومن خلال دراسة كلّ مقطع منها لوحده، وبتظافرها يمكن أن يستقيم معنى

ص: ۱۱۶

الآیهٔ ویتّضح مرادها، فیرفع ما توهّمه بعضهم ورتّب علیه أموراً وأحکاماً غیر ما تحمله الآیهٔ نفسها وتریده، ونأی بعیداً عمّا تهدفه...
وحاولتُ أن تکون هذه الدراسهٔ للآیهٔ مستفادهٔ من الآیهٔ نفسها عبر مقاطعها الثلاثهٔ، وما جاء به المقطع الثانی والثالث من فوائد تفرّعت کلّها علی المقطع الأوّل أو جاءت نتیجهٔ له، مستعیناً فی هذا کلّه بأسباب نزول الآیهٔ التی تحکی الأجواء والظروف وما رافقتها من أحداث وملابسات... وبما جاء فی الروایات وأقوال المفسّرین والفقهاء... فنبدأ أوّلًا بذکر أسباب النزول.

أسباب النزول

إنّ معرفهٔ الأجواء والظروف التی نزلت فیها الآیهٔ، والحالهٔ المعاشهٔ وما حدث فیها من تساؤلات وملابسات، وما أدّت إلیه من توقّف أو إحراج وتردّد... کلّ هذا ولعلّ هناک غیره یمکن استفادته من دراسهٔ أسباب النزول، فتعیننا هذه الدراسهٔ علی فهم مراد الآیهٔ، وتزیل کلّ لبس أو إشکال یحیط بفهمها، وتدفع بالتالی ما یوهمه- کما یقول بعضهم- ظاهر الآیهٔ، من أنّ السعی لیس بواجب ولا یتوقّف علیه الحجّ ولا العمرهٔ، بل هو مباح، والحاج أو المعتمر مختار فی الإتیان به أو ترکه.. فإنّ معرفهٔ السبب إن لم یورثنا العلم بالمسبّب وما یتضمّنه من معانٍ ومرادٍ، فإنّه- علی الأقلّ- یقرّبنا من معرفهٔ کلّ هذا..
فقد ذُکرت أسبابٌ متعدّدهٔ ومختلفهٔ لنزول هذه الآیهٔ نوجزها بما یلی:

۱- إنّ الناس کانوا یطوفون کلّهم بالصفا والمروهٔ، فلمّا ذکر اللَّه تعالی الطواف بالبیت، ولم یذکر الصفا والمروهٔ فی القرآن، قالوا: یارسول اللَّه، کنّا نطوف بالصفا والمروهٔ، وإنّ اللَّه أنزل الطواف بالبیت فلم یذکر الصفا، فهل علینا من حرجٍ أن نطوّف بالصفا والمروهٔ؟ أو کما عن الانصار: إنّما أُمرنا بالطواف بالبیت ولم نؤمر به بین الصفا والمروهٔ، فأنزل اللَّه تعالی إنّ الصفا والمروهٔ من شعائر اللَّه الآیهٔ.

ص: ۱۱۷

۲- وعن الإمام الصادق عليه السلام كما ذكر في «فروع الكافي» في حديث حجّ النبيّ صلى الله عليه و آله أنّه قال: إنّ المسلمين كانوا يظنّون أنّ السعي بين الصفا والمروة شيء صنعه المشركون، فأنزل اللّه: إنّ الصفا والمروة من شعائر اللّه.. فبعدما طاف (النبيّ) بالبيت وصلّى ركعتيه (قرأ): إنّ الصفا والمروة من شعائر اللّه... وقال: أبدأ بما بدأ اللّه عزّوجلّ (۱).

۳- وهو ما ورد عن أنس بن مالك حيث قال: كنّا نرى أنّهما من أمر الجاهلية، فلمّا كان الإسلام أسكنا عنهما، فأنزل اللّه تعالى إنّ الصفا والمروة....

وعنه أيضاً: كنّا نكره الطواف بين الصفا والمروة؛ لأنّهما كانا من مشاعر قريش في الجاهلية، أو أنّ طوافنا بينهما من أمر الجاهليّة فتركناه في الإسلام، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية.

۴- عن عائشة قالت: انزلت هذه الآية في الأنصار، كانوا يحجّون لمناة، وكانت مناة حذو قُديدٍ، وكانوا يتحرّجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلمّا جاء الإسلام سألوا رسول اللّه صلى الله عليه و آله عن ذلك، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية. وعنها أيضاً أنّها قالت: أنزلت هذه الآية في ناس من الأنصار كانوا إذا أهلّوا أهلّوا لمناة في الجاهلية، ولم يحلّ لهم أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلمّا قدموا مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله في الحجّ ذكروا ذلك له، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية.

۵- قال عمرو بن حُبيش: سألت ابن عمر عن هذه الآية، فقال: انطلق إلى ابن عبّاس فسله، فإنّه أعلم مَن بقي بما أنزل اللّه على محمّد صلى الله عليه و آله فأتيته فسألته، فقال:

كان على الصفا صنم على صورة رجل يقال له: أساف، وعلى المروة صنم على صورة امرأة تدعى نائلة؛ زعم أهل الكتاب أنّهما زنيا في الكعبة، فمسخهما اللّه تعالى حجرين، فوضعا على الصفا والمروة ليعتبر بهما. فلمّا طالت المدّة عُبِدَا من دون اللّه تعالى. فكان أهل الجاهلية إذا طافوا بينهما مسحوا على الوثنين، فلمّا جاء الإسلام وكسرت الأصنام، كره المسلمون الطواف بينهما لأجل الصنمية فأنزل اللّه تعالى

۱- ۱ فروع الكافي، باب حجّ النبيّ.

ص: ۱۱۸

هذه الآية.

۶- وأمّا السُّدِّی فقد قال: کان فی الجاهلیة تَعزِفُ الشیاطین باللیل بین الصفا والمروة، وکانت بینهما آلهة، فلمّا ظهر الإسلام قال المسلمون: یارسول اللّه، لا نطوف بین الصفا والمروة، فإنّه شرک کنّا نصنعه فی الجاهلیة، فأنزل اللّه هذه الآیة (۱).

۷- وفی البخاری عن أبی‌بکر بن عبدالرحمن أنّه قال: فأسمع هذه الآیة نزلت فی الفریقین کلیهما: فی الذین کانوا یتحرّجون أن یطوفوا فی الجاهلیة بالصفا والمروة، والذین یطوفون ثمّ تحرّجوا أن یطوفوا بهما فی الإسلام من أجل أنّ اللّه تعالی أمر بالطواف بالبیت ولم یذکر الصفا حتّی ذکر ذلک بعدما ذکر الطواف بالبیت (۲).

فی أجواء الآیة

ممّا لا شکّ فیه أنّ الآیة المذکورة نزلت- حسب أسباب النزول- إمّا جواباً عن تساؤل وإمّا ردّاً لشبهات وإشکالات اثیرت هنا وهناک بنوایا صادقة وبدوافع إسلامیة خالصة، واخری خبیثة، راح الأعداء یحاولون استثمارها وتوظیفها- کعادتهم- لصالح أهدافهم ومکائدهم، التی لم یتوقّفوا عن تفعیلها فی داخل الصفّ الإسلامی لتضعیفه أو علی الأقلّ لزرع الشکوک بین أبنائه.

ولیست هذه أوّل آیة تنزل لمعالجة أمر خطیر تتعرّض له الجماعة المسلمة، فقد عوّدنا القرآن الکریم التصدّی وبشکل مباشر لمعالجة ظواهر تتولّد فجأةً أو تأتی عبر مقدّمات أو نتیجة أحداث أو إعداد مسبق من قبل أیدٍ منافقة ترید العبث بأمن هذا المجتمع الجدید وسلامة معتقداته، وأمامک تحویل القبلة ودور یهود المدینة، وما حدث فی معرکة أُحد، ومباهلة أهل نجران، وحدیث الإفک، وغیرها من الأحداث التی نزل فیها قرآن.

فجاءت هذه الآیة المبارکة لتحسم إشکالًا وتردّ شبهةً وترفع تحرّجاً وقع فیه جمع من المسلمین.. فقد تحرّج عددٌ من صحابة الرسول صلی الله علیه و آله من السعی حینما

۱- ۱ انظرها فی صحیح البخاری ۲: ۵۹۳، ۴: ۱۶۳۵ وفی أسباب نزول القرآن للواحدی: ۴۹- ۵۰.

۲- ۲ انظر البخاری ۲: ۵۹۳.

ص: ۱۱۹

عرضت لهم شبهة وإن كانت فی بدايتها ذات دوافع إيمانية صادقة، إلّاأنّها كادت أن تتوسّع وتترك آثارها على الجماعة المسلمة فيما لو تركت دون معالجة ومعالجة حاسمة، وخير دليل على هذا الموقف القرآنی عبر آية جاءت لتؤكّد بقوّة هذا المنسك ثمّ ترفع الحرج وأخيراً ترغب فی الإكثار منه حتّى لا تكون مادّة يستغلّها الأعداء ومَن فی قلوبهم مرض...

عن التحرّج هذا، يقول سيّد قطب: كان هذا التحرّج ثمرة التعليم الطويل، ووضوح التصوّر الإيمانی فی نفوسهم، هذا الوضوح الذی يجعلهم يتحرّزون ويتوجسّون من كلّ أمر كانوا يزاولونه فی الجاهلية، إذ أصبحت نفوسهم من الحسّاسية فی هذه الناحية بحيث تفزع من كلّ ما كان فی الجاهلية، وتتوجّس أن يكون منهيّاً عنه فی الإسلام، الأمر الذی ظهر بوضوح فی مناسبات كثيرة..

ثمّ راح سيّد قطب يواصل حديثه عن بواعث هذه الظاهرة ودور العقيدة الإسلامية والرسول صلی الله عليه و آله فيها قائلًا:

كانت الدعوة الجديدة قد هزّت أرواحهم هزّاً وتغلغلت فيها إلى الأعماق، فأحدثت فيها انقلاباً نفسيّاً وشعوريّاً كاملًا، حتّى لينظرون بجفوة وتحرّز إلى ماضيهم فی الجاهلية، ويحسّون أنّ هذا شطر من حياتهم قد انفصلوا عنه انفصالًا كاملًا، فلم يعد منهم، ولم يعودوا منه، وعاد دنساً ورجساً يتحرّزون من الإلمام به!

وإنّ المتابع لسيرة هذه الفترة الأخيرة فی حياة القوم ليحسّ بقوّة أثر هذه العقيدة العجيب فی تلك النفوس، يحسّ التغيّر الكامل فی تصوّرهم للحياة؛ حتّى لكأنّ الرسول صلی الله عليه و آله قد أمسك بهذه النفوس فهزّها هزّةً نفضت عنها كلّ رواسبها، وأعادت تأليف ذرّاتها على نسق جديد، كما تصنع الهزة الكهربية فی تأليف ذرّات الأجسام على نسق آخر غير الذی كان!

وهذا هو الإسلام.. هذا هو: انسلاخاً كاملًا عن كلّ ما فی الجاهلية، وتحرّجاً بالغاً من كلّ أمر من امور الجاهلية، وحذراً دائماً من كلّ شعور وكلّ حركة كانت

ص: ۱۲۰

النفس تأتیها فی الجاهلیهٔ، حتّی یخلص القلب للتصوّر الجدید بکلّ ما یقتضیه..

فلمّا أن تمّ هذا فی نفوس الجماعهٔ المسلمهٔ أخذ الإسلام یقرِّر ما یرید الإبقاء علیه من الشعائر الأولی ممّا لا یری فیه بأساً، ولکن یربطه بعروهٔ الإسلام بعد أن نزعه وقطعه من أصله الجاهلی، فإذا أتاه المسلم، فلا یأتیه لأنّه کان یفعله فی الجاهلیهٔ، ولکن لأنّه شعیرهٔ من شعائر الإسلام، تستمدّ أصلها من الإسلام.

وهنا- والقول ما زال لسیّد قطب- نجد مثالًا من هذا المنهج التربوی العمیق، إذ یبدأ القرآن بتقریر أنّ الصفا والمروهٔ من شعائر اللَّه إنّ الصفا والمروهٔ من شعائر اللّه...

فإذا اطوف بهما مطوف، فإنّما یؤدّی شعیرهٔ من شعائر اللَّه، وإنّما یقصد بالطواف بینهما إلی اللّه، ولقد انقطع ما بین هذا الطواف الجدید وطواف الجاهلیهٔ الموروث، وتعلّق الأمر باللَّه- سبحانه- لا بأساف ونائلهٔ وغیرهما من أصنام الجاهلیهٔ!

ومن ثمّ فلا حرج ولا تأثم، فالأمر غیر الأمر، والاتجاه غیر الاتجاه (۱)...

إذن فبقراءهٔ أسباب النزول المذکورهٔ علی التنافی فی مضامینها وما تذکره من أسباب نعرف أنّ هذه الآیهٔ جاءت لتدفع ما وقع به بعض المسلمین من أنّ هذه الشعیرهٔ باتت بعیدهً عن المنهج السلیم للإیمان وبالتالی فهی إن وقعت فلا مناص من أنّها امتداد واضح لأجواء الجاهلیهٔ وما یعبد فیها من أوثان.. فاجتثّت هذه الآیهٔ هذا التصوّر، ولم تکتفِ بذلک بل وضعت هذا المنسک فی مکانته من العقیدهٔ الإسلامیهٔ والشریعهٔ المقدّسهٔ، وأنّه لیس خارجاً عنهما أو هو شیء طارئ لا أساس له شرعی وتأریخی وإنّما هو نسکٌ ربّانی إبراهیمیّ.. ورکّزت فی الأذهان- أیضاً أنّ خلوّ هذا المکان من الأصنام بل مع وجودها لا یضرّ أبداً بطهارهٔ هذه الفریضهٔ وشرعیتها، وأنّ العبادهٔ ما دامت نابعهٔ من الارتباط باللَّه وتؤدّی للَّهفقط دون غیره، وقائمهٔ علی اسس وضوابط شرعیهٔ فلا یحجبها عن القبول شیء

۱- ۱ فی ظلال القرآن، سیّد قطب، ۱: ۱۴۹.

ص: ۱۲۱

ولا یعکّر صفوها شیءٌ آخر سواءً أکان أصناماً أو اموراً اخری تقع فی ساحتها.

ثمّ إنّ حرجهم هـذا وقع بعـد أن اعیـدت الأصـنام إلی الجبلین الصـفا والمروهٔ فقد رفعت بطلب من النبیّ صـلی الله علیه و آله، حسـب الروایهٔ التی تقول: إنّها رفعت وقد تأخّروا لسبب من الأسباب عن السعی مع النبیّ والمسلمین الآخرین، فلمّا رأوها اعیدت تولّد حرجهم هذا ووقع إشکالهم وتساؤلهم..

وإلّا لو أنّها لم ترفع بدایهً لما تحرّجوا من السعی بینهما، وخیر دلیل هو أنّهم طافوا جمیعاً بالکعبهٔ والأصنام موجودهٔ حولها، ولم یحسب لها النبیّ صـلی الله علیه و آله والمسـلمون أیّ حساب أو یرتّبوا علیها أی أثر، واعتقـد أنّه لو رفعت هذه الأصـنام من حوالی الکعبهٔ وتمّ طواف رسول اللّه صلی الله علیه و آله ومعه المسلمون، وتخلّف جمع عن هذا الطواف، واعیدت الأصنام لوقع فی نفوسهم الحرج نفسه الذی نشأ عندهم فی قضیهٔ السعی بعد إعادهٔ الأصنام.

قلنا هـذا علی ضوء ما تحمله الروایهٔ القائلهٔ بأنّ سـبب النزول هو إعادهٔ الأصـنام بعد رفعها، وعلی القول المشـهور بأنّ الرسول صـلی الله علیه و آله طاف حول الکعبهٔ والأصنام الموجودهٔ..

فخلاصـهٔ الکلام أنّ الآیهٔ جاءت لرفع الإحراج أو الاشـتباه.. الذی وقع فیه جمع من الصـحابهٔ وقتذاک، ووضّـحت لهم الموقف الأسـلم الذی ینبغی بل یجب الالتزام به.

أساف ونائلهٔ

شأن مناسک الحـجّ شأن کلّ الدیانات السـماویهٔ، التی لم تسـلم من التحریف والتشویه والتدنیس، فبعد أن سـری الشـرک، وراح یبنی کیـانه فی الواقع الاجتمـاعی، ظهرت له آثـار سیّئهٔ علی مجمل الحیاهٔ بنواحیها المختلفـهٔ، ومنها مناسک الحـجّ، حیث نصـبت للشـرک أعلام وأصنام وأوثان فی کلّ زاویهٔ من البیت الحرام، معقل التوحید الخالص، فحول الکعبهٔ أصنام وعلی الصفا وثن یدعی (أساف)

ص: ۱۲۲

وعلى المروة آخر يدعى (نائلة)، وكأنّ يد الشرك والجهل أبت إلّاأن تدنّس كلّ بقعة من المسجد الحرام.. ولكى تذكّرهم هذه الأصنام وتشدّهم هذه الأوثان إلى دين الشرك الذى هم له عاكفون.. وهم يؤدّون مناسك إبراهيم من طواف وسعى... والتى هى معالم للتوحيد الإبراهيمى الخالص وغير المشوب بأدران الشرك والوثنية..

وإنّ وجود هذين الصنمين اللّذين كادا أن يُعبدا إن لم نقل: إنّهما قد عُبدا فى الجاهلية، دليلٌ واضح على ما اقترفته أيديهم العابثة بطهارة هذه الأمكنة وهذه الشعائر.

وقفة قصيرة:

رفع الأصنام من حول الكعبة والمسعى لم يذكر فى شروط صلح الحديبية، وأمامك كلّ مصادر التأريخ والسيرة، اللّهم إلّاما ذكره صاحب تفسير العيّاشى، فقد ذكر خبراً عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «كان من شرط رسول اللَّه عليهم: أن يرفعوا الأصنام...» (1).

فهل عبارة «كان من شرط رسول اللَّه عليهم..» أنّه شرط من شروط صلح الحديبيّة، أو أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله حينما جاء لأداء عمرته شرط على قريش أن يرفعوا الأصنام من المسعى فقط أو من المطاف والمسعى؟!

والجواب واضح وهو أنّ جميع مصادر السيرة والتاريخ... لم تذكر مثل هذا الشرط وأنّه من شروط صلح الحديبية، ولو كان لبان، فهو إذن ليس شرطاً ثابتاً من شروط الصلح هذا أوّلًا.

وأمّا ثانياً: أنّ مشركى مكّة لم يقبلوا أو رفضوا طلب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أن يدخل الكعبة، فقد بعث لهم ليسمحوا له بدخول الكعبة فأبوا وقالوا: لم يكن هذا فى شرطك، أى فى شروط صلح الحديبية. فتوقّف عن دخولها.

وقبل هذا بعثت قريش مِكرز بن حفص فى نفرٍ منهم، فالتقوا بالنبىّ فى بطن

۱- ۱ تفسير العياشى ۱: ۷۰/ ۱۳۳.

ص: ۱۲۳

يأجج- وقد وردهم خبرٌ أنّ النبىّ والمسلمين حملوا معهم كامل سلاحهم- فقالوا:

يا محمّد! واللَّه ما عُرفتَ- صغيراً ولا كبيراً- بالغدر، تدخل بالسلاح الحرم على قومك، وقد شرطت أن لا تدخل إلّابسلاح المسافر: السيوف فى القُرُب؟!

فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: لا ندخلها إلّاكذلك.

فرجع مكرز إلى مكّة مسرعاً يقول لهم: إنّ محمّداً لا يدخل بسلاح، وهو على الشرط الذى شرط لكم.

فمن هذا يظهر أنّ قريشاً كانت تراقب بدقّة أن لا تُخترق بنود صلح الحديبيّة، أو يُزاد عليها، وترفض أىّ شىء يستجد بعد ذلك، وإن كان هذا توجّساً منها وخوفاً وحذراً. وإلّا فليس من أخلاق رسول اللَّه صلى الله عليه و آله مخالفة ما تعاهد عليه، وعظيم قول مكرز وجميل: يا محمّد واللَّه ما عُرفت- صغيراً ولا كبيراً- بالغدر.

إذن: أبى مشركو قريش أن يقبلوا طلب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله منهم أن يدخل الكعبة، وقد رفضوا ذلك معلّلين رفضهم بأنّه ليس من شروط الصلح، فكيف برفع الأصنام؟ فهل يقبلونه وهو بالنسبة إليهم أمر كبير وخطير، ولم يذكر فى شروط صلح الحديبية؟!

ولو سلّمنا بأنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله طلب رفع الأصنام من المسعى، وسلّمنا أيضاً بأنّ قريشاً قبلت بذلك، فلماذا فقط يطلب الرسول صلى الله عليه و آله رفع الأصنام من المسعى فقط دون البيت، وقد احيطت الكعبة بالأصنام، والطواف أعظم من السعى أحكاماً وآداباً...؟

ثمّ هل الأصنام التى حول الكعبة أكثر قدسية عند مشركى مكّة من أساف ونائلة، حتّى يهون الأمر عليهم فيستجيبوا لرفع هذه ويتركوا تلك على حالها، أو أنّ الأصنام التى حول الكعبة أقلّ خسّةً وقذارة من تلك التى على الصفا والمروة، فيطلب النبى رفع هذه وترك تلك؟!

اللّهم إلّاأن نقول: إنّ المقصود ب «أنّ رسول اللَّه كان شرط عليهم أن يرفعوا

ص: ۱۲۴

الأصنام..» مطلق الأصنام سواء التی کانت علی الصفا والمروة أو حول الکعبة، وهو ما یؤیده إطلاق العبارة «أن یرفعوا الأصنام» ثمّ إنّ روایة العیاشی هذه لا یمکن الاستفادة منها أنّ هذا الشرط هو من شروط صلح الحدیبیّة وهو ما ذهب إلیه بعضهم بل هو شرط متأخر عنها وقع فی عمرة القضاء، ودفعاً لهذه الإشکالات والتساؤلات التی تحضرنی ولعلّ هناک غیرها، التی تترتّب علی روایة رفع الأصنام وإعادتها، وأنّها کانت سبباً للحرج الذی وقع به بعض المسلمین وبالتالی فهی سبب لنزول الآیة، یمکن الأخذ بواحد من الأسباب الاخری لنزول الآیة؛ والتی منها الروایة التی تذکر کسبب للآیة من قبل الفریقین.

فعن فروع الکافی فی حدیث حجّ النبیّ صلی الله علیه و آله عن الصادق علیه السلام قال: إنّ المسلمین کانوا یظنّون أنّ السعی بین الصفا والمروة شیء صنعه المشرکون، فأنزل اللَّه: إنّ الصفا والمروة من شعائر اللَّه... فبعدما طاف (النبیّ) بالبیت وصلّی رکعتیه (قرأ): إنّ الصفا والمروة من شعائر اللَّه... وقال: أبدأ بما بدأ اللَّه عزّوجلّ (۱).

مع الفرق الإسلامیة الاخری

قبل أن أبدأ بذکر روایات أهل السنّة وأخبارهم ثمّ أقوال فقهائهم ومفسّریهم بخصوص الآیة المذکورة ومرادها.. أعرض أوّلًا للوهم الحاصل الذی ملخّصه: أنّ ظاهر الآیة یوهم بأنّ السعی بین الصفا والمروة هو من الامور المباحة، فمن شاء سعی ومن شاء لم یسعَ فلا جَناح علیه وبالتالی فإنّ فریضة الحجّ والعمرتین کلّها تصحّ دون سعی بین هذین الجبلین.

فصیغة الآیة تنفی وجوب السعی کمنسک، وهذا ما ذهب إلیه واحد من فقهاء المدینة السبعة أو الأربعة عروة بن الزبیر بن أسماء بنت أبی بکر، وهو من التابعین (۲۳- ۹۱ ه).

فقد روی ابنه أنّ أباه کان قد سأل خالته امّ المؤمنین عائشة قائلًا: أرأیت قول اللَّه تعالی: إنّ الصفا والمروة من شعائر اللَّه فمن حجّ البیت أو اعتمر

۱- ۱ انظر: فروع الکافی، وتفسیر المیزان..

ص: ۱۲۵

فلا جُناح عليه أن يطوّف بهما ثمّ راح يقسم لها بقوله: فواللَّه ما على أحدٍ جُناح، أو ما أرى على أحد لم يطف بين الصفا والمروة شيئاً، وما أبالى ألّاأطوف بينهما.

فأجابته بقولها:

بئس ما قلت ياابن اختى، إنّ هـذه الآيـة لو كانت كما أوّلتها عليه كانت لا جُناح عليه ألا يتطوّف بهما، ولكنّها أنزلت فى الأنصار كانوا قبل أن يسلموا يهلّون لمناة الطاغية التى كانوا يعبدون بالمشلّل، وكان مَن أهلّ لها يتحرّج أن يطوف بالصفا والمروة، فلمّا أسلموا سألوا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عن ذلـك؛ قـالوا: يـارسول اللَّه إنـا كنّـا نتحرّج أن نطوف بالصـفا والمروة، فـأنزل اللَّه تعـالى إنّ الصـفا والمروة... (۱).

ويبـدو أنّ هـذا الوهم كما يسـمّونه لم يكن مختصّاً بعروة، فهناك غيره فقـد روى الترمذى عن عاصم بن سـليمان الأحول قال: «سألت أنس بن مالـك عن الصـفا والمروة، فقـال: كانـا من شـعائر الجاهليـة، فلمّـا كـان الإسـلام أمسـكنا عنهما، فأنزل اللَّه عزّوجلّ إنّ الصـفا والمروة من شعائر اللَّه.

وقد استفاد بعض آخر عدم الوجوب، مستندين إلى قراءة بعض الصحابة وبعض التابعين لا جناح عليه أن (لا) يطوّف بهما.

وعن أبى عاصم كما أخرجه الطبرى، قال: حـدّثنا جُريـج قال: قال عطاء: لو أنّ حاجّاً أفاض بعدما رمى جمرة العقبة، فطاف بالبيت ولم يسعَ، فأصاب امرأته، لم يكن عليه شىء لا فى حجّ ولا فى عمرة، من أجل قول اللَّه- كما فى مصحف ابن مسعود-: فمن حجّ البيت أو اعتمر فلا جُناح عليه أن (لا) يطوّف بهما.

قال: فعاودته بعد ذلك، فقلت: إنّه قد ترك سـنّة النبىّ صلى الله عليه و آله، قال: ألا تسمعه يقول: فمن تطوّع خيراً فأبى أن يجعل عليه شيئاً..؟ فقد أخذ التطوّع بمعنى التبرّع.

ونحو هـذا عن مجاهـد أنّه قـال: لم يُحرّج من لم يطف بهمـا.. أى لم يأتِ إثماً؛ لأنّه غير واجب. وأيضاً عن عطاء عن عبـداللَّه بن الزبير قال: هما تطوّع (۲).

۱- ۱ تفسير الطبرى ۲: ۲۹.

۲- ۲ انظر فى هذا تفسير الطبرى ۲: ۳۰.

ص: ۱۲۶

فمن حجّ البيت أو اعتمر فلاـ جُناح عليه أن يطوّف بهما قال: هما تطوّع، مَن تطوّع خيراً فإنّ اللّه شاكرٌ عليم قال: هذا حديث حسن صحيح» (۱).

وأخرج عن سفيان بن عاصم الأحول قال: سمعت أنساً يقول: الطواف بينهما تطوّع.. أى تبرّع ومندوب إليه.

وهذا أبو حنيفة قد احتجّ لعدم ركنية هذا المنسک مکتفياً بوجوبه من أدلّة خارجة عن الكتاب؛ لأنّ الآية عنده ليس فيها ما يدلّ على وجوبه فضلًا عن ركنيّته، فقال كما ينقل الرازى فى تفسيره: احتجّ أبو حنيفة لعدم الركنيّة بوجهين:

أحدهما: هذه الآية فلاـ جُناح... قال: وهذا لاـ يُقال فى الواجبات، وقد أكّده تعالى بقوله: ومن تطوّع خيراً... فبيّن أنّه تطوّع وليس بواجب.

وثانيهما: قوله صلى الله عليه و آله: «الحجّ عرفة» ومن أدرک عرفة فقد تمّ حجّه...».

وهنا راح الرازى يردّ ذلک، نکتفی بردّه عن الوجه الأوّل محلّ كلامنا، فيقول:

والجواب عن الأوّل- والكلام للرازى- من وجوه:

الأوّل: ما بيّنا أنّ قوله فلاـ جُناح عليه ليس فيه إلّاأنّه لا إثم على فاعله، وهذا القدر المشترک بين الواجب وغيره، فلا يكون فيه دلالة على نفى الوجوب.

ثمّ راح يثبت له ذلک بآية اخرى حيث يقول:

والذى يحقّق قوله تعالى: فليس عليكم جُناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم والقصر عند أبى حنيفة واجب، مع أنّه قال فيه: فلا جُناح عليه فكذا هنا.

الثانى: أنّه رفع الجناح عن الطواف بهما لا عن الطواف بينهما، وعندنا الأول غير واجب، وإنّما الثانى هو الواجب.

الثالث: قال ابن عبّاس: كان على الصفا صنم وعلى المروة صنم، وكان أهل الجاهلية يطوفون بهما ويتمسّحون بهما، فلمّا جاء الإسلام كره المسلمون الطواف بينهما لأجل الصنمين، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية.

إذا عرفت هذا، فنقول: انصرفت الإباحة إلى وجود الصنمين حال الطواف لا

۱- ۱ البخارى ۲: ۵۹۳.

ص: ۱۲۷

إلی نفس الطواف. ویضرب الرازی لهذا مثلًا فیقول: کما لو کان فی الثوب نجاسة یسیرة عندکم، أو دم البراغیث عندنا، فقیل: لا جُناح علیک أن تصلّی فیه، فإن رفع الجُناح ینصرف إلی مکان النجاسة، لا إلی نفس الصلاة.

الرابع: روی عن عروة أنّه قال لعائشة: إنّی أری أن لا حرج علیَّ فی أن لا أطوف بهما.

فقالت: بئس ما قلتَ، لو کان کذلک لقال: أن لا یطوف بهما. ثمّ حکی ما تقدّم فی الصنمین.

وهنا یعلّق الرازی بقوله: وتفسیر عائشة راجح علی تفسیر التابعین.

ولو احتجّ علی الرازی بقراءة ابن مسعود فلا جُناح علیه أن لا یطوّف بهما باعتبارها تصلح مؤیّداً لما ذهب إلیه عروة، علماً بأنّ هناک آیات توافق قراءة ابن مسعود کقوله تعالی: یبیّن اللَّه لکم أن تضلّوا أی أن لا تضلّوا، وکقوله تعالی: أن تقولوا یوم القیامة معناه: أن لا تقولوا.

ویجیب الرازی عن هذا بقوله: القراءة الشاذّة لا یمکن اعتبارها فی القرآن؛ لأنّ تصحیحها یقدح فی کون القرآن متواتراً.

ویخلص أخیراً کما فی الفقرة التالیة.

الخامس: أنّ قوله فلا جناح علیه لا یطلق علی الواجب فکذلک لا یطلق علی المندوب، ولا شکّ فی أنّ السعی مندوب، فقد صارت الآیة متروکة العمل بظاهرها.

وفی ردّه علی من تمسّک بقوله تعالی ومن تطوّع خیراً... یستدلّ علی أنّ السعی بین هذین الجبلین تطوّع ولیس بواجب وهو ما ذهب إلیه أبو حنیفة ومن قبله علی ما رُوی أنّ ابن عبّاس قد ذهب إلیه وکذا ابن الزبیر وأنس بن مالک وابن سیرین.

فقد قال الرازی: وأمّا التمسّک بقوله فمن تطوّع خیراً فضعیف؛ لأنّ هذا لا

ص: ۱۲۸

یقتضی أن یکون المراد من هذا التطوّع هو الطواف المذکور أوّلًا، بل یجوز أن یکون المقصود منه شیئاً آخر.

وراح یستشهد بآیة اخری علی صحّة هذا، فقال: قال اللَّه تعالی: وعلی الذین یطیقونه فدیة طعام مسکین ثمّ قال: فمن تطوّع خیراً فهو خیر له فأوجب علیهم الطعام، ثمّ أندبهم إلی التطوّع بالخیر، فکان المعنی: فمن تطوّع وزاد علی طعام مسکین کان خیراً، فکذا هاهنا یحتمل أن یکون هذا التطوّع مصروفاً إلی شیء آخر، وهو من وجهین:

أحدهما: أنّه یزید فی الطواف، فیطوف أکثر من الطواف الواجب مثل أن یطوف ثمانیة أو أکثر.

والثانی: أن یتطوّع بعد حجّ الفرض وعمرته، بالحجّ والعمرة مرّة ثانیة، حتّی طاف الصفا والمروة تطوّعاً... (۱).

أمّا الآلوسی فی تفسیر روح المعانی فیقول:... فلمّا جاء الإسلام وکسرت الأصنام کره المسلمون الطواف بینهما لأجل الصنمین، فأنزل اللَّه تعالی هذه الآیة.

ومنه یعلم دفع ما یتراءی أنّه لا یتصوّر فائدة فی نفی الجناح بعد إثبات أنّهما من الشعائر، بل ربما لا یتلازمان، إذ أدنی مراتب الأوّل الندب وغایة الثانی الإباحة.

وقد وقع الإجماع علی مشروعیة الطواف بینهما فی الحجّ والعمرة؛ لدلالة نفی الجناح علیه قطعاً، لکنّهم اختلفوا فی الوجوب.

فروی أحمد أنّه سنّة، وبه قال أنس وابن عبّاس وابن الزبیر؛ لأنّ نفی الجناح یدلّ علی الجواز، والمتبادر منه عدم اللزوم کما فی قوله تعالی: فلا جناح علیهما أن یتراجعا. ولیس مباحاً بالاتّفاق ولقوله تعالی: من شعائر اللَّه فیکون مندوباً.

ثمّ راح الآلوسی یضعف هذا بقوله: بأنّ نفی الجناح وإن دلّ علی الجواز المتبادر منه عدم اللزوم، إلّاأنّه یجامع الوجوب فلا یدفعه ولا ینفیه- والمقصود ذلک- فلعلّ هاهنا دلیلًا یدلّ علی الوجوب کما فی قوله تعالی: لا جناح علیکم أن

۱- ۱ التفسیر الکبیر للفخر الرازی ۳: ۱۸۱.

ص: ۱۲۹

تقصروا من الصلاة. ولعلّ هذا كقوله لمن عليه صلاة الظهر مثلًا، وظنّ أنه لا يجوز فعلها عند الغروب، فسأل عن ذلك: لا جناح عليك إن صلّيتها فى هذا الوقت، فإنّه جواب صحيح، ولا يقتضى نفى وجوب صلاة الظهر... (۱).

فيما ذكر البيضاوى فى تفسيره الإجماع على أنّه مشروع فى الحجّ والعمرة، وإنّما الخلاف فى وجوبه، فعن أحمد أنّه سنّة، وبه قال أنس وابن عبّاس؛ لقوله تعالى:

فلاـ جُناح عليه... فإنّه يفهم منه التخيير. ثمّ عقّب قائلًا: وهو ضعيف؛ لأنّ نفى الجناح يدلّ على الجواز الداخل فى معنى الوجوب، فلا يدفعه... (۲).

وتحقيق القول فيه- كما يقول ابن العربى- أنّ قول القائل: لا جناح عليك أن تفعل، إباحة الفعل.

وقوله: لا جناح عليك ألا تفعل، إباحة لترك الفعل.

فلمّا سمع عروة قول اللّه تعالى: فلا جناح عليه أن يطوّف بهما. قال: هذا دليل على أنّ ترك الطواف جائز، ثمّ رأى الشريعة مطبقة على أنّ الطواف لا رخصة فى تركه، فطلب الجمع بين هذين المتعارضين.

فقالت له عائشة: ليس قوله: فلا جناح عليه أن يطوّف بهما دليلًا على ترك الطواف، إنّما يكون دليلًا على تركه لو كان «فلا جناح عليه ألّا يطوّف بهما» فلم يأتِ هذا اللفظ لإباحة ترك الطواف، ولا فيه دليل عليه؛ إنّما جاء لإفادة إباحة الطواف لمن كان يتحرّج منه فى الجاهلية، أو لمن كان يطوف به فى الجاهلية قصداً للأصنام التى كانت فيه فأعلمهم اللّه سبحانه أنّ الطواف ليس بمحظور إذا لم يقصد الطائف قصداً باطلًا» (۳).

وقال ابن قدامة:... وقول عائشة فى ذلك- بكونه ركناً- معارض بقول من خالفها من الصحابة.. (۴).

ويقول صاحب تفسير التحرير والتنوير:

ونفى الجناح عن الذى يطوف بين الصفا والمروة، لا يدلّ على أكثر من

۱- ۱ انظر روح المعانى للآلوسى ۱: ۲۵.

۲- ۲ تفسير البيضاوى ۱: ۱۵۶.

۳- ۳ ابن عربى فى تفسيره.

۴- ۴ التفسير الكبير ۴/ ۱۶۰.

ص: ۱۳۰

كونه غير منهيّ عنه فيصدق بالمباح والمندوب، والواجب والركن؛ لأنّ المأذون فيه يصدق بجميع المذكورات، فيحتاج فى إثبات حكمه إلى دليل آخر؛ ولذلك قالت عائشة لعروة: لو كان كما تقول لقال: فلا جناح عليه ألّايطوف بهما.

دراسة الآية

بعد هذا نأتى لدراسة الآية عبر مقاطعها الثلاثة:

المقطع الأوّل:

إنّ الصفا والمروة من شعائر اللَّه

الإعراب:

إنّ: من الحروف المشبّهة بالفعل، تفيد توكيد النسبة، بل هى فى التوكيد أقوى من اللام، وليست هذه وظيفتها فقط، بل هناك غيرها، فهى يؤتى بها لنفى الإنكار والشكّ، وتفيد- أيضاً- التقرير والتحقيق.

الصفا: اسم إنّ والمروة عطفت على الصفا. من شعائر اللَّه: خبرها.

قال أبو البقاء: «وفى الكلام حذفُ مضاف، تقديره: «طواف الصفا، أو سعى الصفا».

فهذا المقطع من الآية الذى ابتدأ بأنّ المؤكّدة، يقرّر ويؤكّد أنّ كلّاً من الصفا والمروة أو طواف الصفا والمروة، شعيرةٌ من شعائر اللَّه تعالى الثابتة والمحبوبة إليه حيث أضافها إلى نفسه تعظيماً لشأنها وعلوّ منزلتها عنده.

وفى الوقت الذى تقرّر وتؤكّد الآية منسكية السعى بين الصفا والمروة؛ وذلك بالاستفادة من «إنّ» المؤكّدة، تنفى كلّ شكّ بمنسكيتهما ونكرانٍ لمشروعيتهما- وأيضاً- باستعمالها ل «إنّ» التى كما قلنا من وظائفها النفى. وهى وإن لم تكن أمراً صريحاً بل كانت خبراً لكنّها بقوّة الأمر يقول الطبرى فى تفسيره للآية:... وإن كان مخرجه مخرج الخبر فإنه مراد به الأمر... (۱)

۱- ۱ جامع البيان فى تفسير القرآن للطبرى ۲: ۲۷ تفسير الآية.

ص: ۱۳۱

فالتوكيد ب (إنّ) جاء حاسماً لنقاش ترتّبت عليه أحداث وملابسات وشبهات أحاطت بموضوع السعى بين هذين الجبلين (الصفا والمروة) إمّا لوجود صنمين (أساف ونائلة) أو لأىّ سبب من الأسباب التى ذكرناها فى أسباب النزول.

فأنزل اللَّه تعالى قرآناً لينهى به هذا الفزع الذى دخل قلوب البعض والخلاف حول مشروعية السعى، ولا يدعه يتعمّق بين الجماعة المسلمة، وليثبت أنّ السعى بين هذين الجبلين أمر إلهى ومنسک ربّانى، وأنّه من مناسک فريضة الحجّ ومن مناسک العمرة.. وبالتالى فإنّها جاءت ردّاً لكلّ من امتنع عن أداء هذا النسک أو توقّف أو شکّک به ظنّاً منه أنّه من شعائر الجاهلية...، ونفت كلّ مزاعم القوم فقالت بضرس قاطع: إنّ الصفا والمروة من شعائر اللَّه....

وبالتالى فإنّ السعى بين هذين الجبلين أمرٌ لابدّ منه؛ لأنّه من شعائر اللَّه، ومن مناسک إبراهيم، التى هى مناسک فريضة الحجّ والعمرة، ولا يكتمل كلّ منهما إلّا بأداء أجزائهما كاملة غير منقوصة، ولا يصحّ وصف العمل بالكمال إلّابأداء مفرداته وأجزائه التى يتكوّن منها.

المقطع الثانى:

... فمن حجّ البيت او اعتمر فلا جُناح عليه أن يطوّف بهما..

فهذا المقطع جاء متفرّعاً على المقطع الأوّل ومكمّلًا لما أكّده من نسبة هذا المنسک لأعمال الحجّ والعمرة، ونفى أى زعم أودعوى تخالف هذه النسبة.. ليرفع ذلک التحرّج وما اعتقدوه من ترتّب الإثم فى حالة سعيهم بين هذين الجبلين- نافياً- ضمناً- كلّ الأسباب التى ذكرت، وأنّها منفردة أو مجتمعة غير جديرة بتعطيل هذه الشعيرة المقدّسة، أو حتّى التوقّف بشأنها أو تأخيرها ريثما ترفع الموانع، أو تنتهى الأسباب التى تصوّروها موجبة لمثل هذا التردّد أو الامتناع.. لهذا جاء هذا المقطع سريعاً وحاسماً ومبيّناً أنّ هذا المنسک الذى كرهته

ص: ۱۳۲

نفوس قوم وراحت تصوّر لهم أنّه فيه ميلٌ عن الحقّ وبعدٌ عن الصواب، لا أساس له، وهو مجرّد أهواء لا غير، هـذا وأنّ هذا المقطع لم يكتف بدفع تحرّجهم الذى أوقعهم به توهّمهم حظر هذا المنسک، بل يمكن الاستفادهٔ منه تشجيعه لهم وحثّهم- ضمناً- على أدائه.

ثمّ إنّ الحرج أو الإثم.. الذى سمّته الآيهٔ «جُناح» جاء ليحكى لنا الحالهٔ التى عاشها بعضهم، وجاءت الآيهٔ لتحصين النفوس منه، ودفعه عنها، ولم يأتِ ليتناول أو يبحث أصل وجوب السعى، فأصل وجوب السعى بين الصفا والمروهٔ لا غبار عليه، وإن حدث شىء من هذا فقد دفعه المقطع الأوّل وأكّد وجوده وثباته... وإنّما جاء التعبير «فلا جناح» ليدفع ذلک الحرج الذى وقعوا فيه، وأنّه لا إثمَ عليكم وأنتم تؤدّون واجباً ومنسكاً من مناسک الحجّ والعمرهٔ، ولا يضرّ بهذا الأداء وجود الصنمين أو سبب من تلک الأسباب حيث شكّل وجودها حرجاً لمن يسعى، ما دامت نواياكم صادقةً خالصهٔ متقرّبهٔ بهذا الأداء إلى اللّه تعالى لا إلى غيره.

يقول الطبرى: فإن قال قائل: وما وجه هذا الكلام فلا جناح... وقد قلت لنا: إنّ قوله: إنّ الصفا والمروهٔ... وإن كان ظاهره ظاهر الخبر فإنّه فى معنى الأمر بالطواف بهما، فكيف يكون أمراً بالطواف، ثمّ يقال لا جناح...؟ والأمر بالطواف بهما والترخيص فى الطواف بهما غير جائز اجتماعهما...

وكان جوابه: أنّ النبى صلى الله عليه و آله لمّا اعتمر عمرهٔ القضيّهٔ تخوّف أقوام كانوا يطوفون بها فى الجاهليّهٔ... (۱) فهو- إذن- جاء ليصحّح لهم ما اختلّ فهمه عليهم وارتبک تفسيرهم له، ممّا جعلهم يتساءلون: أيصحّ السعى أو لا يصحّ، فيه إثم أو لا إثم فيه؟

فأصل السعى لم يتعرّض له هذا المقطع، فهو منسک ثابت وواجب لا ريب

۱- ۱ جامع البيان فى تفسير القرآن للطبرى ۲: ۲۷ تفسير الآيهٔ.

ص: ١٣٣

فيه وشعيرة مقدّسة من شعائر إبراهيم فى الحجّ والعمرة، فلا يمكن التحرّش فيه أو الخدشة فى وجوبه كجزء مهمٍّ من المناسك فضلًا عن إلغائه أو إنكاره أو تعطيله.

والمقطع الأوّل واضح فى هذا.

وكلّ الكلام هو كما يقال: لا إثم عليك إن صلّيت وأنت ترتدى ثوباً ذا لون أسود مثلًا، فلا نقاش فى الصلاة وفى أصل الصلاة وأنّها واجبة، وإنّما الكلام ينصبّ فقط على نفى الإثم عنك وأنت تصلّى فى الثوب الأسود.

ثمّ إنّ السعى منسك قديم قِدم الطواف، فما أن أتمّ إبراهيم عليه السلام رفع قواعد البيت، وكان معه ابنه إسماعيل، راح يؤذّن فى الناس بالحجّ ويؤدّى مناسكه، ومنها السعى بين جبلى الصفا والمروة، ووجود أساف ونائلة وهو وجود طارئ لابدّ له أن ينتهى، لا يشكّل أى مانع لطهارة هذا المنسك وقدسيّته، ولا يُعطّله، وهل يُعطّل الطواف بالبيت الحرام وجود الأصنام من حوله وما أكثرها؟!

ثمّ لو كان السعى مباحاً أو مندوباً- كما استفاده بعضهم- فلماذا هذا النزول السريع للآية؟

ولماذا هذا التوكيد، ونكران ونفى كلّ زعم على عدم منسكيّته أو التحرّج من أدائه، وهو ما يحمله المقطع الأوّل من الآية، ونفى أىّ حرج أو بأس وهو ما جاء به المقطع الثانى من الآية ما دام الأمر لا يتعدّى كونه مندوباً إليه أو لا يخرج عن كونه مباحاً؟!

هذا وأنّ التعبير ب «فلا جناح...» فى القرآن الكريم لا يعنى دائماً نفى الوجوب، وأنّه لا يُقال فى الامور الواجبة، وبالتالى فالأمر متروك للمكلّف، له أن يفعله وله أن يتركه، وإلّا فأين نحن من آية قصر الصلاة: فليس عليكم جُناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم... وهو ما عليه روايات أهل البيت عليهم السلام وآراء جمع من فقهائهم، وهو ما استفاده أيضاً أبو حنيفة من هذه الآية، والقصر عنده واجب كما هو فى أقوال فقهاء أهل السنّة؟

ص: ۱۳۴

مع روایات أهل البیت علیهم السلام

فعن أبی عبداللّه علیه السلام- فی حدیث قصر الصلاة- قال: أولیس قال اللّه عزّوجلّ:

إنّ الصفا والمروه من شعائر اللّه فمن حجّ البیت أو اعتمر فلا جُناح علیه أن یطوّف بهما ألا ترون أنّ الطواف بهما واجب مفروض؛ لأنّ اللّه عزّوجلّ قد ذکره فی کتابه، وصنعه نبیّه صلی الله علیه و آله؟

والروایة الاخری، فقد سئل أبو عبداللّه علیه السلام عن السعی بین الصفا والمروة فریضة أم سنّة؟

فقال: فریضة.

قلت (السائل): أو لیس قد قال اللّه عزّوجلّ: فلا جُناح علیه أن یطوّف بهما؟

قال علیه السلام: کان ذلک فی عمرة القضاء، إنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله شرط علیهم أن یرفعوا الأصنام من الصفا والمروة، فتشاغل رجل ترک السعی حتّی انقضت الأیّام واعیدت الأصنام فجاؤوا إلیه فقالوا: یارسول اللّه، إنّ فلاناً لم یسعَ بین الصفا والمروة وقد اعیدت الأصنام، فأنزل اللّه عزّوجلّ: فلا جُناح علیه أن یطوّف بهما أی وعلیهما الأصنام.

عن زرارة ومحمّد بن مسلم أنّهما قالا: «قلنا لأبی جعفر علیه السلام: ما تقول فی الصلاة فی السفر کیف هی؟ وکم هی؟

فقال: إنّ اللّه عزّوجلّ یقول: وإذا ضربتم فی الأرض فلیس علیکم جناحٌ أن تقصروا من الصلاة فصار التقصیر فی السفر واجباً کوجوب التمام فی الحضر.

قالا: قلنا: إنّما قال اللّه عزّوجلّ: فلیس علیکم جُناح ولم یقل: افعلوا، فکیف أوجب ذلک کما أوجب التمام فی الحضر؟

فقال علیه السلام: أولیس قد قال اللّه عزّوجلّ فی الصفا والمروة: فمن حجّ البیت أو اعتمر فلا جناح علیه أن یطوّف بهما؟ ألا ترون أنّ الطواف بهما واجب مفروض؛

ص: ۱۳۵

لأنّ اللَّه عزّوجلّ ذكره فى كتابه وصنعه نبيّه عليه السلام، وكذلك التقصير فى السفر شىء صنعه النبىّ صلى الله عليه و آله وذكره اللَّه تعالى ذكره فى كتابه..؟ (۱).

فهذا المقطع والتعبير الوارد فيه فلا جناح عليه لا يدلّ على نفى الوجوب الذى يتّصف به هذا المنسك، بل هو ينفى وهمهم أنّه محرّم.

مع بعض علماء الإماميّة

يقول البلاغى فى تفسيره: «فرفع توهّم التحريم بقوله لا جناح؛ لأنّها من شعائر اللَّه، وذلك لا ينافى الوجوب كما ثبت من السنّة وعليه إجماع الإمامية وأكثر الجمهور» (۲).

يقول العلّامة الطباطبائى فى تفسيره: فمن حجّ البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوّف بهما إنّما هو للإيذان بأصل تشريع السعى بين الصفا والمروة لا لإفادة الندب، ولو كان المراد إفادة الندب، كان الأنسب بسياق الكلام أن يمدح التطوّف لا أن ينفى ذمّه.

ثمّ واصل سماحته حديثه هذا قائلًا:

فإنّ حاصل المعنى أنّه لمّا كان الصفا والمروة معبدين ومنسكين من معابد اللَّه، فلا يضرّكم أن تعبدوه فيهما، وهذا لسان التشريع.

وأمّا بالنسبة إلى الندب فيقول سماحته:

ولو كان المراد إفادة الندب، كان الأنسب أن يفاد أنّ الصفا والمروة لمّا كانا من شعائر اللَّه، فإنّ اللَّه يحبّ السعى بينهما- وهو ظاهر- والتعبير بأمثال هذا القول الذى لا يفيد وحده الإلزام فى مقام التشريع شائع فى القرآن كقوله تعالى فى الجهاد: ذلكم خيرٌ لكم (۳)

، وفى الصوم: وأن تصوموا خيرٌ لكم (۴)

، وفى القصر: فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة (۵)

انتهى كلام العلّامة (۶).

هذا وأنّ ظاهر الآية يفيد الوجوب، وأيضاً الجزئية، وهو ما ذهب إليه الشيخ

۱- ۱ من لا يحضره الفقيه ۱: ۲۹۵ باب الصلاة فى السفر.

۲- ۲ آلاء الرحمن للبلاغى: ۱۴۱.

۳- ۳ الصف: ۱۱.

۴- ۴ البقرة: ۱۸۴.

۵- ۵ النساء: ۱۰۰.

۶- ۶ انظر الميزان فى تفسير القرآن، الآية، للعلّامة الطباطبائى.

ص: ۱۳۶

الفاضل اللنكرانى فى كتاب الحجّ، فبعد أن يقول: لا خلاف بين المسلمين فى وجوب السعى وكونه جزءاً من الحجّ والعمرة، يذكر قوله تعالى: إنّ الصفا والمروة من شعائر اللَّه فمن حجّ أو اعتمر فلا جُناح عليه أن يطوّف بهما... ثمّ يقول: وظاهره الوجوب والجزئية، والتعبير بقوله: لا جناح إنّما هو كالتعبير بمثله قصر الصلاة فى السفر (۱)، وهو ما ذهب إليه أيضاً صاحب كتاب الأمثل الشيخ مكارم الشيرازى فى تفسير الآية (۲)، وصاحب براهين الحجّ، المدنى الكاشانى (۳) وغيرهم.

المقطع الثالث

ومن تطوّع خيراً فإنّ اللَّه شاكرٌ عليم

هذا المقطع يلقى ضوءاً على أهمّية هذا المنسك واهتمام السماء به، وجاء تأييداً للمقطعين الأوّل والثانى وتفريعاً عليهما، حيث إنّ الآية لم تكتفِ بما قدّمته فى المقطعين من أنّه منسك وشعيرة إلهية ومن نفى الإثم عن أدائه ولو مع وجود الأسباب المذكورة عند القوم، راحت تقدّم عطاءً آخر للمؤمنين ترغيباً وتشجيعاً لهم للإكثار من هذا المنسك والاستزادة منه بعد أداء الواجب، فأجره عظيم وجزاؤه جليل، وكان التعبير عن هذا الأجر والجزاء بأنّ اللَّه شاكر عليم.. فقد أطلق الشكر وأراد به الجزاء بطريق المجاز مبالغةً فى الإحسان على العباد.

فإذا ما تظافرت هذه المقاطع الثلاثة يتّضح لنا شأن هذا المنسك وعلوّ قدره وأنّ وجود الأصنام أو عبادتها أو أنّه من شعائر الجاهلية أو لعزف الشياطين أو غيرها من الأسباب... لا- يضرّ بأهمّيته وأنّه عبادة اختارتها السماء وليس للساعى فى حجٍّ أو عمرةٍ إلّاإطلاق النيّة للَّه تعالى..

وختاماً فإنّ هذه الآية بمقاطعها الثلاثة ما جاءت لرفع وجوب السعى، أو تستبد له بالإستحباب أو بشىء آخر، وإنّماجاءت- إنلم نقل لإثبات وجوب السعى كما هو صريح بعض الروايات وأقوال جمع من الفقهاء- كما هو ظاهرها، إلى توكيد هذه الشعيرة المقدّسة والدفاع عن وجوبها وأنّها جزء من مناسك الحجّ والعمرة.

۱- ۱ تفصيل الشريعة فى شرح تحرير الوسيلة، كتاب الحج/ السعى ۵: ۹.

۲- ۲ الأمثل فى تفسير كتاب اللَّه المنزل ۱: ۳۸۰- ۳۸۱.

۳- ۳ براهين الحجّ.

ص: ۱۳۷

الهوامش:

ص: ۱۳۹

منهج الرشاد لِمَنْ أراد السَداد (۱)

منهج الرشاد لِمَنْ أراد السَداد (۱)

منهج الرشاد لِمَنْ أراد السَداد (۱)

رسالهٔ الإمام الشيخ جعفر كاشف الغطاء

إلى الأمير عبد العزيز بن سعود

تقديم وتحقيق: الدكتور جودت القزوينى

هذه الرسالهٔ حصيلهٔ مراسلهٔ بين شخصيّتين كبيرتين تمثّلتا بالشيخ جعفر كاشف الغطاء- زعيم الطائفهٔ الإماميهٔ فى عصره-، المتوفّى سنهٔ ۱۲۲۸ ه/ ۱۸۱۳ م، وبين الأمير عبد العزيز بن سعود- أحد قادهٔ الحركهٔ الوهابيّهٔ فى عهدها الأوّل-، المتوفّى سنهٔ ۱۲۱۸ ه/ ۱۸۰۳ م.

والسبب الذى دعا إلى تأليفها هو أنّ الأمير عبد العزيز كتب رسالهٔ إلى الشيخ كاشف الغطاء، انتقد فيها الممارسات التى يُطبّقها زوّار المراقد الدينيّهٔ المقدّسهٔ،- وهى حسب العقيدهٔ الوهابيهٔ تقارب الشرك فى مقام التوحيد- المبتنيهٔ على مفردات نظريهٔ مثل: الشفاعهٔ، والتوسّل، والاستغاثهٔ.

ولمعرفهٔ ما تنطوى عليه هذه الأوراق من مناقشهٔ وجدل يتحتّم فهم الظروف التى كانت سائدهٔ فى منطقهٔ الجزيرهٔ، والتى بدأت تؤثّر فى المناطق المحيطهٔ تأثيراً بالغاً وفعّالًا.

فقد كانت منطقهٔ الجزيرهٔ العربيّهٔ سياسياً واقعهٔ تحت نفوذ السيادهٔ

ص: ۱۴۰

العثمانية (عدا مسقط)، كما كان حال الدول الاخرى مثل: العراق، وبلاد الشام، ومصر. ولم تكن سيطرة الدولة العثمانية على هذه البلدان سيطرة فعلية حيث تكتفى من الولاة بتقديم المبالغ المناسبة دليلًا لخضوع الوالى لها.

وفى القرنين (الثانى عشر والثالث عشر الهجريّين/ الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديّين) بدأ النفوذ البريطانى يدخل منطقة الشرق لتأمين سلامة المواصلات التجارية بين الهند وانكلترا، ووصول بضائع شركة الهند الشرقية الانكليزية إلى موانئ الخليج.

وكانت إيران تحت سلطة الافشاريين بعد سقوط الدولة الصفوية سنة ۱۱۳۵ ه/ ۱۷۲۲ م.

وفى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى/ التاسع عشر الميلادى، أصبح نفوذ البريطانيين شبه منفرد فى المنطقة، لانشغال الدولتين الكبيرتين القاجارية والعثمانية بأوضاعهما الداخلية المضطربة والنزاعات المتكرّرة بينهما.

ففى هذا الوسط ظهرت الدعوة الوهابية، وامتدّت بتحالفٍ تمَّ عام ۱۱۵۷ ه/ ۱۷۴۴ م بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب والأمير محمد بن سعود على أن يكون صاحب السيف حارساً للدين وناصراً للسُنّة، وأن يستمرّ الداعية على العمل بدعوته الإسلامية الجديدة.

وقد اتّسعت الامارة فى عهد محمّد بن سعود (۱) فشملت أكثر (نجد) حيث تكرَّست فتوحاته على القرى المحيطة (بالدرعيّة) والتى نجح فى القضاء على زعاماتها المحلّية، ولم يبق خارجاً عن قبضته سوى مدن الرياض والاحساء والقصيم.

وقد حكم محمّد بن سعود عشرين عاماً حتّى وفاته سنة ۱۱۷۹ ه/ ۱۷۶۵ م

---

۱ - ۱ كانت إمارة آل سعود لا تتعدّى البلدتين أو الثلاثة فى زمن أبيه سعود بن محمد بن مقرن، وقد اتّسعتالفتوحات بعد تولّى محمّد بن سعود الزعامة سنة ۱۱۳۹ ه/ ۱۷۲۷ م.

ص: ۱۴۱

حيث تولّى الحكم بعده ولدُهُ عبد العزيز.

أمّا ولدُه (المُعنى بهذه الرسالة) عبد العزيز بن محمّد بن سعود، فقد حكم (۳۹) عاماً، وخلال هذه الفترة الزمنيّة اتّسعت فتوحاتُهُ اتساعاً امتدَّ بسلطانه من شواطئ الفرات إلى رأس الخيمة وعُمان، ومن الخليج الفارسى إلى أطراف الحجاز وعسير.

إنّ العلاقة (الوهابية- الاثنا عشرية) مرّت بمرحلتين:

الأولى: فى حياة شيخ الوهابية محمد بن عبد الوهاب حتّى وفاته عام ۱۲۰۶ ه/ ۱۷۹۲ م.

الثانية: ما بعد رحيل الإمام محمد بن عبد الوهاب، أى خلال مرحلة حكم الأمير عبد العزيز بن سعود (۱۲۰۶ ه- ۱۲۱۸ ه).

ففى المرحلة الأولى لم تشهد المدن المقدّسة الشيعيّة أىّ هجوم وهابى.

والسبب يعود- كما ذكر صاحب العبقات- إلى علاقة الشيخ جعفر الطيّبة مع الشيخ محمد بن عبد الوهّاب. وبالرغم أنّ المصادر التأريخية لم تُشِر إلى علاقة كهذه سوى ما ذُكر فى (العبقات) فإنَّ سياق الأحداث التأريخية يؤكّد وجود علاقة بين الطرفين، ربّما امتدّت منذ إقامة الشيخ محمد بن عبد الوهاب أيّام دراسته فى بغداد، وبقيت حتّى تولّى الشيخ كاشف الغطاء زعامة الطائفة الإمامية.

أمّا المرحلة الثانية- والتى تبدأ بعد وفاة الشيخ محمد بن عبدالوهاب-، فإنّها اتّسمت بالحوار الدبلوماسى فى ستيّها الأولى، لكنّها لم تستمرّ على هذه الوتيرة بعد الغزو الوهابى لمدينة كربلاء عام ۱۲۱۶ ه، وإحلال الدمار والقتل فيها.

وتتجلّى أهمّية هذا الحوار فى المراسلات التى دارت بين الأمير عبد العزيز بن سعود والشيخ كاشف الغطاء، حيث كتب الأمير عبد العزيز

ص: ۱۴۲

رسالة (نقل قسماً من مضامينها كاشف الغطاء) وردّ عليها برسالة أشبه ما تكون بالمناقشة الشاملة لما ورد من الشبهات التى أُثيرت حول الفكر الإمامى، وممّا لم يرد منها أيضاً.

قد تميّز منهج كاشف الغطاء فى رسالته بسمات، أهمّها:

۱- امتازت الرسالة بالموضوعيّة والصدق والواقعية وغزارة المعرفة، وقوّة الاستدلال؛ حيث نهج مؤلّفها منهجاً عقلانياً متكاملًا ردَّ فيه المنطق بالمنطق، والحجّة بالحجّة والبرهان، ممّا جعلها- على رغم أنّها نافت على القرنين من الزمن- رسالةً فتيةً ما زالت حجّيتها قائمة، طريّة الأفكار، متينة المبانى، عذبة المحاججة وخالية ممّا اعتاد عليه المؤلِّفون فى مثل هذه الميادين من الخروج عن ذريعة العلم إلى ذرائع اخرى لا تتّصل إلى نهج المعرفة بصلة.

۲- يبدو أنّ كاشف الغطاء كان يدرك أنّ الفتوحات الجديدة تهدّدُ أمن المنطقة بشكل عام، وستصل إلى العراق لضعف السلطة الحاكمة فيه، وانشغالها بالمشاكل الداخلية وغيرها؛ لذلك كان حديثه فى الردّ حديثاً حاول من خلاله إقناع عبد العزيز بن سعود- بما استطاع من إمكانات- بالرجوع عن معتقداته الدينيّة، والتخلّى عن نظريته المذهبية التى اعتنقها وتبنّاها- على فرض الإمكان- أو احترام وجهات النظر المتغايرة- على فرض آخر- لذلك كان خطابه إليه خطاباً يُشعر أنّه خطاب صادر من سلطة دينيّة عُليا إلى سلطة قتالية عُليا.

وبالرغم من احترامه المتزايد للأمير الفاتح، إلّاأنّ (رسالته) لم تخلُ من واقعيّة فى التعامل مع هذا الأمير، فقد حدَّثه فيها باللغة المباشرة التى يفهمها هذا الأمير العربى. وكان يعزو تبنّيه للمذهب الوهابى إلى عدم خبرته فى اختيار المذهب الذى عليه أن يتبنّاه ويناضل من أجله،

ص: ۱۴۳

بسبب ضآلة معرفته الفكرية.

۳- تناولت الرسالة ردّاً للشبهات التی نشرها الوهابیّون، وقد رتّبها علی مقدّمة وفصول ومقاصد، وکان لا یملُّ من تکرار کلمة «أخی»، و «أقسم علیک»- نهایة کلّ موضوع- بعد بیان النتیجة التی یتوصّل إلیها بعد إیراده جملة من الأحادیث النبویّة لعلّ ذلک یکون سبباً لمراجعة المُعتقد من جدید.

۴- استخدم فی طیّات رسالته أسلوب الموعظة، وإلفات النظر إلی أنّ النفوذ الدنیوی مهما بلغ فإنّه سیؤول إلی الزوال. وقد أطنب فی اختیار بعض المرویّات المتعلّقة بنهایة الإنسان وفنائه فی الفصل الثالث، تحت عنوان أی حیاة سائر الموتی.

۵- نسب کاشف الغطاء نفسه فی رسالته هذه إلی أنّه من تلامذة مدرسة (بغداد). وقد ذکر محمّد حسین کاشف الغطاء أنّ الشیخ جعفراً أراد بذلک أن یظهر بمظهر أهل السُنّة؛ لیتوصّل إلی أهدافه، ویُقلع عبد العزیز عمّا هو علیه. ولم یکن هذا الرأی موافقاً للصواب لعلم الأمیر عبد العزیز بهویّة کاشف الغطاء، ومخاطبته الصریحة فی رسالته التی انتقد فیها زوّار قبر الإمام علیّ فی النجف.

ویمکن الاستنتاج أنّ العلاقة التی یشیر إلیها صاحب (العبقات) نفسه بین الشیخ کاشف الغطاء وابن عبد الوهاب، یمکن أن تکون ممتدّة إلی أیّام تتلمذ الشیخ محمد بن عبد الوهاب علی ید شیوخ الحنابلة البغدادیّین. فأراد کاشف الغطاء أن یظهر أمام عبد العزیز بن سعود أنّه بمنزلة شیخه، الذی نهض بأعباء الدفاع عن فکره ونشر معتقداته بالقوّة.

۶- لمّا کان المذهب الوهابی یعتمد علی صحاح الأحادیث السُنّیة، فقد

ص: ۱۴۴

التزم كـاشف الغطـاء فى نقـل أحـاديثه ومناقشـاته على الصـحاح فقـط، ولم يتطرّق إلى غيرها من كتب الحـديث. كما نقل أقوال كبار علماء السُنّة فى بحثه، ولم يتطرّق إلى كتب الحـديث الشـيعيّة سوى ما نقله فقط عن كتاب الاحتجاج للشـيخ الطبرسـى فى حديث عام يتّصل بالمجادلة بين النبىّ محمّد صلى الله عليه و آله وبعض المناوئين له من العصر الجاهلى.

۷- كُتبتْ هـذه الرسالة فى سـنة ۱۲۱۰ ه/ ۱۷۹۵ م، أى فى حياة العلّامـة السـيّد مهـدى بحر العلوم الـذى تُوفى سـنة ۱۲۱۲ ه/ ۱۷۹۷ م. وكانت المرجعيـة فى هـذه المرحلـة مقسَّمـة بين عـدد من المجتهدين، حيث تخصّص بحر العلوم بالتدريس، وكاشف الغطاء بالزعامة والفُتيا، والشـيخ حسـين نجف بالصلاة جماعة، ممّا يُبرهن على انحصار مرجعيّةالتقليد السياسيّة والدينيّة فى شخص كاشف الغطاء دون غيره من المجتهدين الكبار من طبقته.

لقـد كان الشـيخ كاشف الغطاء مدركاً المتغيّرات السياسيّة، والصـراع القائم بين القوى المتنازعة على الخليج، فحاول أن يُظهر النجف مركزاً مستقلّاً عن مدار صراعات دول المنطقة، وأن يجنّب المرجعية الدينيّة العليا من الدخول فى هذا الصراع.

ومن هنا يمكن تفسـير العلاقـة الودّيـة التى أقامها مع شـيخ الوهابية بالمكاتبة مرّة، وبتقديم الهدايا مرّة اخرى، ونجاحه فى حفظ الكيان الشيعى بعيداً عن المتغيّرات السياسية التى شهدتها المنطقة.

وبمقـدار النجـاح الـذى حقّقه كـاشف الغطـاء مع الشـيخ عبـد الوهاب، فإنّه أراد أن ينحو المنحى نفسه مع وريثه الأمير عبـد العزيز بن سعود، وهو وإن نجـح فى تحييـده قرابـة العقـد من الزمن، إلّاأنّ ذلك لم يمنع ابن سـعود من غزو مدينة كربلاء المقدّسة عام ۱۲۱۶ ه، ونهب (الكنوز)

ص: ۱۴۵

المودعة فی حرم الإمام الحسین بن علی علیهما السلام، وقتل أهالی البلدة قتلة مأساویة شنعاء.

إنّ الهجوم الوهابی علی (کربلاء) عام ۱۲۱۶ ه، لم یکن مستهدفاً الشیعة بمقدار ما کان یهدف إلی إحلال الفوضی فی الامبراطوریة العثمانیة، وتهدید سلامتها وسرقة الخزائن التی ملأها ملوک الهند والفرس بنفائس الجواهر فی النجف وکربلاء.

وبعد واقعة کربلاء عام ۱۲۱۶ ه/ ۱۸۰۱ م أحسَّ کاشف الغطاء بضرورة تحصین النجف، وتعبئة الأهالی للدفاع عنها. فتهیّأت لذلک مراکز تدریب قتالیة خارج البلدة یشرف علیها کاشف الغطاء بنفسه. کما تمَّ تعیین عدد من المقاتلین للحراسة، وتنظیم المجامیع الاخری؛ للتصدّی للغزو الخارجی من وراء الأسوار (۱).

وقد فشلت جمیع الهجمات الوهابیة الخمسة التی تکرّرت علی النجف، والتی کان أعنفها الهجمة التی حدثت أواخر عام ۱۲۱۸ ه/ ۱۸۰۳ م حیث دافع النجفیّون دفاعاً عنیفاً، ولم تستطع القوّة الغازیة من اقتحام المدینة.

وفی عام ۱۲۲۱ ه/ ۱۸۰۶ م تعرّضت النجف لغارة مفاجئة، إلّاأنّ ثقة النجفیّین بممارساتهم القتالیة وتحصّنهم بالأسوار والأسلحة، جعلهم یتغلّبون هذه المرّة علی القوّة المهاجمة بسهولة.

«منهج الرشاد»- النسخة الخطّیة

وهی نسخة مکتوبة فی حیاة المؤلّف وقریبة لزمن التألیف، کتبها العلّامة الشیخ قاسم الدلبزی سنة ۱۲۱۰ ه/ ۱۷۹۵ م، وعلیها تعلیقٌ له.

وهذه النسخة- کما یظهر- مطابقة للأصل تمام المطابقة، سلیمة العبارة صحیحة، وهی تتکوّن من (۵۵) صفحة، کلّ صفحة تحتوی

۱- ۱ انتدب کاشف الغطاء الصدر الأعظم محمّد حسین خان وزیر فتح علی شاه ببناء سور محصّن للمدینة، وفعلًا فقد بدأ العمل ببنائه سنة ۱۲۱۸ ه/ ۱۸۰۳ م، واستمرّ العمل فیه ما یقارب العقد من الزمن، فأصبحت النجف بسببه بلدة محصّنة یصعب اقتحامها حیث تضمّن خندقاً عمیقاً وأبراجاً ومراصد، ومخافر، وجُعلت فی طبقاته منافذ مختلفة لوضع فوهات المدافع والبنادق.

ص: ۱۴۶

على (۲۳) سطراً عدا الصفحة الاولى، ويتكوّن السطر الواحد- غالباً- من (۱۲) كلمة.

أمّا ناسخُها العلّامة الدلبزى فهو من العلماء المجهولين الذين اختفى تراثهم، ويبدو أنّه من تلامذة المؤلّف كاشف الغطاء، والسيّد مهدى بحر العلوم، كما يظهر من بعض المخطوطات أنّه كان حيّاً سنة ۱۲۳۱ ه/ ۱۸۱۶ م. واستظهر بعضهم أنّه مات بالطاعون سنة ۱۲۴۷ ه/ ۱۸۳۱ م.

وولده الشيخ حسين الدلبزى المتوفى بالطاعون أيضاً سنة ۱۲۴۷ ه من العلماء المشهود لهم بالفضل، وغزارة العلم، والأُدباء الكبار، الذين احتفظت المجاميع الأدبية بنماذج من قصائدهم البليغة الجزلة.

وعلى هذه النسخة (تملُّك) جملة من الأعلام منهم: الشيخ سليمان العاملى، والسيّد صدر الدين الصدر (صهر المؤلّف)، والعلّامة السيّد عبداللّه بن محمد رضا شبّر، والشيخ محمد رضا بن على بن محمد جعفر الاسترابادى (وهى من مقتنيات مكتبة آية اللّه العظمى المرعشى النجفى، برقم ۳۸۹۲ من تعداد الكتب الخطّية).

النسخة المطبوعة

أمّا النسخة الثانية فهى نسخة طُبعت بالمطبعة الحيدرية فى النجف فى شهر شعبان سنة ۱۳۴۲ ه/ ۱۹۲۴ م، باهتمام العلّامة السيّد عبّاس التبتى، وتقع فى (۸۲) صفحة.

وعلى صفحتها الاولى كُتبَ هذا النصّ: «كتاب منهج الرشاد لمن أراد السداد من تأليف واحد الدهور، ونادرة العصور، أفضل الربّانيّين، وأعظم أساطين الدين، شيخ الطائفة الشيخ الأكبر (الشيخ جعفر النجفى) عطّر اللّه مرقده، صاحب كتاب كشف الغطاء، وشرح القواعد، والحقّ المبين، وغيرها من المؤلّفات الشهيرة، المُتوفّى فى رجب سنة

ص: ۱۴۷

ثمانية وعشرين بعد الألف والمائتين هجريّة.

كتبه بعنوان جواب مكتوب، كتبه إليه بعض امراء (نجد) من أبناء سعود الذين هم الدُّعاة إلى مذهب الوهابيّة. وهو كتابٌ جليل لم يُكتب مثله في هذا الباب.

وكان طبعه ونشره باتّفاق حضرة حجّة الإسلام، ومرجع الأنام، وحيد الناس، سيّدنا الأجلّ الحاجّ سيّد عبّاس التبتى مُدّ ظلّه العالى. طُبعت بمطبعة (الحيدرية) فى النجف الأشرف سنة ۱۳۴۳ ه».

وقد ذكر الطهرانى أنّ منهج الرشاد هو أوّل كتاب كُتبَ فى الردّ على الوهابيّة، ووصفه بأنّه حوى حقائق علمية وحججاً دامغة.

أمّا العلّامة الأمين فذكر أنّ هذه الرسالة هى أوّل رسالة كتبت فى هذا الموضوع (إلّا أن يكون سبقها كتاب سليمان بن عبد الوهاب أخى محمّد ابن عبد الوهاب). وامتدح مؤلّفها وقال: «إنّها حوت كثيراً ممّا لم يحوه بعضُ ما تأخّر عنها، فهى من مفاخر ذلك العصر».

جواب الأمير عبد العزيز بن سعود

عند وصول الرسالة إلى الأمير عبد العزيز بن سعود، كتب إلى مؤلّفها الشيخ جعفر كاشف الغطاء هذه الرسالة المختصرة، وهذا نصّها:

يصل الخط إن شاء اللَّه إلى عبد اللَّه جعفر

راعى «المشهد»

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

وبه نستعين

السلام التام، والتحيّة والإكرام، يُهدى إلى سيّد الأنام، محمّد عليه من اللَّه أفضل الصلاة والسلام، ثمّ ينتهى إلى جناب الأجلّ الأكرم عبداللَّه جعفر سلّمه اللَّه من كلّ شرّ، وأسكنه يوم القيامة جنّة المُستقرّ، وأعاذه من

ص: ۱۴۸

عذاب النار الذی یحذر.

أمّا بعد: فوصل کتابک، وفهمنا ما تضمّنه من خطابک، وما ذکرت أنّه بلغک عنّا من حُسن الطریقة، واستقامة السیرة من الصلاة والزکاة، والصیام، والحجّ، وغیر ذلک من شرائط الإسلام، فالحمد للّهالذی هدانا للإسلام، وجنّبنا من عبادة الأصنام، حمداً کثیراً طیّباً مبارکاً فیه، کما یُحبُّ ربُّنا ویرضی، وکما ینبغی لکرم وجهه وعزِّ جلاله.

الصفحتان الأولی والأخیرة من مخطوطة «منهج الرشاد»

ص: ۱۴۹

منهج الرشاد لمن أراد السداد

مقدّمة المؤلّف

الحمد للَّهالذى تفرّد بالأزلية والقِدم، واشتقّ نور الوجود من ظلمة العدم، أسّس قواعد الشرع على وفق المصالح والحكم، وفضّل أُمّة محمّد صلى الله عليه و آله على سائر الامم، وأنزل القرآن فيه آيات محكمات هنّ امّ الكتاب وأُخر متشابهات، وحذّر عن اتّباع الملاذ والشهوات، وأمر بالوقوف عند الشبهات، وأنذر عن متابعة الآباء والامّهات، والصلاة والسلام على من قدَّمه على جميع أنبيائه، وفضّله على كافّة أصفيائه، (محمّد) المختار، صلّى اللَّه عليه وعلى آله، ما أظلم ليل، وأضاء نهار.

أمّا بعد: فقد ورد- إلى المقصّر مع ربّه، التائب إليه من ذنبه، الطالب من اللَّه السداد، (جعفر) أقلّ طلبة أهل (بغداد)- كتاب كريم، مشتمل على كلمات كالدرّالنظيم، ممّن لم يزل بالمعروف آمراً، وعن المنكر ناهياً زاجراً، الآمر بعبادة المعبود، الشيخ عبد العزيز بن سعود (۱). فلمّا نظرته وتدبّرته وتأمّلته وتصوّرته، خلوتُ فى زاوية من الدار، وتصفّحته تصفّح الإنصاف والاعتبار. وقلت متّهماً لنفسى بالميل إلى العصبية والعناد، والركون إلى ما عليه الآباء والأجداد: يا نفس اعرفى قدر دنياك، واحذرى شرّ من أغوى أباكِ، لقد تخلّيت عن نعيم الدنيا بحذافيرها، وقنعت بقليلها، ولو بقرص شعيرها، وتجنّبت دار العزّة والوقار، واخترتِ العزلة والخمول فى هذه الديار.

فلو كنتِ فى كبار البلدان، من ممالك بنى (عثمان)، أو فى بعض بلدان فارس وإيران، لجاءت إليك الدنيا من كلّ جانب ومكان، ونلتِ من النعيم ما لم ينله إنسان، فاحذرى أن تكونى مع الإعراض عن هذه النعم الفاخرة، ممّن قد خسر الدنيا والآخرة.

۱- ۱ عبد العزيز محمد بن سعود أمير آل سعود فى دولتهم الاولى، ولد سنة ۱۱۳۲ ه/ ۱۷۲۰ م، وولّى بعد وفاةأبيه عام ۱۱۷۹ ه/ ۱۷۶۵ م، وكانت عاصمة حكمه الدّرعية بنجد، واتّسعت الفتوحات فى أيّامه، وامتدّ مُلكه من شواطئ الفرات إلى رأس الخيمة وعُمان، ومن الخليج الفارسى إلى أطراف الحجاز وعسير.

اغتاله رجلٌ من أهل العمادية من ديار الجزيرة فى جامع الدرعية سنة ۱۲۱۸ ه/ ۱۸۰۳ م. الأعلام للزركلى ۴: ۲۷.

ص: ١٥٠

فلمّا شـممتُ منها رائحـة التصـفية، ورأيت أنّ نسبـة المـذاهب- لولا اللَّه عندها- على التسوية، وجّهتها إلى الكشف عن حقيقة الجواب عن الشُبهِ الموردة فى ذلك الكتاب، ورأيت أن أشرح فى الحال رسالةً على وجه الاختصار، مستمّداً من فيض الواحد القهّار، وسمّيتها «منهج الرشاد لمن أراد السداد».

فـاقسم عليـك- بمن جعلـك متبوعـاً بعـد أن كنت تابعـاً، ومطاعاً بعـد أن كنت لغيرك مطيعاً سامعاً، وأعزّك بعـدما كنت ذليلًا، وكثّر جمعـك بعـدما كان نزراً قليلًا- أن تنظر ما رسـمته سـطراً سـطراً، وتمعن فى تحقيق ما رقمته نظراً وفكراً، متوحشاً من الناس وقت النظر، متحـذِّراً من النفس الأمّارة كلّ الحـذر، طالباً من اللَّه كشف الحقيقة، سالكاً فى المناظرة واضح الطريقة، فلعلّه يظهر أنّه ليس بيننا نزاع، فنحمد اللَّه على الاتّفاق والاجتماع. وقد رتّبتها على مقدّمة، ومقاصد، وخاتمة.

أمّا المقدّمة، فتشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأوّل

فى أنّ الأفعال والكلمات تختلف باختلاف المقاصد والنيّات

فمن قـال: يـد اللَّه، وعين اللَّه، وجنب اللَّه، وأراد الجـوارح على نحـو مـا فى الأجسـام، أو قـال: إنّ اللَّه على العرش اسـتوى، أو فى جهة الفوق، وأراد الحلول والاختصـاص التامّ، أو أسـند الرحمـة إليه، أو الغضب، وأراد رقّة القلب، أو ثوران النفس على نحو ما يعرف بين الأنام، أو أسند الرزق إلى المخلوق، أو دعاه، أو استغاث به على نحو ما يسنده إلى الملك العلّام، كان خارجاً عن مقالة أهل الإسلام.

وأمّا من قصد بها معانى اخر، فليس عليه من بأس ولا ضـرر. وليس هذا كصـنيع المشركين، فإنّ الفرق ظاهر، كما سنبيّنه كمال التبيين، فالمستغيث بالمنسوب مستغيث بالمنسوب إليه، والمستجير بالمكان مستجيرٌ بمن سلطانه عليه.

فمن أراد الاستجارة والاستغاثة ب (زيد) فله طريقان:

أحدهما: أن يهتف باسمه.

ص: ۱۵۱

وثانيهما؛ أن ينادى بصفاته، أو مكانه، أو خدمه.

وثانيهما أقربُ إلى الأدب، وأرغب لطباع أرباب الرُتب، فلا يكون المستغيث ببيت اللَّه، أو بصفات اللَّه، أو برسل اللَّه، أو المقرّبين عند اللَّه، إلّا مستغيثاً باللَّه؛ فكلّما دعا مخلوقاً مقرّباً عند اللَّه، أو استغاث به قاصداً بحسن التعبير الاستغاثة باللطيف الخبير، فليس عليه بأسٌ فى ذلك، بل هو سالكٌ فى الآداب أحسن المسالك.

وكذلك من أسند تلك الأشياء لمجرّد الربط الصورى، لا على قصد التأثير الحقيقى، كما يقال: «أنبتَ الربيعُ البقل»، والمُنْبِتُ هو اللَّه، و «بنى الأميرُ القصرَ»، والبانى ظاهراً بناه (۱).

فإطلاق (السيّد) و (المالك) على غير اللَّه، «وإضافة (العبد) و (المملوك) فى الأحرار إلى غير اللَّه» (۲)، إن اريد بها الملكية الحقيقيّة، كان خروجاً عن الطريقة الشرعية، وإلّا لم يكن فى ذلك بأسٌ بالكلّية.

ولهذا ورد فى الأخبار النبويّة إطلاق (السيّد) على غير اللَّه.

روى أبو هريرة (۳) عن النبىّ صلى الله عليه و آله أنّه قال: أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة (۴).

وعن أبى سعيد الخدرى (۵) عن النبىّ صلى الله عليه و آله أنّه قال: الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنّة (۶).

وعن علىّ عليه السلام، عن النبىّ صلى الله عليه و آله أنّه قال:

أبو بكر وعمر سيّدا كهول أهل الجنّة (۷).

وعن فاطمة عليها السلام: أنّ النبىّ صلى الله عليه و آله أخبرنى أنّى سيّدة نساء العالمين، رواه الترمذى (۸).

وروى أبو نعيم الحافظ، قال: قال النبىّ صلى الله عليه و آله: ادعوا لى سيّد العرب عليّاً.

وفى حلية الأولياء أنّه قال النبىّ صلى الله عليه و آله لعلىّ: مرحباً بسيّد المؤمنين (۹).

وعن أبى بكرة عن النبىّ صلى الله عليه و آله أنّه قال للحسن: إبنى هذا سيّد (۱۰)(۱۱).

وعن عائشة (۱۲) عن النبىّ صلى الله عليه و آله أنّه سار ابنته الزهراء، فقال لها: أما ترضين أن تكونى سيّدة نساء العالمين، أو نساء المؤمنين (۱۳)؟

وروى ذلك عن الصحابة أيضاً، فعن جابر (۱۴) أنّ عمر كان يقول: أبو بكر سيّدنا، وأعتقَ سيّدنا، (يعنى: بلالًا)،

۱- ۱ فى المطبوع: سواه.

۲- ۲ لا توجد فى المخطوطة.

۳- ۳ أبو هريرة: عبد الرحمن بن صخر الدوسى اليمانى، تُوفى سنة ۵۷ ه/ ۶۷۷ م فى المدينة.

۴- ۴ سنن الترمذى كتاب المناقب حديث ۳۵۴۸؛ وصحيح مسلم كتاب الفضائل حديث ۴۲۲۳؛ ومسند أحمد باقى مسند المكثرين، حديث ۱۰۵۴۹؛ وسنن ابن ماجة، كتاب الزهد، باب ۳۷؛ سنن الدارمى، المقدّمة، باب ۸.

۵- ۵ أبو سعيد الخدرى: سعد بن مالك بن سنان الخدرى الأنصارى، تُوفى فى المدينة سنة ۷۴ ه/ ۶۹۳ م، وهو من الصحابة، ورتبهم أسمى مراتب العدالة والتوثيق.

۶- ۶ سنن الترمذى كتاب المناقب، حديث ۳۷۰۱، ۳۷۱۴؛ وابن ماجة المقدّمة، حديث ۱۱۵؛ ومسند أحمد باقى مسند المكثرين، حديث ۱۰۵۷۶، ۱۱۱۶۶، ۱۱۱۹۲، ۱۱۳۵۱. ورواه أيضاً فى باقى مسند الأنصار، حديث ۲۲۲۴۰، ۲۲۲۴۱.

۷- ۷ سنن الترمذی کتاب المناقب، حدیث ۳۵۹۷، ۳۵۹۹. ومثله حدیث ۳۵۹۸؛ وسنن ابن ماجة المقدّمة، حدیث ۹۲، ۹۷؛ ومسند أحمد بن حنبل مسند العشرة المبشَّرین بالجنّة، حدیث ۵۶۸.

۸- ۸ سنن الترمذی، حدیث رقم ۳۸۲۸.

۹- ۹ حلیة الأولیاء ۱: ۶۶.

۱۰- ۱۰ البخاری کتاب المناقب، حدیث ۳۳۵۷، ۳۴۶۳. وکذلک رواه فی کتاب الصلح، حدیث ۲۵۰۵؛ والترمذی کتاب المناقب، حدیث ۳۷۰۶.

۱۱- ۱۰ البخاری کتاب المناقب، حدیث ۳۳۵۷، ۳۴۶۳. وکذلک رواه فی کتاب الصلح، حدیث ۲۵۰۵؛ والترمذی کتاب المناقب، حدیث ۳۷۰۶.

۱۲- ۱۱ عائشة بنت أبی بکر التیمیّة، امّ المؤمنین، تُوفیت فی المدینة سنة ۵۸ ه/ ۶۷۸ م.

۱۳- ۱۲ صحیح البخاری کتاب المناقب، حدیث ۳۳۵۳؛ وصحیح مسلم فضائل الصحابة، حدیث ۴۴۸۶، ۴۴۸۸؛ والترمذی کتاب المناقب، حدیث ۳۸۰۷؛ وسنن ابن ماجة ما جاء فی الجنائز، حدیث ۱۶۱۰؛ ومسند أحمد باقی مسند الأنصار، حدیث ۲۳۳۴۳، ۲۴۸۲۹، ۲۵۲۱۰.

۱۴- ۱۳ جابر بن عبداللَّه بن عمرو الأنصاری، صحابی، أقام فی المدینة، وتُوفی فیها سنة ۷۸ ه/ ۶۹۷ م.

ص: ۱۵۲

رواه البخاری (۱).

وعن أبی بکر رضی الله عنه أنّه قال: أتقولون:

هذا شیخ قریش وسیّدهم؟ (۲).

وعن عائشهٔ عن النبیّ صلی الله علیه و آله أنّه قال:

أنا سیّد ولد آدم، وعلیّ سیّد العرب.

وروی عن النبیّ صلی الله علیه و آله: أنّ سادات النساء أربعهٔ: خدیجهٔ، وفاطمهٔ، وآسیهٔ، ومریم.

وعن علیّ علیه السلام: أنا سیّد البطحاء.

إلی غیر ذلک ممّا یزید علی التواتر.

فالجمع بین ذلک وبین ما روی فی الکتب المعتبرهٔ أنّه جاء وفدٌ إلی النبیّ صلی الله علیه و آله، فقالوا: أنت سیّدنا، فقال: السیّد اللّه (۳). باختلاف القصد فی معنی (السیّد).

وکذا ما وردَ من المنع من قول السیّد عبدی وأَمَتی، فقول العبد لمولاه ربّی، مع وجود ذلک فی کلام یوسف (۴).

وکذلک الاستغاثهٔ بغیر اللّه، إن أُرید بها الصورهٔ، أو من باب استغاثهٔ العبد بقصد المعبود، فلا بأس بها، وعلی ذلک قوله تعالی: فَاسْتَغاثَهُ الّذی مِنْ شیعَتِهِ عَلَی الّذی مِنْ عَدُوِّه (۵)

وکذا قوله یَسْتَصْرِخُهُ (۶).

وکذلک إطلاق الربّ فی بعض المعانی علی غیر اللّه کفر، مع أنّ الصدِّیق یوسف علیه السلام قال: اذْکُرْنِی عِنْدَ ربِّکَ (۷)

، وکذلک طلب الرزق من غیر اللّه علی وجه الحقیقهٔ کفر، وقال اللّه تعالی: وَارْزُقُوهُمْ فِیها وَاکْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفاً (۸) وقولُهُ:

یا أَیُّها الْعَزِیزُ مَسَّنا وَأَهْلَنَا الضُرُّ (۹)

، ونحوه اسْتَطْعَما أَهْلَهَا (۱۰).

ومن ذلک قول القائل: لولا (فلان) لکان (کذا) فإن أراد أنّه الفاعل المختار، دخل فی أقسام الکفر، وإن أراد العلیّهٔ الصوریهٔ بمجرّد رابطهٔ جزئیهٔ، لم یکن علیه بأس بالکلّیهٔ.

ولذلک ورد عن سیّد الأنام أنّه قال:

لولا قومک حدیثو عهد بالإسلام لهدمتُ الکعبهٔ (۱۱).

وعن سفیان الثوری أنّه قال: لولا هذه الدنیا لکان الملوک صعالیک.

وعن عمر أنّه قال لعلی علیه السلام لمّا أشار علیه بعدم أخذ حلی الکعبهٔ: لولاک لافتضحنا.

وعن النبیّ أنّه قال لعلیّ: لولا أن

۱- ۱ صحیح البخاری، باب مناقب بلال بن رباح ۴: ۲۱۷، حدیث رقم ۳۴۷۱؛ وسنن الترمذی، کتاب المناقب، حدیث ۳۵۸۹.

۲- ۲ صحیح مسلم باب فضائل سلمان، وصُهیب، وبلال ۴: ۱۹۴۷.

۳- ۳ سنن أبی داود کتاب الأدب، حدیث ۴۱۷۲؛ ومسند أحمد مسند المدنیّین، حدیث ۱۵۷۱۷، ۱۵۷۲۶. وجاء فیه «أنت سیّد قریش،

فقال النبیّ صلی الله علیه و آله: السیّد اللَّه».

۴- ۴ إشارهٔ إلی قول یوسف علیه السلام: قال معاذ اللَّه إنّه ربّی أحسنَ مثوای- سورهٔ یوسف، الآیهٔ ۲۳- وقوله أیضاً: فلمّا جاءه الرسول قال ارجع إلی ربّک فاسأله ما بال النسوهٔ اللاتی قطّعنَ أیدیهنَّ- یوسف، الآیهٔ ۵۰-.

۵- ۵ سورهٔ القصص: ۱۵.

۶- ۶ سورهٔ القصص: ۱۸.

۷- ۷ سورهٔ یوسف: ۴۲.

۸- ۸ سورهٔ النساء: ۵.

۹- ۹ سورهٔ یوسف: ۸۸.

۱۰- ۱۰ سورهٔ الکهف: ۷۷.

۱۱- ۱۱ عن عائشهٔ، قالت: قال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: «یا عائشهٔ لولا أنّ قومَک حدیثو عهد بشرک لهدمتُ الکعبهٔ، فألزقتُها بالأرض». صحیح مسلم کتاب الحجّ، حدیث ۲۳۷۰؛ والبخاری کتاب العلم، حدیث ۱۲۳. وکذلک رواه فی کتاب الحجّ:- حدیث عهدهم بالجاهلیهٔ- حدیث ۱۴۸۰، ۱۴۸۳.

ص: ۱۵۳

تقول الناس فیک ما قالت النصاری لقلتُ فیک مقالًا.

وورد فی صحیح الأثر، عن الفاروق عمر أنّه قال: «لولا علیٌّ لهلکَ عُمر».

ولم ینکر علیه أحدٌ من الصحابة، إلی غیر ذلک.

وکذا الحلف بغیر اللَّه إن ارید به الحلف علی جهة إثبات الدعوی، کان خارجاً عن الشریعة، وإلّا لم یکن قسماً علی الحقیقة.

والحدیث الذی فیه: «من حلف بغیر اللَّه، فقد أشرک» (۱) محمول علی حقیقة الحلف، وسیجیء تفصیله فی المقصد الخامس.

وکذلک إطلاق الید، والرِجل، والقدم، وغیر ذلک بالنسبة إلی اللَّه علی الحقیقة، لا یُوافق الطریقة من غیر تأویل، لم یتوهّمه سوی نزر قلیل.

مع أنّه روی أبو هریرة عن النبیّ صلی الله علیه و آله: أنّ النار لا تمتلئ حتّی یضع اللَّه رجله فیها (۲). وعن أنس عن النبیّ صلی الله علیه و آله: أنّ النار لا تمتلئ حتّی یضع اللَّه قدمه فیها (۳).

ومن ذلک نسبة الضحک والعجب إلی اللَّه تعالی، فإنَّ إرادة الحقیقة بعیدة عن الطریقة؛ مع أنّ أبا هریرة روی عن النبیّ صلی الله علیه و آله أنّه قال: لقد عجب اللَّه، أو ضحک اللَّه، عن (فلان) و (فلانة)، ونقل قصّته (۴).

فباختلاف المعانی اختلفت المبانی، وکذلک فی مسألة الأفعال، فإنّها شبیهة الأقوال، فإنّ القیام للتواضع قد ورد النهی عنه.

روی أبو أسامة عن النبیّ صلی الله علیه و آله أنّه خرج مُتّکئاً علی عصی، فقمنا له، فقال: لا تقوموا کما تقوم الأعاجم بعضهم لبعض، رواه أبو داود (۵).

وروی ابن عمر عن النبیّ صلی الله علیه و آله أنّه قال: لا یقوم الرجل من مجلسه، ثمّ یجلس فیه، ولکن تفسّحوا وتوسّعوا (۶).

وعن أنس أنّه قال: لم یکن شخصٌ أحبّ إلیهم من النبیّ صلی الله علیه و آله، وکانوا إذا رأوه لم یقوموا، لما یعلمون من کراهیته لذلک، رواه الترمذی، وقال: هذا خبرٌ صحیح (۷).

فینبغی أن ینزل المنع علی قیام خاصّ؛ کأن یقوم منحنیاً علی نحو ما

۱- ۱ سنن الترمذی کتاب النذور والأیمان، حدیث ۱۴۵۵.

۲- ۲ صحیح البخاری کتاب تفسیر القرآن، حدیث ۴۴۷۲؛ وصحیح مسلم کتاب الجنّة وصفة نعیمها وأهلها، حدیث ۵۰۸۲.

۳- ۳ صحیح البخاری کتاب التوحید، حدیث ۶۸۹۵؛ وصحیح الترمذی کتاب صفة الجنّة، حدیث ۲۴۸۰، ۲۴۸۴.

۴- ۴ صحیح البخاری کتاب المناقب، حدیث ۳۵۲۴، وصحیح مسلم کتاب الأشربة، حدیث ۳۸۲۹، ۳۸۳۰؛ وسنن الترمذی باب تفسیر القرآن، حدیث ۳۲۲۶.

۵- ۵ سنن أبی داود کتاب الأدب- باب قیام الرجل للرجل، حدیث ۵۲۳۰.

۶- ۶ مسند أحمد ۲: ۱۷.

۷- ۷ سنن الترمذی کتاب الأدب- باب کراهیة قیام الرجل للرجل، حدیث ۲۶۷۸.

ص: ۱۵۴

یصنع الأعاجم. وفی الخبر ما یرشدُ إلیه اختلاف الأغراض والمقاصد.

کما روی عن معاویة أنّ النبیّ صلی الله علیه و آله قال: مَنْ سرّه أن یتمثّل له الرجال قیاماً، فلیتبوء مقعده من النار (۱).

وحدیث «ولا یقوم الرجل»، ظاهره اختصاص الجالس مجلسه، وربما ینزل ما دلّ علی کراهته، کذلک علی نحو کراهته لملاذ الدنیا، وزهده فی القیام کزهده فی مباحاتها.

فقد روی أبو سعید الخدری أنّ سعداً جاء علی حمار، فلمّا دنا من المسجد، قال النبیّ صلی الله علیه و آله للأنصار: قوموا إلی سیّدکم (۲).

وعن عائشة قالت: کنت جالسةً متربّعة، فجاء النبیّ صلی الله علیه و آله فأردتُ القیام، کما هی عادتی عند دخوله، فمنعنی (۳).

فإنَّ فیه دلالة علی أنّ ذلک کان معتاداً لها، ولعلّ هذا المنع کان لسبب خاصّ، أو کزهد الدنیا، وکسر النفس.

وروی عن النبیّ صلی الله علیه و آله أنّه لمّا قدم جعفر مبشّراً بفتح خیبر، قام، فقال: ما أدری بأیّهما أنا أشدّ فرحاً، أبقدوم جعفر أم بفتح خیبر؟! (۴).

وقیام الاحتمال فی هذه الأخبار لا یمنع الاستناد إلیها کما لا یخفی علی أُولی الأنظار، مع ما ورد فی الأخبار الکثیرة من استحباب تعظیم المؤمن، ویدخل فی تعظیم شعائر اللّه علی نحو ما ورد فی التفاسیر المعتبرة.

وعن أبی هریرة أنّ النبیّ صلی الله علیه و آله کان جلس معنا فی المسجد یحدّثنا، فإذا قام قمنا لقیامه، حتّی نراه دخل بعض بیوت أزواجه.

وعن واثلة (۵) قال: قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله: إنّ للمسلم لحقّاً إذا رآه أخوه تزحزح له، رواه البیهقی فی شعب الإیمان (۶).

ولعلّ هذا مبنی علی أنّ التواضع تختلف أقسامه باختلاف الأزمان، وکیف کان فالذی یظهر بعد التأمّل التامّ اختلاف الأقوال والأفعال باختلاف المقاصد. ومن ذلک اختلاف أحوال الزُهّاد، فبعض ترک المآکل والملابس الحسان، واقتصر علی الجشب والخشن، وبعضهم یأکل من أطیب المأکول، ویلبس من أنعم الملبوس.

وباعتبار اختلاف النّیات دخل

۱- ۱ سنن أبی داود کتاب الأدب، حدیث ۴۵۵۲؛ وسنن الترمذی کتاب الأدب، حدیث ۲۶۷۹.

۲- ۲ سنن أبی داود، حدیث ۵۲۱۶.

۳- ۳ أیضاً، حدیث ۵۲۱۷.

۴- ۴ علّق العلّامة الشیخ قاسم الدلبزی ناسخ الکتاب علی هذا الموضوع بقوله:

«لقائل أن یقول: إنّ حدیث جعفر لیس فیه دلالة علی المطلوب؛ لأنّ قول النبیّ صلی الله علیه و آله: «ما أدری أنا بأیّهما أشدُّ فرحاً» لا دلالة فیه لاحتمال أن یکون من جمعة الفرح؛ یعنی ما أدری فرحی لقدوم جعفر، أو لفتح خیبر؛ لأنّ مطلوبنا القیام، وهذا لا دلالة فیه علی أنّ القیام کان من النبیّ لجعفر من جمعة فرحه بفتح خیبر.

وکذلک حدیث أبی هریرة، وحدیث واثلة؛ لأنّ قول الأصحاب قمنا قیاماً، حتّی قوله دخل بیوت بعض أزواجه لا دلالة فیه علی أنّهم قائمین- هکذا وردت فی الأصل- له صلی الله علیه و آله، وکذا قوله فی حدیث واثلة: فإذا رآه أخوه تزحزح له لاحتمال أن یکون التزحزح، والتفسُّح بمعنی واحد. والمنکر لا ینکر التفسّح».

قاسم الدلبزی

۵- ۵ واثلهٔ بن الأسقع بن کعب، تُوفی سنهٔ ۸۳ ه/ ۷۰۲ م بدمشق عن ۱۰۵ سنین.

۶- ۶ سنن البیهقی، کتاب شعب الإیمان.

ص: ۱۵۵

(العَمَلان) فی قسم العبادات.

ثمّ إنّ الأفعال المختلفة بعضـها لا ینسب إلی غیر اللَّه، کإیجاد الکائنات، وصـنع المصنوعات. وبعضها لا ینسب إلی اللَّه، کأفعال القبائح والمُنَفِّرات، وبعضـها تختلف معانیها ومقاصـدها، فتنسب إلی الخالق مرّة، والمخلوق أخری. وهذا الحُکم متمشٍ علی قول مَنْ لم یُثبتْ فاعلًا سوی اللَّه، وعلی قول من أثبت.

والمعیار أنّه متی قام احتمال إرادة وجه صحیح بنی علیه، لقوله صلی الله علیه و آله:

«ادرؤا الحدود بالشبهات»، «ولا تقل فی الناس إلّاخیراً». وما دلّ علی النهی عن سوء الظنّ، فکیف بالشکّ.

وعن عائشة عن النبیّ صلی الله علیه و آله: ادرؤا الحدود عن المسلمین ما استطعتم (۱).

فالناس إذن فی صدور أمثال هذه الامور عنهم علی أنحاء:

بین علماء عاملین، مقاصدهم صحیحة، فلا یتعمّدون بالأقوال والأفعال، إلّاالوجوه السلیمة من القیل والقال.

وبین عوام جُهّـال بنوا علی ما بنی علیه علماؤهم علی الإجمال، ولیس لهم قابلیـة التفتیش علی حقیقـة الحال، فهم أیضاً معـذورون عند ربِّ العزّة والجلال.

وبین من بنوا علی طریق الضلال، وعلیهم المؤاخذة بضروب النکال.

والتحقیق أنَّ تبـدّل الأحکام بتبـدّل الموضوعات، لیس من باب التشـریع والإبداع، مثلًا یسـتحبّ للنساء التزیّن لرجالهن، فمنذ کان لبس السواد زینة استُحب، فإذا انعکس وصار المیل إلی الأحمر والأصفر انعکس الخطاب.

وألوان اللباس تختلف باختلاف الناس، ففی کلّ بلاد یسـتحبّ لون ونوع، فإنّه قد یکون فی مکان لبس شـهرة، وفی آخر بعکسه، وفی موضع من لباس النساء، وفی موضع بعکسه.

وکـذا کانت رغبـة الناس فی طیب الکافور، فکرهه الیوم. وکـذلک إکرام الضـیف بالمآکل، وکذا المراکب، فیختلف الحال باختلاف الأحوال.

وکذا طریق التواضع، وتعلیة البناء، ولباس الزهد.

والزهد فی المأکول یختلف باختلاف

۱- ۱ المستدرک للحاکم ۱: ۳۸۴.

ص: ۱۵۶

الأزمنهٔ، والأمكنهٔ، والأحوال، والمقاصد، وعلى ذلك مبنى كثير من اختلاف الأخبار.

وكذا يستحبّ التأهّب لجهاد الكفّار بأحسن السلاح، وكان أطيبها السيوف والرماح، وصار الأحسن فى هذه الأيّام (التفك) (۱) المعروف بين الأنام.

وكذا الوصول إلى بعض الأرضين لايستحب، حتّى‌تجعل مقبرهٔ للمسلمين.

فاختلاف الأزمنهٔ والأمكنهٔ والجهات، قد يبعث على اختلاف الأحكام؛ لاختلاف الموضوعات، وربما بنى على‌ذلك اختلاف كثير من الأخبار، وطريقهٔ‌المسلمين على‌اختلاف الأعصار.

وفّقنا اللّه وإيّاكم لسلوك الجادّهٔ المستقيمهٔ، والأخذ بالطريقهٔ السليمهٔ، وردّنى اللّه إليك إن كنتَ أنتَ على الحقّ، وردَّكَ إليَّ إنْ كان الحقُّ معى، ومع أكثر الخلق.

الفصل الثانى

فى بيان اختلاف ظواهر الآيات والروايات

وإن لكلٍّ من الحقّ والباطل مأخذاً، كما روى: أنَّ لكلّ حقّ حقيقهٔ، ولكلّ صواب نوراً، فمن أراد الحقّ اهتُدى إليه، ومَنْ أراد الباطل كان له ميدان فى المجادلهٔ عليه. فمن خرج عن جادّهٔ الإنصاف، وسلك طريق الغىّ والاعتساف، ولم يرجع إلى سيرهٔ الصحابهٔ والتابعين، أمكنه أن يستند إلى ظاهر القرآن المبين، فيما يخرج عن شريعهٔ سيّد المرسلين.

فإنّ (الوعيديهٔ) المنكرين للعفو، الموجبين للمؤاخذهٔ على المعاصى، يمكنهم الاستدلال بآيهٔ سورهٔ الزلزال فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (۲)

، و (الوعديهٔ) القائلين برفع المؤاخذهٔ بالكلّيهٔ، وإنّ اللّه لا يعاقب على معصيهٔ، لهم الاستناد إلى قوله تعالى: يا عِبادِيَ الَّذينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَميعاً (۳)

، ووعده لا خلف فيه.

والمثبتون للرؤيهٔ فى الآخرهٔ يستندون إلى قوله تعالى: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ إلى رَبِّها ناظِرَةٌ (۴)

، والنافون إلى قوله تعالى:

۱- ۱ وفى نسخهٔ البُندق، ويقصد بها البنادق.

۲- ۲ سورهٔ الزلزلهٔ: ۷- ۸.

۳- ۳ سورهٔ الزمر: ۵۳.

۴- ۴ سورهٔ القيامهٔ: ۲۲- ۲۳.

ص: ١۵٧

لا تُدرکُهُ الأبصار وهو یُدرِکُ الأبصار (١).

والقائلون بأنّ اللّه على العرش بآیة عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى (٢)

، والنافون بقوله تعالى: إنَّ اللّه مَعَنا (٣)

و إنّ مَعِیَ رَبّی سَیَهْدِینِ (۴) ما یَکُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَهٔ إلّاهُوَ رابِعُهُمْ (۵).

والقائلون بالتجسیم على الحقیقهٔ یستندون إلى مثل قوله: یَدُ اللّهِ فَوْقَ أَیْدیهِمْ (۶)

، والنافون إلى قوله:

لَیْسَ کَمِثْلِهِ شَیءٌ (٧)

ونحوها.

والقائلون بجواز المعصیهٔ على الأنبیاء یستندون إلى مثل قوله تعالى:

وَعصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى (٨)

، والنافون بمثل قوله: لا یَنالُ عَهْدِی الظّالِمینَ (٩).

والقائلون باستناد جمیع الأفعال إلى اللّه، استندوا إلى قوله: خَالِقُ کُلِّ شَیءٍ (١٠)

وقوله: کُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللّهِ (١١).

والآخرون إلى قوله: ما أَصابَکَ مِنْ حَسَنَهٍٔ فَمِنْ اللّهِ وَمَا أَصابَکَ مِنْ سَیِّئَهٍٔ فَمِنَ نَفْسِکَ (١٢).

والقائلون بأنّ الکفّار مخاطبون بالفروع بعموم: یا أَیُّهَا النّاسُ اعْبُدُوا رَبَّکُمْ (١٣)

، والنافون لذلک بخطاب: یا أَیُّهَا الَّذینَ آمَنُوا (١۴)

إلى غیر ذلک.

وکذا فی الفروع الفقهیّهٔ، فإنَّ کلّاً من الفقهاء له مآخذ من الکتاب والسنّهٔ، مغایر لمآخذ صاحبه، کما لا یخفى على المتتبّع، فلمن أراد أن یُبیحَ جمیع الأشیاء قوله تعالى: خَلَقَ لَکُمْ ما فی الأَرْضِ (١۵)

ومن قصر التحریم على أربعهٔ استند إلى ما دلّ على تحلیل جمیع الأشیاء ما عدا المیتهٔ، والدم، ولحم الخنزیر، وما أُهِلَّ به لغیر اللّه، من جمیع ما خلق اللّه.

والحاصل: أنَّ کُلَّ مَنْ أراد العناد والعصبیهٔ، فله مَدْرَک یتشبّث به من آیهٔ قرآنیهٔ، أو سنّهٔ محمّدیهٔ، ویکون صاحب مذهب ورأی، یباحث الفضلاء، ویُناظر أساطین العلماء، ما لم یکن له حاجب من تقوى اللّه.

ولقد أجاد بعض القدماء، من فحول العلماء حیث یقول: إنَّ المسائل الشرعیّهٔ عندی بمنزلهٔ الشمع اللّین، أُصوّره کیف شئت لولا تقوى اللّه.

١- ١ سورهٔ الأنعام: ١٠٣.

٢- ٢ سورهٔ طه: ۵.

٣- ٣ سورهٔ التوبهٔ: ۴٠.

۴- ۴ سورهٔ الشعراء: ۶٢.

٥- ٥ سورة المجادلة: ٧.

٦- ٦ سورة الفتح: ١٠.

٧- ٧ سورة الشورى: ١١.

٨- ٨ سورة طه: ١٢١.

٩- ٩ سورة البقرة: ١٢۴.

١٠- ١٠ سورة الأنعام: ١٠٢.

١١- ١١ سورة النساء: ٧٨.

١٢- ١٢ سورة النساء: ٧٩.

١٣- ١٣ سورة البقرة: ٢١.

١۴- ١۴ سورة البقرة: ١٠۴.

١۵- ١۵ سورة البقرة: ٢٩.

ص: ١٥٨

ونُقلَ أنَّ بعض الفضلاء أخذ قطعةً من قرطاس فی محفل من الناس، فأورد علیهم براهین علی أنّها قطعة ذهب، حتّی أقرّوا بذلک.

ولکن مَنْ أراد رضا الجبّار، ورجا الفوز بالجنّة، وخاف عذاب النار، ینظر إلی المعادلة فی الدلالات، ثمّ ینظر المرجّحات الخارجیّات، وأولاها التأمّل فی طریقة الصحابة وسیرتهم، فإنّها أعظم شاهد علی ما حَکمَ به الجبّار، وجرت علیه سُنّة النبیِّ المختار صلی الله علیه و آله فإنَّ لکلّ ملّة طریقةً یرجعون إلیها، ویُعوِّلون عند وقوع الاشتباه علیها.

وقد یحصل العلم بما علیه الأمراء، من النظر إلی عمل أتباعهم، وأشیاعهم، ورعایاهم، وخدمهم، وحشمهم؛ لأنَّ الأثر یدلّ علی مؤثّره، والمنتهی یدلّ علی مصدره.

وبُعدُ العهد بیننا وبین زمان (الصدور)، ربّما أخفی علینا کثیراً من الامور، فإذا حصل الإجماع والاتفاق، ارتفع النزاع والشقاق، وکذلک إذا اشتهر أمر بین السلف وظهر، فلا وجه للانصراف عنه إلی ما شذَّ وندر.

فقد علم أنّ المیزان الذی لا عیب فیه، ولا نقص یعتریه، هو الرجوع إلی کلام الصحابة، والتابعین، وتابعی التابعین؛ لأنّه موضح وکاشف لحکم سیّد المرسلین.

ولمّا اختلفت الأخبار فی بعض ما أوردناه وشرحناه، لزم الرجوع إلیهم، والاعتماد فی تصحیح الأخبار- بعد اللَّه- علیهم.

علی أنّ الأخبار الدالّة علی جواز ما منعه المانعون أکثر مورداً، وأوفر عدداً، وأقرب إلی ظاهر الکتاب والسنّة وکلام الأصحاب.

وفّقنا اللَّه وإیّاکم لإدراک حقائق الامور، والتوفیق للسعادة یوم النشور، وجعلنا من المتمسّکین بالعروة الوثقی، والمتشوّقین إلی دار الآخرة التی هی خیرٌ وأبقی، واللَّه ولیّ التوفیق، وبیده أزمة التحقیق.

الفصل الثالث

فی بیان المیزان (١) التی یُرجع إلیها إذا تشابهت الامور

وهی ما علیه الصحابة والتابعون، وما أجمع علیه المسلمون. قال اللَّه

١- ١ المیزان مذکّر، وقد یکون بتأنیثها أراد آلاله التی توزن بها الأشیاء.

ص: ۱۵۹

تعالی: وَمَنْ یَتَّبع غَیْرَ سَبیلِ الْمُؤْمِنینَ نُوَلِّهِ ما تَوَلّی(۱)

وقال:

إنَّما یُریدُ اللَّهُ لِیُذْهِبَ عَنْکُمُ الرِّجسَ أَهْلَ الْبَیْتِ (۲)

.

وعن ابن عمر، أنّه قال: لا تجتمع امّتی- أو قال: (أُمَّهُ مُحمَّد)- علی ضـلال، وید اللَّه علی الجماعهٔ، ومن شذَّ شذَّ فی النار، رواه الترمذی (۳).

وعن ابن عمر، عن النبیّ صلی الله علیه و آله أنّه قال: اتّبعوا السواد الأعظم، فإنّه من شذَّ شذّ فی النار (۴).

وعن عمر، عن النبیّ صلی الله علیه و آله أنّه قال:

مَنْ سرَّهُ بُحبوحهٔ الجنّهٔ فلیلزم الجماعهٔ، فإنّ الشیطان مع الفرد، وهو من الاثنین أبعد (۵).

وعن أُسامهٔ بن شریک (۶)، عن النبیّ صلی الله علیه و آله: أیما رجل یفرق بین امّتی فاضربوا عنقه، رواه النسائی (۷).

وعن النبیّ صلی الله علیه و آله: إنّ اللَّه أجارکم من ثلاث خلال، وعدَّ منها: أن تجتمعوا علی الضلال (۸).

وعن النبیّ صلی الله علیه و آله: ما اجتمعت امّتی علی الخطأ (۹).

وقال علیّ علیه السلام فی بعض خطبه:

علیکم بالسواد الأعظم، وإنّ الشاذّهٔ للذئب (۱۰).

وعن عمر، عن النبیّ صلی الله علیه و آله: أصحابی کالنجوم بأیّهم اقتدیتم اهتدیتم.

وعن رزین، عن عمر، عن النبیّ صـلی الله علیه و آله قال: سألتُ ربّی عن اختلاف أصـحابی، فأوحی إلیَّ: إنَّ أصحابک بمنزلهٔ النجوم، بعضها أقوی من بعض، ولکلٍّ نور، فمَنْ أخذ بما هم علیه من اختلافهم، فهو عندی علی هدی (۱۱).

وعن النبیّ صلی الله علیه و آله: إنّ مثل أهل بیتی کسفینهٔ نوح، مَنْ رکبها نجا، ومن تخلَّف عنها هلک (۱۲).

وعن أبی هریرهٔ، عن النبیّ صلی الله علیه و آله: لو سلک الناس وادیاً، وسلک الأنصار وادیاً أو شعباً، لسلکتُ وادی الأنصار (۱۳).

وعن زید بن أرقم (۱۴)، قال: قام النبیّ صـلی الله علیه و آله خطیباً، فقال: أیّها الناس إنّما أنا بشرٌ یوشک أن یأتینی رسولُ ربّی فأُجیب، وأنا تارکٌ فیکم الثقلین: کتاب اللَّه فیه الهدی، وأهل بیتی، أُذکّرکم اللَّه فی أهل بیتی، رواه مسلم (۱۵).

وعن جابر (۱۶)، قال: رأیتُ النبیّ صلی الله علیه و آله

۱- ۱ سورهٔ النساء: ۱۱۵.

۲- ۲ سورهٔ الأحزاب: ۳۳.

۳- ۳ سنن الترمذی کتاب الفتن- باب ما جاء فی لزوم الجماعهٔ-.

۴- ۴ مسند أحمد بن حنبل ۴: ۳۸۳.

۵- ۵ سنن الترمذی، حدیث ۲۱۶۵.

۶- ۶ أُسامهٔ بن شریک الثعلبی الذبیانی، کان من الصحابهٔ، سکن الکوفهٔ.

۷- ۷ سنن النسائی کتاب تحریم الدم، حدیث ۳۹۵۷؛ وصحیح مسلم ۳: ۱۴۷۹.

۸- ۸ سنن أبی داود، حدیث ۴۲۵۳.

۹- ۹ سنن ابن ماجه، حدیث ۳۹۵۰.

۱۰- ۱۰ نهج البلاغهٔ، الخطبهٔ ۱۲۷.

۱۱- ۱۱ کنز العمّال ۱: ۱۸۱، حدیث ۹۱۷.

۱۲- ۱۲ مستدرک الحاکم ۳: ۱۵۰.

۱۳- ۱۳ صحیح مسلم، حدیث ۱۳۵.

۱۴- ۱۴ زید بن أرقم بن زید بن قیس الأنصاری الخزرجی، أقام بالکوفهٔ أیّام المختار، وتُوفی فیها سنهٔ ۶۶ ه، وقیل سنهٔ ۶۸ ه/ ۶۸۷ م.

۱۵- ۱۵ صحیح مسلم فضائل الصحابهٔ، حدیث ۴۴۲۵؛ ومسند أحمد بن حنبل، مسند الکوفیّین، حدیث ۸۴۶۴، وسنن الدارمی فضائل القرآن، حدیث ۳۱۸۲.

۱۶- ۱۶ جابر بن عبداللّه الأنصاری، توفّی سنهٔ ۷۸ ه/ ۶۹۷ م، عن ۹۴ عاماً.

ص: ۱۶۰

فی حجّة یخطب، فسمعته یقول: یا أیُّها الناس إنّی ترکت فیکم ما إن أخذتم به لن تضلّوا: کتاب اللّه، وعترتی أهل بیتی، رواه الترمذی (۱).

وقریبٌ منه ما رواه زید بن أرقم (۲).

وعن حذیفة، عن النبیّ صلی الله علیه و آله: اقتدوا باللذین من بعدی: أبی بکر، وعمر (۳).

وعن جبیر بن مطعم (۴)، عن النبیّ صلی الله علیه و آله: أنَّ امرأته قالت للنبیّ صلی الله علیه و آله: إن لم أجدک فإلی مَنْ أرجع؟ فقال: إئت أبا بکر (۵).

وعن ابن عمر، عن النبیّ صلی الله علیه و آله: وُضِعَ الحقّ علی لسان عمر یقول به (۶).

وعن أبی داود، عن أبی ذرّ، قال:

إنَّ الحقّ وضع علی لسان عمر یقول به (۷).

وعن عقبة بن عامر، عن النبیّ صلی الله علیه و آله أنّه قال: لو کان بعدی نبیّ لکان عمر ابن الخطّاب (۸).

وعن سعد بن أبی وقّاص أنّ النبیّ صلی الله علیه و آله قال لعلیّ علیه السلام: أنتَ منّی بمنزلة هارون من موسی (۹).

وعن عبداللّه بن عمرو (۱۰)، عن النبیّ صلی الله علیه و آله أنّه قال: ما أظلّت الخضراء، ولا أقلَّت الغبراء من ذی لهجة، أصدق من أبی ذرّ، رواه الترمذی (۱۱).

وعن النبیّ صلی الله علیه و آله أنّه قال: اللّهمَّ أدرِ الحقَّ مع علیّ حیث ما دار، رواه الترمذی (۱۲).

وعن عمّار، أنَّ النبیّ صلی الله علیه و آله قال: إذا سلک الناس طریقاً، وسلک علیّ غیره، فاسلک طریق علیّ علیه السلام.

وعن ابن مسعود، عن النبیّ صلی الله علیه و آله قال:

مَنْ کان مستنّاً فلیستنّ بمن قد مات، أولئک أصحاب محمّد صلی الله علیه و آله کانوا أفضل هذه الامّة، أبرّها قلوباً، وأعمقها علماً.

إلی أن قال: فاعرفوا لهم فضلهم، واتّبعوهم علی إثرهم، وتمسّکوا بما استطعتم من أخلاقهم وسیرتهم، فإنّهم کانوا علی الهدی المستقیم، رواه رزین (۱۳).

وعن عرباض بن ساریة (۱۴)، قال:

صلّی بنا رسول اللّه صلی الله علیه و آله، ووعظ ثمّ قال:

إنّه من یعیش منکم بعدی فسیری اختلافاً کثیراً، فعلیکم بسنّتی وسنّة الخلفاء الراشدین المهدیّین، تمسّکوا بها، وعضُّوا علیها بالنواجذ، وإیّاکم

۱- ۱ سنن الترمذی باب مناقب أهل بیت النبی صلی الله علیه و آله، حدیث ۳۷۸۶.

۲- ۲ أیضاً، حدیث ۳۷۸۸.

۳- ۳ أیضاً، حدیث ۳۶۶۲.

۴- ۴ جبیر بن مطعم بن عدی القرشی النوفلی، تُوفی سنة ۵۹ ه/ ۲۶۰ م.

۵- ۵ سنن الترمذی، حدیث ۳۶۷۶.

۶- ۶ أیضاً، حدیث ۳۶۸۲.

۷- ۷ أیضاً، حدیث ۳۶۸۲.

۸- ۸ سنن الترمذی، حدیث ۳۶۸۶.

۹- ۹ المصدر السابق، حدیث ۳۷۳۱.

۱۰- ۱۰ هو ابن عمرو بن العاص السهمی القرشی، صحابی، أقام فی مصر، وتُوفی فی الطائف سنة ۶۳ ه/ ۶۸۳ م.

۱۱- ۱۱ سنن الترمذی، حدیث ۳۸۰۱؛ وسنن ابن ماجة المقدّمة، حدیث ۱۵۲.

۱۲- ۱۲ سنن الترمذی کتاب المناقب، حدیث ۳۶۴۷.

۱۳- ۱۳ صحیح مسلم، ج ۴، ص ۱۹۶۲.

۱۴- ۱۴ عرباض بن ساریة السلمی الحمّصی، صحابی، أقام فی الشام، وتُوفی سنة ۷۵ ه/ ۶۹۴ م.

ص: ۱۶۱

ومحدثات الامور، فإنّ كلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعةٍ ضلالة، (رواه أحمد، وغيره) (۱).

وعن أبى هريرة، عن النبىّ صلى الله عليه و آله أنّه:

من خرج عن الطاعة، وفارق الجماعة مات ميتة جاهلية (۲).

وعن الحارث الأشعرى (۳)، عن النبىّ صلى الله عليه و آله أنّه قال: مَنْ خرجَ عن الجماعة قدر شبر، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه.

وعن ابن عبّاس، عن النبىّ صلى الله عليه و آله: إنَّ مَنْ فارق الجماعة قدر شبر مات ميتة جاهلية (۴).

وعن عبداللَّه بن عمرو، عن النبىّ صلى الله عليه و آله: إنَّ امّته تفترق ثلاثاً وسبعين فرقة، وليس فيها ناج سوى واحدة، فسُئِلَ عنها، فقال: ما أنا عليه اليوم وأصحابى (۵).

إلى غير ذلك من الأخبار.

ومقتضى ذلك أنّه من اللّازم الرجوع إلى سيرة الصحابة وطريقتهم، وأنّها الميزان إذا اشتكلت علينا الامور، وتعارضت علينا الأدلّة، وسيتّضح أنّ جميع ما ينكر من هذه الأفعال الموردة صادرة عن الصحابة، وطريقتهم مستمرّة عليه، مع أنّ فى السنّة ما يدلّ على جوازه.

وما ورد عنه صلى الله عليه و آله أنَّ الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً (۶)، فلا ينافى ما ذكرناه؛ لأنّ فرقة الإسلام بين طوائف الكفر كنقطة فى بحر.

وروى أبو سعيد الخُدرى عن النبىّ صلى الله عليه و آله: ما أنتم فى الناس إلّاكالشعرة البيضاء فى جلد الثور الأسود (۷).

وعوده غريباً فى أيّام الدجّال، ونحوه يكفى فى صدق الخبر.

وروى عبداللَّه بن مسعود (۸) عن النبىّ صلى الله عليه و آله أنّه قال: لا تقوم الساعة إلّا على شرار الخلق، رواه مسلم (۹).

وعن أبى سعيد الخدرى (۱۰) عن النبىّ أنّه قال: لا تقوم الساعة حتّى لا يقال فى الدنيا اللَّه (۱۱).

وكلّ ما صدر فى زمان الصحابة من الأعراب بمحضر منهم ولم ينكروه، فهو موافق لرضاهم، وإلّا لأنكروه؛ ولهذا أوردنا فى هذه الرسالة كثيراً ممّا صدر فى زمانهم من غيرهم.

وعلى كلّ حال، فلا كلام فى أنّ

۱- ۱ مسند أحمد بن حنبل مسند الشاميّين، حديث ۱۶۶۹۲، ۱۶۶۹۴، ۱۶۶۹۵؛ وسنن الدارمى المقدّمة حديث ۹۵؛ والترمذى كتاب العلم، حديث ۲۶۰۰؛ وابن ماجه المقدّمة، حديث ۴۲، ۴۳.

۲- ۲ وفى النسخة المطبوعة ورد الحديث كالآتى: «مَنْ مات، ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية» صحيح مسلم كتاب الامارة، حديث ۳۴۴۱.

۳- ۳ هو الحارث بن الحارث الأشعرى، صحابى، أقام فى الشام.

۴- ۴ مسند أحمد بن حنبل مسند الشاميّين، حديث ۱۶۷۱۸ ضمن حديث طويل، وحديث ۱۷۳۴۴.

۵- ۵ سنن الترمذى كتاب الايمان، حديث ۲۵۶۵.

۶- ۶ صحيح مسلم، حديث ۱۴۵.

۷- ۷ صحيح البخارى كتاب تفسير القرآن، حديث ۴۴۶۴؛ وصحيح مسلم كتاب الأيمان، حديث ۳۲۷؛ ومسندأحمد بن حنبل باقى مسند المكثرين، حديث ۱۰۸۹۲.

۸- ۸ فی صحیح مسلم ورد اسم عبداللَّه بن عمرو بن العاص.

۹- ۹ صحیح مسلم کتاب الامارة، حدیث ۳۵۵۰.

۱۰- ۱۰ فی المصادر «أنس بن مالک».

۱۱ – ۱۱ مسلم کتاب الأیمان، حدیث ۲۱۱؛ والترمذی کتاب الفتن، حدیث ۲۱۳۳؛ ومسند أحمد باقی مسند المکثرین، حدیث ۱۱۶۳۲. وزاد فی المصادر کلمة اللَّه مرّة ثانیة فی نهایة الحدیث.

ص: ١٦٢

الأدلّة فيها عام، وفيها خاصّ، وفيها ناسخ، وفيها منسوخ، وفيها مجمل، وفيها مبيّن، وفيها مطلق، وفيها مقيّد، ومنها قطعى الصدور ظنّى الدلالة، ومنها قطعى الدلالة ظنّى الصدور، ومنها ظنّيهما، ومنها قطعيهما. ومن جهة اختلاف السند: منها صحيح، وضعيف، وحسن، ومُوَثَّق، وقوى إلى غير ذلك.

فإذا تعارضت الأدلّة، فلابُدَّ من النظر إلى المرجّحات: من جهة السند، أو من جهة الدلالة، أو من جهة سبك العبارة، أو من جهة كثرة الرواية، أو من جهة شهرة الفتوى، أو من جهة موافقة الاصول ومخالفتها، أو من جهة موافقة العمومات ومخالفتها، أو من جهة موافقة الكتاب وعدمها، إلى غير ذلك.

فإذا فُقِدت المرجّحات، وقامت الحَيْرة، فلا يبقى مدارٌ إلّاعلى سيرة الأصحاب، وطريقتهم، والنظر إلى ما هم عليه صاغراً عن كابر، وما عليه الأوّل والآخر.

وما نحنُ عليه اليوم من طريقة القوم أكثر الروايات موصلة إليه، وطريقة الأصحاب والصحابة مستمرّة عليه، وقد ذكرتُ منها قليلًا من كثير ليُعْلَم حال السلف، ويرتفع الإنكار على خلفهم.

فيا أخى فَوَحقّ من رفع السماء، وبسط الأرض على الماء، إنّى لمّا أحببتُكَ لمكارم أخلاقك، وحسن سيرتك مع الناس، وإرفاقك، أخشى عليك من سراية القَدْح إلى المشايخ الكبار، والعلماء الأبرار، الذين هم للشارع نوّاب، ولأبواب الشرع بواب، عصمنا اللَّه وإيّاكم، وكفانا شرَّ الجهل وكفاكم، واللَّه الموفّق.

وأمّا المقاصد فثمانية...

فى العدد القادم

الهوامش:

علل الحجّ فی کتب الشیخ الصدوق

ص: ۱۶۸

علل الحجّ فی کتب الشیخ الصدوق

فارس حسّون کریم المقدّمة

لا یخفی أنّ مکتباتنا الإسلامیّة- العربیّة منها والفارسیّة والأردویّة والترکیّة وغیرها- تدفن فی زوایاها ثروات علمیّة هائلة تمثّل تراثاً ضخماً ناصعاً ینتظر انتشاله بأیدٍ مخلصة وفیّة لتراثها العبق، وخلال مطالعة لعناوین ذخائر تراثنا نجدها قد حوت من العلوم والفنون ما یقف الإنسان أمامها منبهراً.

ومن تلک الدقائق الرائقة التی تناولها العلماء بالتألیف والتصنیف: موضوع «العلل»، فکتبوا «علل الشرائع»، و «علل الأشیاء»، «علل الأحکام»، «الجامع فی العلل»، و....

ومن المؤسف جدّاً أن نری بعض هذه الآثار القیّمة قد انعدمت بمرور الزمان وعوادی الحدثان، ونتیجة غفلة بعض مَن لیس له إلمام بما ینتج عن ضیاعها من خسارة فادحة وعاقبة ألیمة.

ولا یسعنا- والحال هذه- إلّاأن نحمد اللَّه علی بقاء القسم الأعظم منها محفوظاً سالماً قد أخطأته ید الدهر، وزاغت عنه أبصار الطواغیت.

ص: ۱۶۹

هذا القسم الباقی من تراثنا العظیم کثیر منه مخطوط فی خزائن الکتب، والاستفادة منه محدودة!

وقـد ترک لنا الشـیخ أبو جعفر بن بابویه الصـدوق رضـی الله عنه لوحده الکثیر من المؤلَّفات والمصـنَّفات النافعة والشـیّقة ک: «معانی الأخبار»، «الخصال»، «علل الشرائع»، «من لا یحضره الفقیه»، وغیرها.

وإضافة إلی ذلک فَقَد فُقِد العدید من کتبه المفیدة هذه ولم یصل إلینا منها شیء.

ومن هذه المؤلّفات المفقودة کتابه «جامع علل الحجّ» الذی ذکره الشیخ آقا بزرگ الطهرانیّ فی الذریعة (۱) قائلًا:

«جامع علل الشرائع» للشیخ الصدوق أبی جعفر محمد بن علیّ القمّی، المتوفّی ۳۸۱ ه، ذکره النجاشیّ (۲).

ونتیجة لافتقار مکتبتنا الإسلامیّة لمثل هذا الکتاب بادرت لإحیاء کتاب علی غراره، معتمداً فی عملی هذا علی مؤلّفات الصدوق نفسه، وبالخصوص منها:

«من لا یحضـره الفقیه» و «علل الشـرائع»، وقد رغب البعض أن أسمّیه بنفس تسمیة الصدوق، أی: «جامع علل الحجّ» إلّاأنّی امتنعت عن تلبیـة تلک الرغبـة، وذلک لما اعتقـده من أنّ کتاب الصدوق هو بلا شکّ بترتیب آخر، أی غیر ما رتّبناه نحن هنا، ولو أنّ غالب الظنّ أنّ ما أورده رحمه الله فی کتابه لا یختلف کثیراً عمّا أوردناه هنا.

وفی الختام أحمـده تعالی أن وفّقنی لإنجاز عملی هذا، وأسأله تعالی أن یمنّ علیّ مسـتقبلًا بأن احیی أثراً آخر من آثار هؤلاء الجنابذة، لاسیّما وأنّ فی إحیاء آثارهم حیاة الدین والامّة، وامتداداً لحیاة القرآن الکریم والسنّة الشریفة وآثار المعصومین علیهم السلام.

۱- ۱ الذریعة ۵: ۶۳ رقم ۲۴۵.

۲- ۲ رجال النجاشیّ: ۳۸۹.

ص: ۱۷۰

(۱)

أبواب علل الأسماء

۱- باب علّة تسمیة مکّة

۱- عن محمد بن سنان: أنّ أبا الحسن الرضا علیه السلام کتب إلیه فی ما کتب من جواب مسائله: سمّیت مکّة مکّة، لأنّ الناس کانوا یمکّون فیها، وکان یقال لمن قصدها: قد مکا، وذلک قول اللّه عزّوجلّ: وَمَا کَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَیْتِ إِلَّا مُکَاءً وَتَصْدِیَةً (۱)

فالمکاء: التصفیر، والتصدیة: صفق الیدین (۲).

۲- وسئل أمیر المؤمنین علیه السلام: لِمَ سمّیت مکّة؟ قال علیه السلام: لأنّ اللّه تعالی مکّ الأرض من تحتها- أی دحاها- (۳).

۲- باب علّة تسمیة بکّة

۱- عن العرزمیّ، عن أبی عبداللّه علیه السلام، قال: إنّما سمّیت مکّة بکّة لأنّ الناس یتباکون فیها (۴).

۲- وسئل أمیر المؤمنین علیه السلام: فلِمَ سمّیت بکّة؟ قال: لأنّها بکّت رقاب الجبّارین وأعناق المذنبین (۵).

۳- عن عبداللّه بن سنان، قال: سألت أبا عبداللّه علیه السلام: لِمَ سمّیت الکعبة بکّة؟

فقال: لبکاء الناس حولها وفیها (۶).

۳- عن سعید بن عبداللّه الأعرج، عن أبی عبداللّه علیه السلام قال: موضع البیت بکّة (۷)، والقریة مکّة (۸). (۹) ۴- عن الفضیل، عن أبی جعفر علیه السلام، قال: إنّما سمّیت مکّة بکّة لأنّه یبکّ بها الرجال والنساء، والمرأة تصلّی بین یدیک وعن یمینک وعن شمالک وعن یسارک ومعک، ولا بأس بذلک، إنّما یکره فی سائر البلدان (۱۰).

۱- ۱ سورة الأنفال: ۳۵.

۲- ۲ علل الشرائع: ۳۹۷ ب ۱۳۶ ح ۱، عیون أخبار الرضا علیه السلام ۲: ۹۰، بحار الأنوار ۹۹: ۷۷ ح ۶.

۳- ۳ إرشاد القلوب: ۳۷۷، المحتضر: ۸۸، مشارق أنوار الیقین: ۸۴، بحار الأنوار ۱۰: ۱۲۷ ضمن ح ۶، و ۵۷: ۶۴ ح ۳۷ وص ۲۳۲ وص ۳۳۷ ضمن ح ۲۷، و ۹۹: ۸۵ ح ۴۵.

۴- ۴ علل الشرائع: ۳۹۷ ب ۱۳۷ ح ۱، بحار الأنوار ۹۹: ۷۸ ح ۷، تفسیر البرهان ۱: ۶۵۷ ح ۱۰.

۵- ۵ المحتضر: ۸۸، مشارق أنوار الیقین: ۸۴، إرشاد القلوب: ۳۷۷، بحار الأنوار ۱۰: ۱۲۷ ضمن ح ۶، و ۵۷: ۲۳۲ وص ۳۳۷ ضمن ح ۲۷، و ۹۹: ۸۵ ح ۴۵.

۶- ۶ من لا یحضره الفقیه ۲: ۱۹۳ ح ۲۱۱۹، علل الشرائع: ۳۹۷ ب ۱۳۷ ح ۲، روضة المتّقین ۴: ۱۷، بحار الأنوار ۹۹: ۷۸ ح ۸، تفسیر البرهان ۱: ۶۵۷ ح ۱۱.

۷- ۷ ویؤیّده قوله تعالی فی سورة آل عمران: ۹۶ انّ أوّل بیت وضع للناس للذی ببکة.

۸- ۸ روی الکلینی فی الکافی ۴: ۲۱۰ ح ۱۷ و ۲۱۱ ح ۱۸ عنه بحار الأنوار ۱۵: ۱۷۰ ح ۹۷ بالإسناد إلی أبی بصیر، عن أبی جعفر علیه السلام قال: لم یزل بنو إسماعیل ولاة البیت، یقیمون للناس حجّهم وأمر دینهم، یتوارثونه کابر عن کابر حتّی کان زمن عدنان بن ادد، فطال علیهم الأمد فقست قلوبهم وأفسدوا وأحدثوا فی دینهم، وأخرج بعضهم بعضاً، فمنهم من خرج فی طلب المعیشة، ومنهم من خرج کراهیة القتال وفی أیدیهم أشیاء کثیرة من الحنیفیّة من تحریم الامّهات والبنات، وما حرّم اللّه فی النکاح، إلّاأنّهم کانوا یستحلّون

امرأة الأب وابنـة الاخت والجمع بين الاختين، وكان فى أيـديهم الحجّ والتلبية والغسل من الجنابة، إلّاما أحدثوا فى تلبيتهم وفى حجّهم من الشرك، وكان فيما بين إسماعيل وعدنان بن ادد موسى عليه السلام.

وروى أنّ معـد بن عـدنان خاف أن يـدرس الحرم فوضع أنصابه، وكان أوّل من وضـعها، ثمّ غلبت جُرهُم على ولاية البيت، فكان يلى منهم كابر عن كابر حتّى بغت جرهم بمكّة، واستحلّوا حرمتها، وأكلوا مال الكعبة، وظلموا من دخل مكّة، وعتوا وبغوا، وكانت مكّة فى الجاهلية لا يظلم ولا يبغى فيها ولا يستحلّ حرمتها ملك إلّاهلك مكانه....

فلمّا بغت جرهم واستحلّوا فيها بعث اللّه عزّوجلّ عليهم الرعاف والنمل وأفناهم، فغلبت خزاعة واجتمعت ليجلوا من بقى من جرهم عن الحرم ورئيس خزاعة عمرو بن ربيعة بن حارثة بن عمرو ورئيس جرهم عمرو بن الحارث بن مصاص الجرهمى، فهزمت خزاعة جرهم، وخرج من بقى من جرهم إلى أرض من أرض جهينـة، فجاءهم سـيل أتى فـذهب بهم، ووليت خزاعة البيت، فلم يزل فى أيديهم حتّى جاء قصىّ بن كلاب وأخرج خزاعة من الحرم وولى البيت وغلب عليه.

۹- ۹ من لا يحضـره الفقيه ۲: ۱۹۳ ضمن ح ۲۱۱۹، علل الشرائع: ۳۹۷ ح ۳، روضة المتّقين ۴: ۱۷، بحار الأنوار ۹۹: ۷۸ ح ۹، تفسير البرهان ۱: ۶۵۷ ح ۱۲.

۱۰- ۱۰ علل الشرائع: ۳۹۷ ح ۴، بحار الأنوار ۸۳: ۳۳۴ ح ۲، و ۹۹: ۷۸ ح ۱۳، تفسير البرهان ۱: ۶۵۷ ح ۱۳.

ص: ۱۷۱

۵- عن عبيداللّه بن علىّ الحلبىّ، قال: سألت أبا عبداللّه عليه السلام: لِمَ سمّيت مكّة بكّة؟

قال: لأنّ الناس يبكّ بعضهم بعضاً فيها بالأيدى (۱). (۲) ۶- عن جابر، عن أبى جعفر عليه السلام، قال: إنّ بكّة موضع البيت، وإنّ مكّة الحرم، وذلك قوله: وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً (۳)

. (۴) ۷- عن جابر، عن أبى جعفر عليه السلام، قال: إنّ بكّة موضع البيت، وإنّ مكّة جميع ما اكتنفه الحرم (۵).

۸- عن عبداللّه بن سنان، عن أبى عبداللّه عليه السلام، قال: مكّة جملة القرية، وبكّة موضع الحَجَر الذى يَبُكّ الناس بعضهم بعضاً (۶).

۹- سئل علىّ عليه السلام: أين بكّة من مكّة؟

قال علىّ عليه السلام: مكّة أكناف الحرم، وبكّة موضع البيت (۷).

۱۰- عن معاوية بن عمّار، قال: قلت لأبى عبداللّه عليه السلام: أقوم اصلّى والمرأة جالسة بين يدىّ أو مارّة؟

فقال عليه السلام: لا بأس، إنّما سمّيت بكّة، لأنّه يبكّ فيها الرجال والنساء (۸).

۱۱- وكانت تسمّى بكّة؛ لأنّها تبكّ أعناق الباغين إذا بغوا فيها (۹).

۱۲- عن على بن جعفر بن محمد، عن أخيه موسى عليه السلام، قال: سألته عن مكّة لِمَ سمّيت بكّة؟

قال: لأنّ الناس يبكّ بعضهم بعضاً بالأيدى- يعنى يدفع بعضهم بعضاً بالأيدى فى المسجد (۱۰) حول الكعبة (۱۱).

۳- باب علّة تسمية امّ القرى

۱- سأل الشامى أمير المؤمنين عليه السلام: لِمَ سمّيت مكّة امّ القرى؟

قال عليه السلام: لأنّ الأرض دحيت من تحتها (۱۲).

۲- سمّيت مكّة امّ القرى؛ لأنّها أوّل بقعة خلقها اللّه من الأرض، لقوله: إِنَ

۱- ۱ أى يزدحم أو يدقّ أو يدفع بعضهم بعضاً بالأيدى.

۲- ۲ المحاسن للبرقى ۲: ۶۶ ح ۱۱۳، تفسير العيّاشى ۱: ۱۸۷ ح ۹۵، من لا يحضره الفقيه ۲: ۱۹۳ ح ۲۱۱۸، علل الشرائع: ۳۹۸ ح ۵، روضة المتّقين ۴: ۱۷، بحار الأنوار ۹۹: ۷۷ ح ۳ و ۴ وص ۷۹ ح ۱۴- ۱۶، تفسير البرهان ۱: ۶۵۷ ح ۱۴ وص ۶۵۹ ح ۲۲.

۳- ۳ سورة آل عمران: ۹۷.

۴- ۴ تفسير العيّاشى ۱: ۱۸۷ ح ۹۴، بحار الأنوار ۹۹: ۷۸ ح ۱۰، تفسير البرهان ۱: ۶۵۹ ح ۲۱.

۵- ۵ تفسير العيّاشى ۱: ۱۸۷ ح ۹۶، بحار الأنوار ۹۹: ۷۸ ح ۱۱، تفسير البرهان ۱: ۶۵۹ ح ۲۳.

۶- ۶ تفسير العيّاشى ۱: ۱۸۷ ح ۹۳، بحار الأنوار ۹۹: ۷۸ ح ۱۲، تفسير البرهان ۱: ۶۵۹ ح ۲۰.

۷- ۷ إرشاد القلوب: ۳۷۷، بحار الأنوار ۹۹: ۸۵ ح ۴۵.

۸- ۸ المحاسن ۲: ۶۶ ح ۱۱۶، الكافى ۴: ۵۲۶ ح ۷، بحار الأنوار ۸۳: ۲۹۸ ح ۶ وص ۳۳۴ ح ۳، و ۹۹: ۸۳ ح ۴۰، تفسير البرهان ۱: ۶۵۵ ح ۳.

۹- ۹ الكافى ۴: ۲۱۱ ضمن ح ۱۸.

۱۰- ۱۰ فى القرب: ولا يكون إلّافى المسجد.

۱۱- ۱۱ قرب الإسناد: ۲۳۷ ح ۹۲۹، تفسير العيّاشى ۱: ۱۸۷ ح ۹۸، تفسير البرهان ۱: ۶۵۹ ح ۲۵.

۱۲– ۱۲ عیون أخبار الرضا علیه السلام ۱: ۲۴۱، علل الشرائع: ۵۹۳ ح ۴۴، بحار الأنوار ۱۰: ۷۶، و ۷۵: ۶۴ صدر ح ۳۶، و ۹۹: ۷۹ ح ۱۷.

ص: ۱۷۲

أَوَّلَ بَیْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِی بِبَکَّةَ مُبَارَکاً (۱)

. (۲) ۴- باب علّة تسمیة الباسّة أو البسّاسة

۱- وتسمّی بسّاسة کانوا إذا ظلموا فیها بسّتهم وأهلکتهم (۳).

۲- عن معاویة بن عمّار، عن أبی عبداللّه علیه السلام، قال: أسماء مکّة خمسة: امّ القری، ومکّة، وبکّة، والبسّاسة- کانوا إذا ظلموا بها بسّتهم أی أخرجتهم وأهلکتهم-.... (۴).

۳- وفی حدیث مجاهد: «من أسماء مکّة الباسّة» سمّیت بها لأنّها تحطِم من أخطأ فیها (۵).

۵- باب علّة تسمیة الناسّة أو النسّاسة

۱- وکانت العرب تسمّی مکّة الناسّة؛ لأنّ من بغی فیها أو أحدث حدثاً اخرج منها، فکأنّها ساقته ودفعته عنها (۶).

۲- الناسّة والنسّاسة: مکّة؛ سمّیت لقلّة الماء بها إذ ذاک، أو لأنّ من بغی فیها ساقته- أی اخرج عنها- (۷).

۶- باب علّة تسمیة امّ رُحْم

۱- وتسمّی امّ رُحْم کانوا إذا لزموها رُحِموا (۸).

۲- ومنه حدیث مکّة، هی امّ رحم- أی أصل الرحمة- (۹).

۷- باب علّة تسمیة الکعبة

۱- عن الحسن بن عبداللّه، عن آبائه، عن جدّه الحسن بن علیّ بن أبی طالب علیهم السلام، قال: جاء نفر من الیهود إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله فسألوه عن أشیاء؛ فکان فیما سألوه عنه أن قال له أحدهم: لأیّ شیء سمّیت الکعبة کعبة؟

فقال النبیّ صلی الله علیه و آله: لأنّها وسط الدنیا (۱۰). (۱۱) ۲- وروی عن الصادق علیه السلام أنّه سُئل: لِمَ سمّیت الکعبة کعبة؟ قال: لأنّها مربّعة.

۱- ۱ سورة آل عمران: ۹۶.

۲- ۲ تفسیر القمّی ۲: ۲۶۸، بحار الأنوار ۵۷: ۶۴ ح ۳۵، و ۹۹: ۷۶ ح ۱.

۳- ۳ الکافی ۴: ۲۱۱ ضمن ح ۱۸.

۴- ۴ الخصال: ۲۷۸ ح ۲۲، بحار الأنوار ۹۹: ۷۷ ح ۵.

۵- ۵ النهایة لابن الأثیر ۱: ۱۲۷- بسس-، لسان العرب ۶: ۲۷- بسس-.

وقال الفیروزآبادی فی القاموس المحیط ۲: ۲۰۱: الباسّة والبسّاسة: مکّة شرّفها اللّه تعالی.

۶- ۶ النهایة لابن الأثیر ۵: ۴۷- نسس-، لسان العرب ۶: ۲۳۱- نسس-.

۷- ۷ القاموس المحیط ۲: ۲۵۴- نسس-.

وقال الصاحب بن عبّاد فی المحیط فی اللغة ۸: ۲۵۱: والنسّاسة من أسماء مکّة، وهی الناسّة أیضاً.

وقال الجوهریّ فی الصحاح ۳: ۹۸۳: ویقال لمکّة الناسّة لقلّة الماء بها.

وقال ابن‌منظور فی‌لسان العرب ۶: ۲۳۱: الناسّة والنسّاسة- الأخیرة عن ثعلب- من أسماء مکّة لقلّة مائها.

۸- ۸ الکافی ۴: ۲۱۱ ضمن ح ۱۸، الخصال: ۲۷۸ ذ ح ۲۲، بحار الأنوار ۹۹: ۷۷ ذ ح ۵.

۹- ۹ النهايهٔ لابن الأثير ۲: ۲۱۰- رحم-.

وقـال ابن منظور فى لسان العرب ۱۲: ۲۳۲: امّ رُحْم وامّ الرُحْم: مكّهٔ... والمرحومهٔ: من أسـماء مدينهٔ سيّدنا رسول اللّه صلى الله عليه و آله.

وكذا قال الفيروزآبادى فى القاموس المحيط ۴: ۱۱۸- رحم-.

۱۰- ۱۰ أى مرتفعهٔ شرفاً وصورهٔ فى وسطها بالنظر إلى المشرقىّ والمغربىّ.

۱۱- ۱۱ من لا يحضره الفقيه ۲: ۱۹۰ ح ۲۱۰۹، الأمالى للصدوق: ۲۵۵ ضمن ح ۱، علل الشرائع: ۳۹۸ ب ۱۳۸ ح ۱، روضهٔ المتّقين ۴: ۳، بحار الأنوار ۹: ۲۹۴ ح ۵، و ۹۹: ۵۷ ح ۸.

ص: ۱۷۳

فقیل له: ولِمَ صارت مربّعة؟

قال: لأنّها بحذاء البیت المعمور، وهو مربّع.

فقیل له: ولِمَ صار البیت المعمور مربّعاً؟

قال: لأنّه بحذاء العرش، وهو مربّع.

فقیل له: ولِمَ صار العرش مربّعاً؟

قال: لأنّ الکلمات التی بُنی علیها الإسلام أربع؛ وهی: سبحان اللّه، والحمد للّه، ولا إله إلّااللّه، واللّه أکبر (۱). (۲) ۳- وفی حدیث قَیْلة: «واللّه لا ـ یزال کَعْبُکِ عالیاً» هو دعاء لها بالشرف والعلوّ. والأصل فیه کعب القَناة، وهو انبوبها وما بین کلّ عُقْدتین منها کعب. وکلّ شیء علا وارتفع فهو کعب. ومنه سمّیت الکعبة للبیت الحرام؛ وقیل: سمّیت به لتکعیبها، أی تربیعها (۳).

۸- باب علّة تسمیة بیت اللّه الحرام

۱- عن حنان، قال: قلت لأبی عبداللّه علیه السلام: لِمَ سمّی بیت اللّه الحرام؟

قال: لأنّه حرِّم علی المشرکین أن یدخلوه (۴). (۵) ۹- باب علّة تسمیة البیت العتیق

۱- عن أبی خدیجة (۶)، عن أبی عبداللّه علیه السلام، قال: قلت له: لِمَ سمّی البیت العتیق؟

قال: إنّ اللّه عزّوجلّ أنزل الحجر الأسود لآدم من الجنّة، وکان البیت درّة بیضاء، فرفعه اللّه إلی السماء وبقی اسّه فهو بحیال هذا البیت، یدخله کلّ یوم سبعون ألف ملک لا یرجعون إلیه أبداً، فأمر اللّه إبراهیم وإسماعیل یبنیان البیت علی القواعد، وإنّما سمّی البیت العتیق؛ لأنّه اعتق من الغرق (۷). (۸) ۲- عن أبی حمزة الثمالیّ، قال: قلت لأبی جعفر علیه السلام فی المسجد الحرام: لأیّ شیء سمّاه اللّه العتیق؟

۱- ۱ قال المولی محمد تقی المجلسی:... ویمکن أن یکون العرش هنا بمعنی العلم، وتکون المحاذاة معنویّة کما یظهر من قوله علیه السلام: «صار العرش- إلی قوله:- أربع» لأنّ کلمة «سبحان اللّه!» تدلّ علی الصفات التنزیهیّة الجلالیّة، و «الحمد للّه» تدلّ علی الصفات الجمالیّة، لأنّه یدلّ علی أنّ جمیع المحامد والإثنیّة مختصّة به تعالی، فیدلّ علی أنّ جمیع الکمالات له وهو مستحقّ لأن یعبد بجمیع أنواع العبادات، فیدلّ علی جمیع التکالیف، وکلمة التوحید تدلّ علی أنّه واجب الوجود بالذات، وعلی وحدته تعالی بل علی جمیع صفات الجلال والإکرام، ومستحقّ لأن لا یشرک به أحد بالشرک الجلیّ والخفیّ، وکذا التکبیر مع دلالته علی أنّ ذاته تعالی أعلی وأرفع من أن تصل إلیه العقول والأفهام، فظهر أنّ جمیع العلوم مندرجة فیها فتکون المحاذاة للعرش من حیث الدلالة علیه.

۲- ۲ من لا یحضره الفقیه ۲: ۱۹۰ ح ۲۱۱۰، علل الشرائع: ۳۹۸ ب ۱۳۸ ح ۲، روضة المتّقین ۴: ۳، بحار الأنوار ۵۸: ۵ ح ۲، و ۹۹: ۵۷ ح ۹.

۳- ۳ الغریبین للهرویّ: ۸۴۲- کعب-، النهایة لابن الأثیر ۴: ۱۷۹- کعب-.

وقال الصاحب بن عبّاد فی المحیط فی اللغة ۱: ۲۳۱: ویقال: کعبة البیت الحرام: تربّع أعلاه.

۴- ۴ وقیل: لاحترامه وحرمة القتال فی الأشهر الحرم لأجله.

۵- ۵ من لا یحضره الفقیه ۲: ۱۹۱ ح ۲۱۱۱، علل الشرائع: ۳۹۸ ب ۱۳۹ ح ۱، روضة المتّقین ۴: ۴، بحار الأنوار ۹۹: ۵۹ ج ۲۰.

۶- ۶ هو: أبو سلمة سالم بن مکرم بن عبداللَّه، مولی بنی أسد. «رجال النجاشیّ: ۱۸۸ رقم ۵۰۱».

۷- ۷ وذلک فی طوفان نوح علیه السلام ولم یقربه الماء کما فی حائر الحسین صلوات اللَّه علیه.

۸- ۸ الکافی ۴: ۱۸۸ ح ۲، من لا یحضره الفقیه ۲: ۱۹۱ ح ۲۱۱۲، علل الشرائع: ۳۹۸ ب ۱۴۰ ح ۱، روضة المتّقین ۴: ۴، بحار الأنوار ۵۸: ۵۷ ح ۲، و ۹۹: ۵۸ ح ۱۲، مرآة العقول ۱۷: ۱۰ ح ۲.

ص: ۱۷۴

قال: لیس من بیت وضعه اللّه علی وجه الأرض إلّاله ربّ وسکّان یسکنونه غیر هذا البیت، فإنّه لا یسکنه أحد ولا ربّ له إلّااللّه وهو الحرام، وقال: إنّ اللّه خلقه قبل الخلق، ثمّ خلق اللّه الأرض من بعده فدحاها من تحته (۱).

۳- عن أبان بن عثمان، عمّن أخبره، عن أبی جعفر علیه السلام، قال: قلت له: لِمَ سمّی البیت العتیق؟

قال: لأنّه بیت حرّ عتیق من الناس، ولم یملکه أحد (۲).

۴- عن سعید الأعرج، عن أبی عبداللّه علیه السلام، قال: إنّما سمّی البیت العتیق؛ لأنّه اعتق من الغرق واعتق الحرم معه، کفّ عنه الماء (۳).

۵- عن ذریح بن یزید المحاربیّ، عن أبی عبداللّه علیه السلام قال: إنّ اللّه عزّوجلّ أغرق الأرض کلّها یوم نوح علیه السلام إلّاالبیت، فیومئذ سمّی العتیق؛ لأنّه اعتق یومئذ من الغرق.

فقلت له: أصعد إلی السماء؟

فقال: لا، لم یصل إلیه الماء ورفع عنه (۴).

۱۰- باب علّة تسمیة الحطیم

۱- عن معاویة بن عمّار، قال: سألت أبا عبداللّه علیه السلام عن الحطیم، فقال: هو ما بین الحجر الأسود وباب البیت.

قال: وسألته: لِمَ سمّی الحطیم؟

قال: لأنّ الناس یحطم بعضهم بعضاً هنالک (۵).

۲- وفی حدیث تَوبة کعب بن مالک: «إذن یحطمکم الناس»: أی یدوسونکم ویزدحمون علیکم.

ومنه سمّی حطیم مکّة، وهو ما بین الرکن والباب.

وقیل: هو الحجر الُمخرج منها، سمّی به؛ لأنّ البیت رُفع وتُرک هو محطوماً.

وقیل: لأنّ العرب کانت تطرَح فیه ما طافت به من الثیاب فتبقی حتّی تَنْحَطِم

۱- ۱ الکافی ۴: ۱۸۹ ح ۵، علل الشرائع: ۳۹۹ ح ۲، روضة المتّقین ۴: ۴، بحار الأنوار ۵۷: ۶۴ ح ۴۰، و ۹۹: ۵۸ ح ۱۳، مرآة العقول ۱۷: ۱۱ ح ۵.

۲- ۲ المحاسن ۲: ۶۶ ح ۱۱۴، الکافی ۴: ۱۸۹ ح ۶، من لا یحضره الفقیه ۲: ۱۹۱ ح ۲۱۱۳، علل الشرائع: ۳۹۹ ح ۳، روضة المتّقین ۴: ۵، وسائل الشیعة ۱۳: ۲۴۱ ح ۱۳، بحار الأنوار ۹۹: ۵۸ ح ۱۶ وص ۵۹ ح ۱۷، مرآة العقول ۱۷: ۱۲ ح ۶.

۳- ۳ المحاسن ۲: ۶۶ ح ۱۱۲، علل الشرائع: ۳۹۹ ح ۴، بحار الأنوار ۹۹: ۵۹ ح ۱۸ و ۱۹.

۴- ۴ علل الشرائع: ۳۹۹ ح ۵، قصص الأنبیاء للراوندی: ۸۳ ح ۷۳، بحار الأنوار ۱۱: ۳۲۵ ح ۴۳، و ۹۹: ۵۸ ح ۱۴ و ۱۵.

۵- ۵ الکافی ۴: ۵۲۷ ح ۱۲، من لا یحضره الفقیه ۲: ۱۹۲ صدر ح ۲۱۱۵، علل الشرائع: ۴۰۰ ب ۱۴۱ ح ۱، تهذیب الأحکام ۵: ۴۵۱ ح ۲۲۱، روضة المتّقین ۴: ۱۳، وسائل الشیعة ۵: ۲۷۴ ح ۶، بحار الأنوار ۹۹: ۲۲۹ ح ۲، مرآة العقول ۱۸: ۲۲۴ ح ۱۲، ملاذ الأخیار ۸: ۴۸۹ ح ۲۲۱.

ص: ۱۷۵

بطول الزمان... (۱).

۱۱- باب علّة تسمية الحجّ (۲)

۱- عن أبان بن عثمان، عمّن أخبره، عن أبى جعفر عليه السلام، قال: قلت له: لِمَ سمّى الحجّ حجّاً؟

قال: الحجّ الفلَاح.

يقال: حجّ فلان أى أفلح فلان (۳).

۱۲- باب علّة تسمية الصفا والمروة

۱- عن عبد الحميد بن أبى ديلم، عن أبى عبداللّه عليه السلام، قال: سمّى الصفا صفا؛ لأنّ المصطفى آدم عليه السلام هبط عليه، فقطع (۴) للجبل اسم من اسم آدم عليه السلام، يقول اللّه تعالى: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (۵) وهبطت حوّاء على المروة، وإنّما سمّيت المروة؛ لأنّ المرأة هبطت عليها، فقطع للجبل اسم من اسم المرأة (۶).

۱۳- باب علّة تسمية يوم التروية

۱- عن عبيداللّه بن علىّ الحلبىّ، عن أبى عبداللّه عليه السلام، قال: سألته: لِمَ سمّى يوم التروية يوم التروية؟

قال: لأنّه لم يكن بعرفات ماء، وكانوا يستقون من مكّة من الماء لريّهم، وكان يقول بعضهم لبعضٍ: تروّيتم تروّيتم، فسمّى يوم التروية لذلك (۷).

۲- عن معاوية بن عمّار، عن أبى عبداللّه عليه السلام، قال: سمّيت التروية؛ لأنّ جبرئيل عليه السلام أتى إبراهيم عليه السلام يوم التروية، فقال: يا إبراهيم، ارتو من الماء ولأهلك، ولم يكن بين مكّة وعرفات ماء... (۸).

۳- فى حديث ابن عمر: «كان يلبّى بالحجّ يوم التروية» هو اليوم الثامن من ذى الحجّة، سمّى به؛ لأنّهم كانوا يرتوون فيه من الماء لما بعده: أى يَسْقون ويَسْتَقون (۹).

۱- ۱ النهاية لابن الأثير ۱: ۴۰۳.

۲- ۲ لقد ذكر أمير المؤمنين علىّ عليه السلام الحجّ وفضله فى إحدى خطبه فى نهج البلاغة: ۴۵ قائلًا:

وفرضَ عليكم حجّ بيته الحرام، الذى جعله قبلة للأنام، يردونه ورود الأنعام، ويألهون إليه وُلُوه الحمام، وجعله سبحانه علامةً لتواضعهم لعظمته، وإذعانهم لعزّته، واختار من خلقه سمّاعاً أجابوا إليه دعوته، وصدّقوا كلمته، ووقفوا مواقف أنبيائه، وتشبّهوا بملائكته المطيفين بعرشه، يُحرزون الأرباح فى متجر عبادته، ويتبادرون عنده موعد مغفرته، جعله سبحانه وتعالى للإسلام عَلَماً، وللعائذين حَرَماً، فرض حقّه، وأوجب حجّه، وكتب عليكم وِفادته، فقال سبحانه: وللّه على الناس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلًا ومن كفر فإنّ اللّه غنى عن العالمين [سورة آل عمران: ۹۷].

۳- ۳ علل الشرائع: ۴۱۱ ب ۱۴۸ ح ۱، معانى الأخبار: ۱۷۰ ح ۱، بحار الأنوار ۹۹: ۲ ح ۱ و ۲.

۴- ۴ قال المولى محمد تقى المجلسى رحمه الله: قطع: أى اشتقّ. والمناسبة بين الصفا والمصطفى ظاهرة. وأمّا المناسبةبين المروة والمرأة يمكن أن تكون لفظيّة أو بإبدال الهمزة واواً، والأوّل أظهر. والمروة لغة: حجر أبيض برّاق.

۵- ۵ سورة آل عمران: ۳۳.

۶- ۶ المحاسن للبرقى ۲: ۶۵ ح ۱۰۹، الكافى ۴: ۱۹۰ ح ۱، من لا يحضره الفقيه ۲: ۱۹۵ ذ ح ۲۱۲۱، علل الشرائع: ۴۳۱ ب ۱۶۵ ح ۱،

روضة المتّقين ۴: ۲۳، بحار الأنوار ۱۱: ۱۹۴ ح ۴۸ وص ۲۰۵ ح ۶، و ۹۹: ۴۴ ضمن ح ۳۱ وص ۲۳۳ ح ۲، مرآة العقول ۱۷: ۱۳ ح ۱.

۷- ۷ المحاسن للبرقی ۲: ۵۶ ذ ح ۹۳ وص ۶۵ ح ۱۱۱، من لا يحضره الفقيه ۲: ۱۹۶ صدر ح ۲۱۲۵، علل الشرائع: ۴۳۵ ب ۱۷۱ ح ۱، مستطرفات السرائر: ۳۵ ح ۴۵، روضة المتّقين ۴: ۲۷، بحار الأنوار ۹۹: ۴۳ ذ ح ۲۹ وص ۲۵۴ ح ۱۹ و ۲۰.

۸- ۸ المحاسن ۲: ۶۵ ح ۱۱۰، بحار الأنوار ۹۹: ۴۴ ح ۳۲.

۹- ۹ النهاية لابن الأثير ۲: ۲۸۰.

ص: ۱۷۶

۱۴- باب علّة تسمیة مِنی

۱- عن معاویة بن عمّار، عن أبی عبداللَّه علیه السلام، قال: إنّ جبرئیل أتی إبراهیم علیه السلام، فقال: تمنّ، یا إبراهیم. فکانت تسمّی منی، فسمّاها الناس مِنی (۱).

۲- عن محمد بن سنان أنّ أبا الحسن الرضا علیه السلام کتب إلیه العلّة التی من أجلها سمّیت منی منی أنّ جبرئیل علیه السلام قال هناک: یا إبراهیم، تمنّ علی ربّک ما شئت، فتمنّی إبراهیم فی نفسه أن یجعل اللَّه مکان ابنه إسماعیل کبشاً یأمره بذبحه فداءً له، فاعطی مناه (۲).

۳- مِنیً بمکّة... سمّیت بذلک لما یُمنَی فیها من الدماء أی یُراق، وقال ثعلب:

هو من قولهم: مَنَی اللَّه علیه الموت أی قدّره، لأنّ الهَدْی یُنحر هنالک... قال ابن شمیل: سمّی مِنیً لأنّ الکبش مُنِیَ به أی ذُبح. وقال ابن عیینة: اخذ من المنایا (۳).

۴- ابن عبّاس: لأنّ جبرئیل علیه السلام لمّا أراد أن یُفارق آدم قال له: تمنّ.

قال: أتمنّی الجنّة، فسمّیت مِنیً لُامنیّة آدم (۴).

۵- ومِنی مکّة سمّیت؛ لأنّها تتّسع للناس، وقیل: لأنّها یُمنی فیها للأضاحی الذَّبح: أی یُقدَّر (۵).

۱۵- باب علّة تسمیة عرفات

۱- عن معاویة بن عمّار، قال: سألت أبا عبداللَّه علیه السلام عن عرفات لِمَ سمّیت عرفات؟

فقال: إنّ جبرئیل علیه السلام خرج بإبراهیم صلوات اللَّه علیه یوم عرفة، فلمّا زالت الشمس، قال له جبرئیل: یا إبراهیم، اعترف بذنبک واعرف مناسکک، فسمّیت عرفات لقول جبرئیل علیه السلام: اعترف، فاعترف (۶).

۲- عن عبد الحمید بن أبی الدیلم، عن أبی عبداللَّه علیه السلام:- فی حدیث طویل- قال: ثمّ انطلق به إلی عرفات فأقامه علی العرف، وقال له: إذا غربت الشمس فاعترف بذنبک سبع مرّات، ففعل ذلک آدم علیه السلام، ولذلک سمّی المعرف لأنّ؛ آدم

۱- ۱ من لا یحضره الفقیه ۲: ۱۹۷ ح ۲۱۲۶، علل الشرائع: ۴۳۵ ب ۱۷۲ ح ۱، روضة المتّقین ۴: ۲۸، بحار الأنوار ۱۲: ۱۰۸ ح ۲۵، و ۹۹: ۲۷۱ ح ۱.

۲- ۲ من لا یحضره الفقیه ۲: ۱۹۷ ح ۲۱۲۷، عیون أخبار الرضا علیه السلام ۲: ۹۱، علل الشرائع: ۴۳۵ ب ۱۷۲ ح ۲، روضة المتّقین ۴: ۲۹، بحار الأنوار ۶: ۹۷، و ۱۲: ۱۰۸ ح ۲۶، و ۹۹: ۲۷۲ ح ۴.

۳- ۳ لسان العرب ۱۵: ۲۹۳- ۲۹۴- منی-.

۴- ۴ القاموس المحیط ۴: ۳۹۲- منی-.

۵- ۵ المحیط فی اللغة ۱۰: ۴۱۷- منی-.

۶- ۶ المحاسن للبرقیّ ۲: ۶۴ ح ۱۰۸ وص ۶۵ ضمن ح ۱۱۰، من لا یحضره الفقیه ۲: ۱۹۶ ضمن ح ۲۱۲۵، علل الشرائع: ۴۳۶ ب ۱۷۳ ح ۱، روضة المتّقین ۴: ۲۷، بحار الأنوار ۱۲: ۱۰۸ ح ۲۷، و ۹۹: ۴۴ ضمن ح ۳۲ وص ۲۵۳ ح ۱۷ و ۱۸.

ص: ۱۷۷

اعترف علیه بذنبه (۱).

۳- سمّیت لأنّ آدم وحوّاء علیهما السلام تعارفا بها.

أو لقول جبرئیل لإبراهیم علیهما السلام لما علّمه المناسک: أعرفت؟ قال: عرفتُ.

أو لأنّها مقدّسة معظّمة کأنّها عُرِفَت أی طُیِّبت (۲).

۴- عن عبد الحمید بن أبی الدیلم، عن أبی عبداللّه علیه السلام- فی حدیث یأتی (۳)- قال:... ثمّ انطلق به (۴) إلی عرفات فأقامه علی العرفة، وقال له: إذا غربت الشمس فاعترف بذنبک سبع مرّات، ففعل ذلک آدم علیه السلام؛ ولذلک سمّی العرفة؛ لأنّ آدم علیه السلام اعترف علیه بذنبه، فجعل ذلک سنّة فی ولده یعترفون بذنوبهم کما اعترف أبوهم، ویسألون اللّه عزّوجلّ التوبة کما سألها أبوهم آدم علیه السلام (۵).

۱۶- باب علّة تسمیة الخَیْف (۶)

۱- عن معاویة بن عمّار، عن أبی عبداللّه علیه السلام، قال: قلت له: لِمَ سمّی الخیف خیفاً؟

قال: إنّما سمّی الخیف؛ لأنّه مرتفع عن الوادی، وکلّ ما ارتفع عن الوادی سمّی خیفاً (۷).

باب علّة تسمیة المُزْدَلِفَة

۱- عن معاویة بن عمّار، عن أبی عبداللّه علیه السلام، قال: فی حدیث إبراهیم علیه السلام: إنّ جبرئیل علیه السلام انتهی به إلی الموقف، فأقام به حتّی غربت الشمس، ثمّ أفاض به، فقال: یا إبراهیم، ازدلف إلی المشعر الحرام، فسمّیت مزدلفة (۸).

۲- عن معاویة بن عمّار، عن أبی عبداللّه علیه السلام، قال: إنّما سمّیت مزدلفة؛ لأنّهم ازدلفوا إلیها من عرفات (۹).

۳- والمزدلفة موضع بین عرفات ومنًی؛ لأنّه یتقرّب فیها إلی اللّه تعالی (۱۰).

أو لاقتراب الناس إلی منًی بعد الإفاضة (۱۱).

أو لمجیء الناس إلیها فی زلفٍ من اللیل.

۱- ۱ علل الشرائع: ۴۰۰ ب ۱۴۲ ح ۱.

ویأتی الحدیث کاملًا مع تخریجاته فی أبواب ۲ باب ۵ ح ۱.

۲- ۲ القاموس المحیط ۳: ۱۷۳- عرف-.

۳- ۳ یأتی فی باب علّة وجوب الحجّ والطواف بالبیت وجمیع المناسک.

۴- ۴ المراد أنّ جبرئیل انطلق بآدم علیهما السلام.

۵- ۵ علل الشرائع: ۴۰۰ ب ۱۴۲ ضمن ح ۱، بحار الأنوار ۱۱: ۱۶۷- ۱۶۸ ضمن ح ۱۵، و ۹۹: ۳۰ ضمن ح ۵.

۶- ۶ هو الموضع الذی فیه المسجد.

قال ابن الأثیر فی النهایة ۲: ۹۳: الخیف: ما ارتفع عن مَجْری السیل وانحدر عن غِلَظ الجبل. ومسجد منیً یسمّی مسجد الخیف؛ لأنّه فی سفح جبلها.

۷- ۷ المحاسن للبرقی ۲: ۷۱ ح ۱۲۸، من لا یحضره الفقیه ۲: ۱۹۷ ح ۲۱۲۸، علل الشرائع: ۴۳۶ ب ۱۷۴ ح ۱، روضة المتّقین ۴: ۲۹، بحار الأنوار ۹۹: ۲۷۱ ح ۲ وص ۲۷۲ ح ۳.

۸- ۸ من لا یحضره الفقیه ۲: ۱۹۶ ضمن ح ۲۱۲۵، علل الشرائع: ۴۳۶ ب ۱۷۵ ح ۱، روضهٔ المتّقین ۴: ۲۸، بحار الأنوار ۹۹: ۲۶۶ ح ۱.

۹- ۹ علل الشرائع: ۴۳۶ ب ۱۷۵ ح ۱، روضهٔ المتّقین ۴: ۲۸، بحار الأنوار ۹۹: ۲۶۶ ح ۲.

۱۰- ۱۰ النهایهٔ لابن الأثیر ۲: ۳۱۰- زلف-.

۱۱- ۱۱ المحیط فی اللغهٔ ۹: ۵۶- زلف-.

ص: ۱۷۸

أو لأنّها أرض مستویة مکنوسة، وهذا أقرب (۱).

۱۸- باب علّة تسمیة المزدلفة «جَمْعاً»

۱- عن عبد الحمید بن أبی الدیلم، عن أبی عبداللّه علیه السلام، قال: سمّیت المزدلفة جمعاً؛ لأنّ آدم علیه السلام جمع فیها بین الصلاتین: المغرب والعشاء (۲).

۲- قال الصدوق: قال أبی رضی الله عنه فی رسالته إلیَّ: إنّما سمّیت المزدلفة جمعاً؛ لأنّه یجمع فیها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتین.

۳- ویقال أیضاً للمزدلفة: جَمعٌ، لاجتماع الناس فیها (۳).

۴- جَمْع: عَلَم للمزدلفة، سمّیت به لأنّ آدم وحوّاء علیهما السلام اجتمعا بها (۴).

۵- عن عبد الحمید بن أبی الدیلم، عن أبی عبداللّه علیه السلام فی حدیث یأتی (۵)- قال: ثمّ انتهی به (۶) إلی جمع ثلث اللیل فجمع فیها بین صلاة المغرب وبین صلاة العشاء الآخرة؛ فلذلک سمّی جمعاً؛ لأنّ آدم جمع فیها بین صلاتین، فوقت العتمة فی تلک اللیلة ثلث اللیل فی ذلک الموضع (۷).

۱۹- باب علّة تسمیة الحجّ الأکبر

۱- عن حفص بن غیاث النخعیّ القاضیّ، قال: سألت أبا عبداللّه علیه السلام عن قول اللّه تعالی: وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ (۸)

فقال:

قال أمیر المؤمنین علیه السلام: کنت أنا الأذان (۹) فی الناس.

قلت: فما معنی هذه اللفظة «الحجّ الأکبر»؟

قال: إنّما سمّی الأکبر؛ لأنّها کانت سنة حجّ فیها المسلمون والمشرکون ولم یحجّ المشرکون بعد تلک السنة (۱۰).

۲۰- باب علّة تسمیة الطائف

۱- عن إبراهیم بن مهزیار، عن أخیه، بإسناده، قال: قال أبو الحسن علیه السلام فی الطائف: أتدری لِمَ سُمّی الطائف؟

قلت: لا.

۱- ۱ القاموس المحیط ۳: ۱۴۹- زلف-.

۲- ۲ علل الشرائع: ۴۳۷ ب ۱۷۶ ح ۱، بحار الأنوار ۹۹: ۲۶۶ ح ۳.

۳- ۳ الصحاح للجوهری ۳: ۱۱۹۸- جمع-.

۴- ۴ النهایة لابن الأثیر ۱: ۲۹۶- جمع-.

۵- ۵ یأتی فی باب علّة وجوب الحجّ والطواف بالبیت وجمیع المناسک ح ۱.

۶- ۶ المراد أنّ جبرئیل انتهی بآدم علیهما السلام.

۷- ۷ علل الشرائع: ۴۰۰ ب ۱۴۲ ح ۱، بحار الأنوار ۱۱: ۱۶۸ ح ۱۵، و ۹۹: ۳۰ ح ۵.

۸- ۸ سورة التوبة: ۲.

۹- ۹ أی المؤذّن لما بعثه رسول اللَّه صلی الله علیه و آله خلف أبی بکر وأخذ سورة براءة منه ورجع أبو بکر وقال: هل نزل فیَّ شیء؟ فقال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: أمرنی ربّی أن لا یبلغ عنّی إلّاأنا أو رجل منّی.

انظر: مسند أحمد بن حنبل ۱: ۳ و ۱۵۱، و ۲: ۲۹۹.

۱۰- ۱۰ المحاسن للبرقی ۲: ۵۲ ح ۸۲، من لا یحضره الفقیه ۲: ۱۹۸ ح ۲۱۳۲، علل الشرائع: ۴۴۲ ب ۱۸۸ ح ۱، معانی الأخبار: ۲۹۶ ذ ح ۵، روضة المتّقین ۴: ۳۲، تفسیر البرهان ۲: ۷۳۳ ذ ح ۲۷ وص ۷۳۵ ح ۳۳، بحار الأنوار ۳۵: ۲۹۳ ح ۹، و ۹۹: ۳۲۲ ح ۷ وص ۳۲۳ ح ۸.

ص: ۱۷۹

فقال: إنّ إبراهیم علیه السلام دعا ربّه عزّوجلّ أن یرزق أهله من کلّ الثمرات فقطع لهم قطعة من الاردن، فأقبلت حتّی طافت بالبیت سبعاً، ثمّ أقرّها اللَّه تعالی فی موضعها، فإنّما سمّیت الطائف للطواف بالبیت (۱).

۲- عن أحمد بن محمد، قال: قال الرضا علیه السلام: أتدری لِمَ سُمّیت الطائف طائفاً؟

قلت: لا.

قال: لأنّ اللَّه تعالی لمّا دعاه إبراهیم علیه السلام أن یرزق أهله من کلّ الثمرات أمر بقطعة من الاردن، فسارت بثمارها حتی طافت بالبیت، ثمّ أمرها أن تنصرف إلی هذا الموضع الذی سمّی الطائف، فلذلک سمّی الطائف (۲).

۲۱- باب علّة تسمیة الأبطح

۱- عن عبد الحمید بن أبی الدیلم، عن أبی عبداللَّه علیه السلام، قال: سُمّی الأبطح أبطح؛ لأنّ آدم علیه السلام امر أن ینبطح (۳) فی بطحاء جَمْع، فانبطح حتّی انفجر الصبح، ثمّ امر أن یصعد جبل جمع، وامر إذا طلعت علیه الشمس أن یعترف بذنبه، ففعل ذلک آدم (۴) علیه السلام، فأرسل اللَّه تعالی ناراً من السماء فقبضت قربان آدم علیه السلام (۵).

۲۲- باب علّة تسمیة مسجد الفَضِیخ (۶)

۱- عن أبی بصیر لیث المرادی، قال: قلت لأبی عبداللَّه علیه السلام: لِمَ سُمّی مسجد الفضیخ مسجد الفضیخ؟

قال: النخل سمّی الفضیخ فلذلک سمّیه (۷). (۸)۲۳- باب علّة تسمیة التلبیة

۱- عن أبان بن عثمان، عمّن أخبره، عن أبی جعفر علیه السلام، قال: قلت له: لِمَ سمّیت التلبیة تلبیة؟

قال علیه السلام: إجابة أجاب موسی علیه السلام ربّه عزّوجلّ (۹).

۲- وسمّیت التلبیة إجابة؛ لأنّه أجاب موسی علیه السلام ربّه عزّوجلّ وقال:

لبّیک (۱۰).

۱- ۱ المحاسن ۲: ۷۱ ح ۱۳۰، قرب الاسناد: ۳۶۱ ح ۱۲۹۱، تفسیر العیّاشی ۱: ۶۰ ح ۹۷، علل الشرائع: ۴۴۲ ب ۱۸۹ ح ۱، بحار الأنوار ۱۲: ۱۰۹ ح ۳۰، و ۹۹: ۷۹ ح ۱۸- ۲۰ وص ۸۰ ح ۲۱.

۲- ۲ علل الشرائع: ۴۴۲ ب ۱۸۹ ح ۲، بحار الأنوار ۱۲: ۱۰۹ ح ۳۱، و ۹۹: ۸۰ ح ۲۲.

۳- ۳ لعلّ المراد من الانبطاح هنا مطلق التمدّد للنوم وإن لم یکن علی الوجه، مع أنّه یحتمل أن لا یکون ذلکمکروهاً فی شرعه علیه السلام.

وقیل: هو کنایة عن الاستقرار علی الأرض للدعاء لا للنوم.

وقیل: کنایة عن طول الرکوع والسجود فی الصلاة.

۴- ۴ زاد فی المحاسن: وإنّما جعله اعترافاً لیکون سنّة فی ولده، فقرَّب قرباناً.

۵- ۵ المحاسن للبرقی ۲: ۶۵ ذ ح ۱۰۹، الکافی ۴: ۱۹۳ ضمن ح ۲، من لا یحضره الفقیه ۲: ۱۹۹ صدر ح ۲۱۳۴، علل الشرائع: ۴۴۴ ب ۱۹۴ ح ۱، روضة المتّقین ۴: ۳۴- ۳۵، بحار الأنوار ۱۱: ۱۶۶ ح ۱۲، و ۹۹: ۴۴ ضمن ح ۳۱ وص ۸۰ ح ۲۳، مرآة العقول ۱۷: ۱۶ ضمن ح ۲.

۶- ۶ قال الطریحی فی مجمع البحرین ۲: ۴۴۰: هو مسجد من مساجد المدینة، روی أنّ فیه رُدّت الشمس لأمیر المؤمنین علیه السلام...

۷- ۷ قال المجلسی رحمه الله: الأشهر فی وجه التسمیة هو أنّ الفضخ الکسر، والفضیخ شراب یتّخذ من بسر مفضوخ، وکانوا فی الجاهلیة یفضخون فیه التمر لذلک فبه سمّی المسجد.

وأمّا الفضیخ بمعنی النخل فلیس فیما عندنا من کتب اللغة، ولا یبعد أن یکون اسماً لنخلة مخصوصة کانت فیه. ویؤیّده أنّ فی الکافی: لنخل یسمّی الفضیخ.

۸- ۸ الکافی ۴: ۵۶۱ ح ۵، علل الشرائع: ۴۵۹ ب ۲۲۰ ح ۱، تهذیب الأحکام ۶: ۱۸ ح ۲۰، بحار الأنوار ۱۰۰: ۲۱۴ ح ۵، مرآة العقول ۱۸: ۲۷۶ ح ۵، ملاذ الأخیار ۹: ۴۶ ح ۲۰.

۹- ۹ علل الشرائع: ۴۱۸ ح ۴، وسائل الشیعة ۱۲: ۳۷۶ ح ۴، بحار الأنوار ۱۳: ۱۰ ح ۱۱، و ۹۹: ۱۸۵ ح ۱۲.

۱۰- ۱۰ من لا یحضره الفقیه ۲: ۲۳۵ ذ ح ۲۲۸۴، روضة المتّقین ۴: ۱۱۵.

ص: ۱۸۰

الهوامش:

ص: ۱۸۶

ظاهرة الحجّ

ظاهرة الحجّ دراسة سوسيولوجيّة

ظاهرة الحجّ دراسة سوسيولوجيّة

الدكتور حسن الضيقة

مقدّمة

إنّ القهر العسكرى والسياسى والاقتصادى الذى مارسه النظام الغربى المعاصر على المجتمع الإسلامى فى القرون الأخيرة، بلغ أوجه فى الفترة التى تلت الحرب العالميّة الأولى... فقد تمكّن النظام الغربى أثناء هذه الفترة من إحكام سيطرته على الجزء الأكبر من المجتمع الإسلامى عبر قواه المباشرة أو عبر القوى السياسيّة المحلّية التى أفرزها فى سياق القهر هذا. وكان من الطبيعى أن تنمو وتزدهر فى ربوع العالم الإسلامى كلّ المدارس الفكريّة المولعة بتبرير وتدعيم وتسويق نظام القهر هذا. طبعاً هذا لا يعنى أنّ الحالة الإسلاميّة آلت إلى الفناء، بل انكمشت ململمة جراحها العميقة وجاهدة فى استيعاب دروس المعركة الكبيرة، التى أدت إلى هزيمة العالم الإسلامى أمام جبروت المجتمع الغربى المعاصر، ممهّدة الطريق لنهضة جديدة، انتقلت تدريجاً من حالات المقاومة عبر هذه النقطة أو تلك وصولًا إلى حالة النهوض الشامل وعلى كلّ المستويات. والنهوض الشامل يعنى قدرة العالم الإسلامى على بلورة حركة إسلاميّة متكاملة قادرة على فرض نموذجها

ص: ۱۸۷

الإسلامی الأصیل علی مستوی جمیع التحدیّات التی یواجهها الفرد أو الأمّـة. ولعلّ أحـد تعبیرات هـذه الحرکة الإسلامیّة المتکاملة تدشین العالم الإسلامی بدایـة جدیـدة لنشاطه الإبـداعی التوحیـدی فی مجال علوم الإنسان، تعید مسیرة الفکر الإسلامی إلی نصابها الطبیعی متخطیة بذلک حالة الوهن والضعف السابقتین أو حالة المقاومة السلبیّة- رغم أهمّیتها الکبیرة فی فترة الهزیمة- إلی حالة من النموّ والتفتّح الإیجابی الذی ینسج یوماً بعد یوم مزیداً من خیوط الانعتاق والحریّة حول محور التوحید ومحور الإسلام. ثمّ لیتقدّم بعد ذلک معلناً الخروج علی الفلسفات الوثنیّة المعاصرة مفنّداً إیّاها، مظهراً تناقضاتها متجاوزاً إیّاها تجاوزاً توحیدیّاً خالصاً.

إنّ تثبیت الحالـة الإسلامیّة والارتقاء بها إلی مستوی الأمّة، یضع بین أیدی الجیل الذی نحن منه کثیراً من الخبرات الفکریّة التی تحثّنا للعمل علی بلورة آفاق عملنا الفکری بمایتناسب ویواکب حرکة الأمّة ونهضتها المبارکة.

ولیس ما یمنعنا من أن ننکبَّ علی دراسة الحالة الاسلامیّة الضاجّة بالحیاة، هادفین إلی الإسهام ولو بنصیب فی عملیّة تحریر الشخصیّة الفکریّـة للأمّـة الإسلامیّة من قیود الفکر الوثنی المعاصر علی هـدی خطّ التوحیـد والعـدل، خطّ العبودیّـة للّهوالخروج علی طواغیت العصر.

إنّ السموم والآفات والاختلالات المختلفة التی زرعتها الفلسفات الغربیّة المعاصرة سواء کانت لیبرالیّة أم قومیّة اشتراکیّة أم شیوعیّة فی جنبات الأمّـة الإسلامیّة، لا ـ بدّ أن تتعمّق وتترکّز مواجهتنا لها لیس علی المستوی العقائدی والفلسفی فقط، بل أیضاً علی مستوی تعبیرات حرکة الأمّة ونهضتها فی معاقل العلوم الإنسانیّة المختلفة وتفاصیل أبنیتها الجزئیّة کی نحکم المعرکة باتّجاهین:

الأوّل: سدّ جمیع الثغرات حتّی التفصیلیّة منها، والتی یمکن أن تشکّل أماکن تسرب لوحوش الوثنیّة المعاصرة.

ص: ۱۸۸

والثانی: لاستکمال أدوات الصراع الفکری فی مواجهة طغیان الفکر الفرعونی المعاصر.

من هنا نری أنّ تعمیق فهمنا لظاهرة الحجّ، بهدف تکوین أفق موسوعی، یسدّ ثغرة کبیرة فی الذاکرة الفکریّة ویعطی للمزاج الإبداعی الإسلامی دفعة مهمّة للأمام تحصیناً لشخصیتنا الفکریّة وتدعیماً لقوّتها فی مواجهة جمیع الأفکار الخبیثة التی بثّتها الوثنیّة المعاصرة فی ثنایا الجسد الإسلامی حول عقیدته وفکره وشخصیّته.

المجتمع التوحیدی (تعریف)

المجتمع التوحیدی، هو المجتمع الذی یستمدّ من القرآن الکریم أسس وقواعد تکوینه الکلّیة، ویحاول التواصل مع هذا النصّ فی عقیدته وعبادته، فی تشریعاته ونظامه، وفی نظمه الخلقیة والسلوکیّة. کما یستمدّ المجتمع التوحیدی من القرآن الکریم «منهجاً» و «نظرة» محددتین؛ بهما یواجه هذا المجتمع قضایاه المختلفة، وعلی هدیهما یتعامل مع الآخرین.

إنّ هذه العقیدة وهذا المنهج یزودان المجتمع التوحیدی بنظرة معیّنة للإنسان والأمّة، والوجود والکون، والقضایا المختلفة التی یواجهها. بذلک لا یکون المجتمع التوحیدی عبارة عن مجموعة «المسلمین»، بل یتخطّی ذلک إلی حالة اجتماعیّة تاریخیّة کلیّة، تعبر عن نفسها فی مختلف المجالات والمیادین العقیدیّة والثقافیّة والاقتصادیّة والسیاسیّة والفنّیة والفقهیّة «إنّ التصور الإسلامی للألوهیّة وللوجود الکونی وللحیاة، وللإنسان... تصوّر شامل کامل. ولکنّه کذلک تصوّر واقعی إیجابی».

- «لا إله إلّااللَّه»:

أی ردّ الحاکمیّة للَّهفی أمرهم کلّه، طرد المعتدین علی سلطان اللَّه بادّعاء هذا الحقّ لأنفسهم، إقرارها فی ضمائرهم وشعائرهم، وإقرارها فی أوضاعهم وواقعهم.

ص: ۱۸۹

إن الحكم إلّاللّهأمرَ ألّاتعبدوا إلّاإيّاه ذلك الدين القيّم... (۱) ومن لم يحكم بما أنزل اللّه فأولئك هم الكافرون (۲).

فإن تنازعتم فی شیء فردّوه إلی اللّه والرسول (۳).

وخلق كلّ شیء فقدّره تقديراً (۴).

ملاحظة أوّلية

۱- يعتبر المسلمون أنّ القرآن الكريم وحی إلهی يخطّط (نظاماً شاملًا) لحياتهم. ولكنّ المجتمع الإسلامی التاريخی، رأی فی «حواره» مع النصّ القرآنی الكريم إطارين:

الإطار الأوّل: يشمل مجموع العقائد والكلّيات والأسس.

وإطاراً ثانياً: ينطوی علی جملة فرائض وتشريعات تفصيليّة.

وهذا ما يطرح علی الباحث سؤالًا وهو: كيف تعامل المسلمون مع العقائد والكلّيات والأسس العامّة؟

يری المسلمون أنّ المشكلة محسومة فيما يخصّ الفرائض والتشريعات، ولكنّه يطرح الإشكال فيما يخصّ الإطار الأوّل، أیمجموعة العقائد والكلّيات والأسس، إذ كيف يمكن للمسلمين فی «الزمان والمكان» أن يستلوا من هذه الكلّيات قواعد تفصيليّة زمنية؟

۲- يعتبر المسلمون أنّ التجربة المحمّدية التاريخيّة، هی الشكل الأرقی للحوار ما بين المسلم وبين كلّيات النصّ القرآنی الكريم، إذ بلور وجسّد الرسول فی دعوته وممارساته المختلفة، نهجاً وقواعد تاريخية، إليها يرجع المسلمون فی الزمان والمكان، ليتشكلوا منهاجاً وعقيدة وسلوكاً بما يسمح لهم بالتواصل مع النصّ القرآنی بأرقی الأشكال التی عرفت فی التاريخ الإسلامی.

إذاً هنا تتوسط التجربة المحمّدية العلاقة ما بين المسلمين فی ظروفهم التاريخية المختلفة، وما بين النصّ القرآنی الكريم، تشريعاً، ومنهاجاً وسلوكاً.

۱- ۱ يوسف: ۴۰.

۲- ۲ المائدة: ۴۴.

۳- ۳ النساء: ۵۹.

۴- ۴ الفرقان: ۲.

ص: ۱۹۰

وبـذلك يتقـدم المجتمع التوحيدى خطوات كبيرة فى حلّ إشـكاليّة العلاقة ما بين الظرفى والزمنى والمحدود والخاص (أى التاريخى) وما بين الكلّى والمطلق والعام (القرآن الكريم).

۳- يطرح المسـلمون سؤالًا حول كيفيّـة حـلّ المعضـلات التى لم يواجههـا الرسول فى عمره، وواجهت المسـلمين فيما بعـد. هنا يرجع المسلمون إلى مقولتى:

الإجماع والاجتهاد.

۴- الإجماع: «هو اتّفاق المجتهدين من هذه الأمّة فى عصـر من العصور على كلّ حكم شـرعى، والاتفاق هو الاشتراك فى الاعتقاد أو القول أو الفعل».

۵- الاجتهاد أىالاجتهاد فى الظرف والمكان، على ضوء ما تقدّم من نصّ وسنّة وإجماع، وفق شروط و مقاييس محدّدة.

الحجّ كظاهرة

يحتلّ الحجّ كفريضة موقعاً أساسـياً فى بناء وحركة المجتمع التوحيدى، إذ تعتبر هذه الفريضة أحد أركان الإسـلام، فالجماعة المسـلمة تتعامل مع الحجّ باعتباره فريضة على كلّ مسلم ومسلمة إلى «يوم الدين»، مهما تغيّرت الظروف وتقلبت الأحوال.

وللّه على الناس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلًا ومن كفر فإنّ اللّه غنىّ عن العالمين (۱).

ويتواصل الحجّ مع منظومة عبادات لدى المسـلمين، تبدأ بالصلاة والصوم، وتتوج بالحجّ. إلّاأنّ هذه العبادات المختلفة، رغم ما يجمعها من خصـائص مشتركـة، يبقى لكلّ منها خاصّـية وفرادة، تتطلّب من الباحث والعالم إعمال الفكر من أجل تحديـد هـذه الخاصّـية؛ لـذا فالحجّ، كظاهرة يمكننا القول: إنّها فى الوقت الذى تندرج فيه ضـمن نظام أعم من العبادات تحمل منطقها وقواعدها ووظائفها المميّزة، إلّاأنّنا معنيّون فى الوقت نفسه بكشف أبعاد وخصائص وسمات هذه

۱- ۱ آلعمران: ۹۷.

ص: ۱۹۱

الظاهرة بالذات؛ لحجّة منطقها الذى تتواصل فيه مع غيرها من العبادات من جهة، ولحجّة فرادتها وتميزها من جهة أخرى.

إنّ هـذه المنظومـة من العبـادات تتبـدّى للوهلـة الأولى بالنسبة للبـاحث، على أنّهـا مجموعـة عبادات فرديّـة متناثرة، لا يجمعها جامع، وبالتالى، فبإمكاننا مواجهتها معرفياً، كممارسـة فرديّـة، انطلاقاً من منهـج نفسـى- ثقافى، نظراً «لطبيعتها» هذه أو على أنّها امتداد لتجربة مجتمع فى مرحلة معيّنة من التاريخ على المسـتوى الأيديولوجى. وبالتالى فإنّنا إمّا أن نعتبرها ظاهرة تاريخيّة انتهت بانتهاء المرحلة التى ولـدتها، وإمّا أن نعتبرها اسـتمراراً لبعض الشـعائر والمعتقـدات التى كانت سائـدة فى مرحلـة معيّنـة من تاريـخ المجتمع الذى وَلَّدَ هذه الممارسة.

ولكن مراجعـة دقيقـة لمعطيـات الواقع المُعـاش من قبـل المسـلمين وغير المسـلمين من جهـة، ولمعطيـات الحقب التاريخيـة المختلفـة، تكشف لنا أنّ ظاهرة الحـجّ، تتّسم بالاسـتمرارية التاريخيّـة من جهـة، وبتعدد الأبعاد الاجتماعيّة التى تنطوى عليها هذه الظاهرة من جهة أخرى، بحيث تغـدو هـذه الظاهرة إحدى الظواهر الأساسيّة، التى يتكثف فيها وعبر أشـكالها المختلفة المنطق العام أو الأوليات العامّة، التى تنظم البناء المجتمعى التوحيـدى بكليته، من عقائـد وفقه، واقتصاد وسـياسة، وفنون ومعاناة فرديـة وجماعيّـة معاشـة. أى أنّها ظاهرة متعـدّدة الأبعاد، يمكننا أن نطال بالدراسـة لها البعـد العقدى والاجتماعى، والاقتصادى والسياسـى والنفسـى، والجمالى. كما يمكننا أن نخطو خطوة أخرى من أجـل تحديـد بنيـة هـذه الظاهرة والعناصـر المختلفـة المكونـة لهـذه الظاهرة فى «ثبوتها» وحركيتها، فى شـكلها ومضمونها.

ومن جهة أخرى، يمكننا انطلاقاً من الحيز الذى تحتلّه هذه الظاهرة فى البناء الاجتماعى العام، وانطلاقاً من جملة العلاقات والممارسات والأسس المتميّزة التى تطبع هذه الظاهرة؛ فى تدعيم وجود واستمراريّة المجتمع الإسلامى ككلّ،

ص: ۱۹۲

واستمرار «الحالة الإسلاميّة»، على مستوى الأفراد والجماعات من جهة أخرى، فى مجتمع تاريخىّ محدّد يحتضن هذه الظاهرة.

إنّ ما تقدّم، يسمح لنا بالتحرّر من المناهج السائدة فى ميادين علم النفس الغربى، والتى ترى فى ظاهرة الحجّ ظاهرة عباديّة فرديّة ومنفصلة عن ميادين الحياة الأخرى، وتعيش على هامش البناء الاجتماعى للجماعة المسلمة؛ كى نتعامل مع هذه الظاهرة بوصفها إحدى الركائز المكوّنة والخاصّة لمختلف السمات والخصائص والبنى التى تشكّل مجتمعة، البناء الاجتماعى الكلّى للجماعة المسلمة.

إنّ إحالة هذه الظاهرة إلى مجموعة طقوس وشعائر تمارس من قبل العجائز والأميين فى كثير من الكتابات الاجتماعيّة أو فى الرأى الشائع، تكشف لنا رؤية أيديولوجيّة خاطئة وعدائية فى آن واحد، تحاول تجزيئ هذه الظاهرة واختزالها إلى معطى ثقافى أو «تراثى» يتموضع داخل طيات البنية الثقافية العامّة للمجتمع.

وتذهب المدرسة الماركسية من جهة والمدرسة الاجتماعيّة الفرنسيّة من جهة أخرى (أوغست كونت، دوركهايم) إلى أبعد من ذلك، حيث ترى الماركسيّة هذه الظاهرة مخلفات وعى غير علمى ينتمى إلى حقبة تاريخيّة ماضية، وهو يستمرّ بحكم العادة أو التأخر ويلعب دور معيق للنمو الفكرى العام، وبالتالى يجب العمل على تدمير هذا النمط من الظواهر.

وهذا ما يؤدّى عند أتباع هذه المدرسة أو المتأثرين بها إلى منزلقين خطيرين:

الأوّل: ذو طابع فكرى يعمل على طمس وتغييب أبعاد هذه الظاهرة.

والثانى: ذو طابع ايديولوجى سياسى تتولّد منه مواقف وممارسات سياسيّة ذات طابع عدائى فى مواجهة المسلمين.

أمّا المدرسة الاجتماعيّة الفرنسيّة (أوغست كونت، دوركهايم...) فترسى منهجاً معيّناً يرى فى هذه الظاهرة إمّا وعياً غير علمى أو فكراً ذا طابع قهرى تفرضه المجتمعات على أفرادها، وما يؤدّى إليه ذلك من عمليّة اغتراب ومسخ

ص: ۱۹۳

لشخصيّة الفرد فى مواجهة القهر الاجتماعى العام.

إنّ تبنّى هذه المناهج، أو الاستناد إليها فى دراسة ظاهرة الحجّ، يجعل من الباحث أو المفكّر أداةً طيعة تعمل على إبعاده عن رؤية الواقع كما يعبّر عن نفسه فعليّاً، بعيداً عن كلّ تصوّر مسبق للمعطيات التاريخيّة التى تعيشها وتبنيها المجتمعات أفراد وجماعات.

التزوّد بمنهج ومفاهيم أدوات صالحة للعمل البحثى:

بعد التوصل إلى وضع تصوّر ومنهج ملائم لدراسة الظواهر المختلفة التى يحتضنها المجتمع التوحيدى، أو الحالة التوحيديّة (فى حال عدم وجود مجتمع توحيدى كامل) وما يستتبع ذلك من تطوير وبناء مفاهيم وأدوات منهجيّة مختلفة، تسمح لنا بالتقاط وتفسير مختلف عناصر وجزئيات الظاهرة التوحيديّة (منها الحجّ)، علينا أن نتقدّم خطوة أخرى من أجل معرفة ما تقدّم، كما يمارس ويعاش ويعمل فى الواقع التاريخى، حيث تأخذ الظاهرة التوحيديّة (الحجّ) أشكالها المحدّدة ومضامينها المميّزة، فى الزمان والمكان، وفقاً للخصائص المميّزة للمجتمع الإسلامى المعنى بالدراسة.

ففى الواقع التاريخى، على اختلاف حقبه، تأخذ هذه الظاهرة بالتداخل والتفاعل والصراع مع معطيات وظواهر أخرى متعددة، مشدودة إلى أطر ومرجعيات تاريخيّة مختلفة، تتعايش وتتصارع وتتكيف وتكيف النسق التوحيدى العام.

فالانتماءات العصبية، والقوميّة، والسلطويّة، وغيرها من الظواهر، تفعل فعلها فى الواقع المعاش، باتّجاه الانفعال أو الفعل فى علاقتها بالظواهر التوحيديّة المختلفة على مستوى الفرد، والجماعة، والأمّة، ممّا يعطى لهذه الظاهرة لونها المجسد.

بهذا نكون قد تمكّنا من جهة، من بلورة أدوات نظرية ومفهوميّة قادرة على

ص: ۱۹۴

ضبط ومعرفة واقع الظاهرة وحركيتها، كما تحصل فى التاريخ، بكلّ أبعادها وبكلّ تناقضاتها المعاشة فى مرحلة تاريخيّة محدّدة. وبذلك نكون قد اقتربنا من إمكانيّة صياغة استنتاجات مقاربة ومعبّرة عن واقع التجربة أو الظاهرة موضوع الدراسة.

إنّ هذا الجهد يسمح للمسلمين بمواجهة أنفسهم، عبر مواجهة تجربتهم التاريخيّة الخاصّة بالتحليل والتقييم. فالتجربة التاريخيّة للمجتمع الإسلامى ليست ذات طابع مقدس، كما أنّها بالمقابل ليست تجربة منحرفة خارجة على المرجعيّة التوحيديّة. فممّا لا شك فيه أنّ التجربة التاريخيّة للمجتمع الإسلامى مرجعها الأساسى النموذج التوحيدى، أمّا فيما يتعدى ذلك فإنّ هذه التجربة تجاذبتها نماذج اختلالية عدّة (الملك، القهر، الفساد، الظلم، العصبيّة...)، والتعمّق فى فهم أبعاد وخلفيات هذا الواقع يفسح المجال واسعاً لاستخلاص الدروس الفكريّة والمنهجيّة والسياسيّة بما يخدم متطلبات النهضة الإسلاميّة المعاصرة على طريق تواصلها مع النموذج التوحيدى، وتصفية أسباب الاختلال والتحلل العائدة إلى تجربتها الخاصّة قبل أىّ شىء آخر. فمع قناعتنا الكاملة بأنّ الوضعيّة الراهنة للمسلمين تتحكّم بها أساساً علاقات السيطرة الدولية، إلّاأنّ مشروع النهضة الإسلاميّة يجد نفسه مسؤولًا فى آن واحد عن مواجهة المستعمر ومواجهة الاختلالات العائدة إلى التجربة التاريخيّة الإسلاميّة. إنّ وضع اليد على نقاط الضعف والانحراف لا يضرّ الإسلام بشىء، بل يحرّر المسلمين من كثير من الأوثان والانحرافات التى لازمت تجربتهم التاريخيّة الرائدة، والتى أوجدت فيها ندوباً سمحت لمشاريع القهر الخارجيّة بالنفاذ وإيجاد التربة الملائمة لتأسيس قواعد سيطرتها داخل المجتمع الإسلامى نفسه.

الحجّ ظاهرة عالمية

عند كلّ ديانة من الديانات، أماكن مقدّسة يؤمها أتباع الديانة وفق تقاليد وطرق وآداب محدّدة وفى مناسبات مختلفة، فالديانات اليهوديّة ومن بعدها الديانة

ص: ۱۹۵

المسيحيّة، تعتبر أنّ بيت المقدس وما حوله من آثار ومشاهد مركزها الروحى الأصيل.

فقد جاء فى «دائرة المعارف اليهوديّة» (۱) ما يلى:

«إنّ الحجّ إلى بيت المقدس الذى كان يدعى بالزيارة يؤدى فى زمن ثلاثة أعياد (وهى عيد الحصاد، وعيد الفصح، «اليهودى»، وعيد المظال) وكان الحجّ فريضة على جميع اليهود، باستثناء الصغار الذين لم يبلغوا الحلم، والإناث، والعميان... وكانت الشريعة الموسويّة توجب على كلّ «حاج أو زائر» أن يأخذ معه «تقدمة للرب»... وهناك مشاهد وضرائح وأمكنة، تُشد إليها الرحال فى كلّ قطر وبلد».

كذلك فى الديانة المسيحيّة، فإنّ الحجّ (۲)«اسم للرحلة التى يقوم بها الإنسان لزيارة المشاهد المقدّسة، مثل مشاهدة الحياة الدنيويّة لسيّدنا عيسى عليه السلام فى فلسطين، أو مراكز زعماء الدين المقدّسة فى «روما» أو الأمكنة المقدّسة التى تنسب إلى المقبولين من الزّهاد، والشهداء».

«وقد شاعت زيارة مشاهد روما من القرن الثالثعشر على حساب زيارة الأرض المقدّسة، وإن لم تنقطع زيارة الأرض المقدّسة بتاتاً، وكانت «روما» المدينة التى تلى بيت المقدس فى الأهميّة».

أمّا الديانات الهنديّة (كالبوذيّة والبرهمية) فقد كثرت فيها المشاهد والمعابد «وأكثر هذه المشاهد والأمكنة المقدّسة على ساحل نهر «الكنج» المقدس، يجتمع فيهاأهل البلاد فى عدد هائل للاغتسال فى النهر المقدس، ومنها ما يجتمعون فيها سنويّاً، أو عدّة مرات فى السنة...» (۳).

إنّ ظاهرة الحجّ والزيارة لدى كلّ من هذه الديانات وغيرها، تتميّز بخصائص وسمات محدّدة انطلاقاً من الموقع الذى تحتلّه فى النظمة العامّة للديانة المعيّنة، كما تلعب هذه الظاهرة فى كلّ من هذه الديانات والأمم أو الشعوب التى

۱- ۱ أبوالحسن الندوى الأركان الأربعة: ۲۷۹.

۲- ۲ المصدر نفسه: ص ۲۸۲.

۳- ۳ المصدر السابق: ۲۸۵.

ص: ۱۹۶

تعتنقها أدواراً متعدّدهٔ تطال مختلف المستويات والبُنى الاجتماعيّهٔ التى تشكّل مجتمعهٔ البناء الاجتماعى العام.

الحجّ فى المجتمع التوحيدى

وأذّن فى الناس بالحجّ يأتوك رجالًا وعلى كلّ ضامر يأتين من كلّ فجّ عميق ... (۱).

المنظومهٔ الفقهيّهٔ الضابطهٔ

إنّ القيـام بالحـجّ، ليس أمراً عفوياً يقوم به المسـلم كيفمـا اتّفق، انطلاقاً من قناعاته الفرديّـهٔ، أو تأثراً بالمناخ الحقوقى والقانونى الـذى ينظم العلاقات الاجتماعيّهٔ المختلفهٔ فى البلد الذى يعيش فيه، ولا انطلاقاً من العرف الذى يحكم القبيلهٔ أو الطائفهٔ التى ينتمى إليها.

فالحجّ تحكمه منظومهٔ فقيهّهٔ تفصيليّهٔ، يتعامل معها المسلمون على أنّها شروط إلهيّهٔ ورساليّهٔ، لا يحقّ للفرد أو الجماعهٔ أو الأمّهٔ، فى أيّهٔ مرحلـهٔ من مراحل التاريـخ وفى أيّـهٔ بقعهٔ من بقاع الأرض، أن يُجروا أيَّ تعديل عليها، مهما كان الموقع الذى يتبؤونه فى السـلطهٔ وفى الحياهٔ العامّهٔ.

إنّهـا نظمـهٔ فقهيّـهٔ متكاملـهٔ، يحكمهـا منطق متكامـل مقصود بـذاته فيمـا يتخطى ارتباطات الأفراد والجماعات والشـعوب.. هـذه النظمهٔ الفقهيّهٔ، سواء درسناها فى كلّياتها أو فى جزئياتها، نجدها تتضافر وتتفاعل لتعطى للظاهرهٔ بعداً فقهياً توحيدياً، يتجاوز مجموع انفعالات وقناعات وممارسات الـذين يحجّون، دون أن يشـكل بذلك قطيعهٔ أو حالهٔ تعارض وانقطاع مع فعل الحجّ هذا، بل تشـكل هذه النظمهٔ نقطهٔ بدايهٔ ووصول لحالهٔ «الفطريّهٔ البشـريّهٔ» التى تشـكل المنظومهٔ الفقهيّهٔ المذكورهٔ «نموذج قياس» بالنسـبهٔ لها، تعيد على أساسه وزن سلوكهـا الخـاص والعـام وانطلاقـاً منه ورجوعـاً إليه، إذ بـذلك يعتقـد المسـلمون أنّهم يسـيرون على الطريق المؤدى إلى نمو وازدهار شخصيتهم وحياتهم عبر التاريخ وفق المنهج والرؤيهٔ

۱- ۱ الحجّ: ۲۷- ۲۹.

ص: ۱۹۷

التوحيديّة.

إنّ التعمّق فى فهم معانى ودلالات المنظومة الفقهيّة الناظمة لظاهرة الحجّ، له فوائد معرفيّة جمة فيها يخصّ مختلف فروع المعرفة الإنسانيّة المتعلقة بالقانون:

فلسفة القانون، علم القوانين، علم السياسة، علم الاجتماع القانونى، القانون التاريخى المقارن... ففلسفة القانون الغربى والوضعى عموماً، تستند فى أساسها إلى مبدإ القوّة والغلبة الزمنيين.

فالقانون فى التحليل الأخير، هو فرض الحدود والتوازن على قاعدة قوّة زمنيّة ما، قبيلة كانت أو فئة اجتماعيّة ما، أو سلطة ملك أو دولة ما. أىأنّ الاختلال متضمّن فى نقطة الانطلاق هذه؛ لأنّ الحدود المفروضة هنا هى حدود القوّة الزمنيّة القاهرة. «والتوازن» المفروض، هو توازنات مصالح القوى الغالبة بحيث يغدو مبدأ المساواة هنا متعلقاً بمعطى تجزيئى زمنى، يطرح نفسه ناظماً لمبادئ كليّة وعامّة.

فالوحدة هى شأن تابع لمعطى أصيل أساسه التجزؤ والغلبة بالقوّة. بينما نجد بالمقابل أنّ الإسلام يطرح التوحيد والوحدة كأصل وكهدف. فالوحدة فى المفهوم الإسلامى، ليست وحدة القوّة الجزئيّة الغالبة على الأجزاء والمتحكّمة بها. بل هى وحدة المدار التكوينى للإنسان، والاختلال هو العنصر الطارئ عليها. وهذه الوحدة التكوينيّة ليست قهريّة؛ لأنّ لحمتها لا تقوم على أساس تجزيئى بل تتعلّق بتجلّيات المحور التوحيدى منذ البداية.

يترتّب على ما تقدّم إعادة فتح النقاش حول كثير من الموضوعات الفكريّة السائدة على المستوى العالمى حول أسس التشريع وموقع الإنسان منها، وحول تاريخيّة النظم القانونيّة وعلاقتها بحركة الناس والأمم فى الزمن الوجودى المعاش.

إنّ ديمومة النظم الفقهيّة الإسلاميّة وثبات مدارها، هما الوجه الآخر لديمومة السعى للانعتاق من ذلّ العبوديّة. فالتشريع الإسلامى بهذا المعنى، يطرح ثوابت للانعتاق من الوحدة الوثنيّة على طريق الوحدة التوحيديّة إن جاز التعبير.

ص: ۱۹۸

فالثبات بهذا المعنى هو عين الحركة الآيلة إلى دفع الإنسان نحو التعلّق بقيم التوحيد المتعالية، يا أيّها الإنسان إنّك كادح إلى ربّك كدحاً فملاقيه (۱).

البعد العقائدی: التوحيد والتنزيه

يرسی الإسلام كعقيدة فی وعی وممارسة أتباعه «تصوراً» للخالق، مفاده أن اللَّه متعال عن كلّ الصفات والتشبيهات التی يمكن أن تتراءی للمسلم فی تجربته وواقعه المعاش، أیأنّ اللَّه لا يمكن تجسده وفق شكل ومظهر محدّد. وهذا ما يقابله بالنسبة للإنسان أن يركن إلی علاقة مع اللَّه لا توسط فيها، مهما كان الشكل الذی يمكن أن يأخذه هذا التوسط: صور، أصنام، هياكل، طبقة كهان، أو أية فئة بشريّة بعينها سواء اتخذت شكل فرد أم طبقة أم طائفة أو أیشكل مجتمعی آخر، وهذا ما تؤكّده الآية التی تقول:

وإذا سألك عبادی عنّی فإنّی قريب أجيب دعوة الداعِ إذا دعان فليستجيبوا لی وليؤمنوا بی لعلّهم يرشدون (۲).

إنّ الإسلام يفرض علی أتباعه- ضمن هذا الفهم- مستوًی من التجريد بالنسبة لأیّ واقعة بعينها، تسمح لهم بالانعتاق والتحرّر من أیّ من الوقائع الطبيعيّة والبشريّة بغرض التواصل مع «الواحد المتعال»، عن أیّ من مخلوقاته.

ولكن هذا التعالی المطلق لا يحيل الخالق إلی معطیً فارق ومفصول عن الوجود.

بل إنّ آياته مبثوثة فی الوجود كلّ الوجود. ومن هنا يبدأ المسلم فی إقامة علاقة توازن- صراع- توحيد مع محيطه الطبيعی والبشری. دون أن يجعل من أیّ من هذه المظاهر نقطة قياس متعالية، بل يری فيها النسبی والزمنی والمتغير والجزئی الذی يتوازن ويقاس إلی مثل الأعلی اللامتناهی...

وبحكم أنّ اللَّه هو المطلق، إذن الطريق أيضاً لا ينتهی، هذا الطريق طريق الإنسان نحو اللَّه هو اقتراب مستمرّ بقدر التقدم الحقيقی نحو اللَّه، ولكن هذا الاقتراب يبقی اقتراباً نسبياً، يبقی مجرد خطوات علی الطريق من دون أن يجتاز هذا

۱- ۱ الانشقاق: ۶.

۲- ۲ البقرة: ۱۸۶.

ص: ۱۹۹

الطريق... أیأنّه ترک له (للإنسان) مجال الإبداع إلی اللانهایهٔ، مجال التطور التکاملی إلی اللّانهایهٔ...» (۱).

فی هذا المناخ العقائدی، تندرج جملهٔ الشعائر التی یقوم بها المسلمون، تقرّباً وتعظیماً للّهوخروجاً علی کلّ ما یتعارض ویعیق هذا المسار التوحیدی. فالقیام بالشعائر لیس تعظیماً للشیء بعینه، بقدر ما هو تقرّب إلی اللّه تعالی:

ذلک ومن یعظّم شعائر اللّه فإنّها من تقوی القلوب (۲).

بهذا المعنی تأخذ شعیرهٔ الحجّ معنیً وسلوکاً توحیدیاً شمولیاً، یمارسها المسلم بالشکل والمعاناهٔ، بسلوکه السیاسی والاقتصادی، بنظرته لنفسه وللآخرین...

الحجّ عامل تزکیهٔ وتوازن نفسی وعقلی وعاطفی

– والذین آمنوا أشدّ حبّاً للّه (۳).

– قل إن کان آباؤکم وأبناؤکم وإخوانکم وأزواجکم وعشیرتکم وأموال اقترفتموها وتجارهٔ تخشون کسادها ومساکن ترضونها أحب إلیکم من اللّه ورسوله وجهادٍ فی سبیله فتربّصوا حتّی یأتیَ اللّه بأمره واللّه لا یهدی القوم الفاسقین (۴).

ینظر الإسلام إلی الإنسان- بالمعنی الفردی والاجتماعی- باعتباره مشدوداً دائماً إلی جملهٔ العلاقات والمواقع الاجتماعیّهٔ التی تحیط به. فالإنسان لیس «مجرداً أو مطلقاً خارجاً عن النظام المادّی والعلل والعوامل العینیّهٔ والعملیّهٔ... ولکنّه (أی الإنسان) یستطیع استغلال الجبر الطبیعی والوراثهٔ والتاریخ والمجتمع، ویکون مدبر الدنیا المادیهٔ، أیصاحب السیادهٔ علی الوجود، ویقطع هذه المسیرهٔ العلمیهٔ من «التراب» إلی «اللّه»... وفی هذا المسیر تجد فلسفهٔ بناء الذات وجهتها وفلسفتها.

لیس بناء الذات فی الإسلام «ریاضهٔ سلبیهٔ»، لکنّها، «تربیهٔ إیجابیهٔ» (۵).

إنّ الحجّ کسلوک فردی وجماعی، یمکن أن یندرج ضمن هذه الوجههٔ التی تحاول تحویل وضع الإنسان المسلم من ظاهرهٔ سلبیهٔ تکون محصلهٔ لولائه العائلی

۱– ۱ محمّد باقر الصدر: مقدّمات فی التفسیر الموضوعی للقرآن، دار التوجیه الإسلامی، ۱۹۸۰: ۱۵۲.

۲– ۲ سورهٔ الحجّ: ۳۲.

۳– ۳ البقرهٔ: ۱۶۵.

۴– ۴ التوبهٔ: ۲۴.

۵– ۵ د. علی شریعتی: بناء الذات الثوریّهٔ، من کتاب الثورهٔ الإیرانیّهٔ: الجذور الإیدیولوجیّهٔ، جمعها، د. إبراهیم الدسوقی شتا، الوطن العربی، ۱۹۷۹: ۸۹.

ص: ۲۰۰

أو الطبقى وما شابه من علاقات اجتماعيّـة مختلفـة إلى ظاهرة إيجابيّـة قادرة على استيعاب وضـعيّتها هذه وتخطيها، انطلاقاً من عقيدتها التوحيديّة ومن المؤسسات التوحيديّة المختلفة التى تشكل دوائر متكاملة ضمن المسار نفسه.

بهذا المعنى يحتلّ الحجّ موقعاً متميّزاً فى عمليّة بناء الذات المسلمة، بموجب أهداف محدودة ووسائل تاريخيّة محدّدة.

فالحـجّ توجّه يحاول إرساء علاقات وممارسات محـدّدة تتخطّى حدود العلاقات والممارسات التى يعيشـها المسـلم فى مجتمع ومحيط معينين.

فعندما يأخذ المسلم قراراً بتأدية فريضة الحجّ، يكون قد دخل فى مسار سلوكى يحتم عليه اتخاذ جملة من القرارات الواعية، تبدأ بتنفيذ شروط القيام بالحـجّ وما يسـتلزمها من دفع الزكاة والخمس، والبـدء بمراقبـة حازمـة لسـلوكه إذ يضع نفسه فى موضع المراقب من قبل نفسه والجماعـة المحيطة به. هذا المناخ الجديد يلاحقه، من لحظة توجهه إلى الحجّ وفى أثناء الحجّ وفى المرحلة اللاحقة، والتى تمتدّ إلى آخر العمر (۱)فى مجمل علاقاته مع الناس.

إنّ هذا القرار الواعى بتأدية فريضة الحجّ، يستتبع جملة من الممارسات الواعية فى مراحل الحجّ المختلفة.

إنّ السـفر وما يمكن أن يكتنفه من متاعب وهجر لمجمل العلاقات العائليّـة والاجتماعيّة المختلفة، التى يكون قد اسـتقرّ عليها المسـلم، تخلق فى نفسه مناخاً جديـداً، متحرّراً من ضـغط الولاءات المعاشـة، ومنخرطاً فى عمليّـة معاناة تحريرّيـة تضع عبوديّته للّه‌من جديد فى الموضع الأوّل، وذلك فى مواجهة العبادات «الوثنيّة المختلفة من سـلطة ومال وجاه... ففى الإحرام ينزع عنه ثيابه، ويتخفف فى الملبس مجاريـاً بـذلك الحجـاج الآخرين، إلى أىّ مجتمع انتموا، وإلى أيّـة فئـة انتسـبوا. ونزع الثياب هنا كشـكل ذو دلالـة رمزيّـة، تؤكّـد نزع الملبس والامتياز السلطوى أو المالى الذى يرمز إليه، مؤكّداً انتماءه إلى اللّه وتساويه المطلق مع باقى المسلمين.

۱- ۱ نلحظ فى الوعى الشائع، النقـد القاسـى الـذى توجّهه العامّـة لأىّ حاجّ اقترف خطأً ما فى الوقت الذى تتهاون أمام شـخص عادّى ارتكب نفس الخطأ.

ص: ۲۰۱

كذلك امتناعه عن جملة من الاحتياجات النفسيّة والبيولوجيّة (المجامعة، والزواج) تركز فى ذهن المسلم مفاهيم التوازن والقدرة على التحمّل والحرمان، والقدرة على التضحية والإيثار، وتصليب الإرادة والجسد فى وجه احتياجاته المادّية والنفسية المختلفة، أى‌بجملة تأكيد وممارسة نهج تربوى، فردى وجماعى على قاعدة التوحيد، قادر على تجاوز الحالة السلبيّة التى يعيشها الإنسان تجاه حاجاته وممتلكاته المختلفة.

وفى الحجّ تنمية وتطوير للطاقات العاطفيّة الإيجابيّة نحو الآخرين، وتأكيد لقدرة الإنسان على تجاوز عواطفه الفرديّة والتضحية بها من أجل المجموع.

تلك هى دلالات قصّة إبراهيم الخليل وزوجته هاجر، والتجربة التى خاضاها فى مراحل مختلفة فى الهجرة إلى هذا المكان النائى (مكّة)، وفى سعيها لإيجاد الماء، وفى قرار ذبح ولده إسماعيل...

استحضار التاريخ

قصّة إبراهيم فى القرآن:

«ولد إبراهيم فى بيت سادن من أعظم سدنة البلد، ينحت الأصنام ويبيعها ويقوم على الهيكل الكبير، ويتّصل به عن طريق العقيدة، وعن طريق الخدمة...».

ولكن فى هذا المناخ السلطوى الوثنى، قام إبراهيم بتحطيم الأصنام... وما تبع ذلك من أحداث (۱)... أدّت إلى رحيله إلى بلاد الشام... ومن ثمّ أمر بالتوجّه إلى وادٍ ضيّق، أحاطت به الجبال الجرداء من كلّ جانب، وقسا عليه الجوع، يؤمر بترك زوجته والمولود الصغير... فيرضى بالأمر الواقع، ويغلب على الطفل العطش، ممّا يدفع الأم للبحث عن الماء، معتبرة أنّ «البحث عن الأسباب لا ينافى الإيمان والثقة باللّه، فهى مضطربة فى غير يأس، ومؤمنة فى غير تعطل وتواكل» (۲).

۱- ۱ راجع حول ذلك: أبوالحسن الندوى: الأركان الأربعة: ۲۵۱.

۲- ۲ المرجع السابق: ۲۵۳.

ص: ۲۰۲

إنّ حركة هاجر هنا مزيج من الإيمان والثقة باللّه، والاتكال على النفس، والمجاهدة بحثاً عن الماء.

فى هذه القصّة دلالات متعدّدة، نفسيّة وعاطفيّة وعقليّة، تلحظ فى أوج تفتّحها واشتغالها على يد امرأة فى أرض نائية مجدبة.

كذلك فى قصّة ثيّة ومبادرة إبراهيم لذبح ابنه إسماعيل، ثمّ افتدائه، «إذ لم يكن المقصود ذبح إسماعيل، إنما كان المقصود ذبح الحبّ الذى ينازع الحبّ الإلهى ويقاسمه، وقد ذبح (هذا الحبّ) بوضع السكين على الحلقوم، إنّما ولد إسماعيل ليعيش ويزدهر وينسل، ويولد فى ذريته آخر الأنبياء» (۱).

إنّ مختلف القصص التى وردت فى القرآن تعكس خط التواصل الذى أرساه الإسلام فيما بين الدعوة المحمّدية وخط التوحيد والخروج على الوثنيّة والتسلط وعبادة الأوثان، سواء اتخذت شكل جماد أو شكل بشر.

إنّ خط التوحيد فى نظرته للتاريخ- كما تعبّر قصّة إبراهيم وغيرها- يرسى منهجاً واضحاً قائماً على عدم وجود انقطاع كلّى فيما بين مختلف الحقب التاريخيّة التى مرّت بها البشريّة. فلا ينظر الإسلام إلى نفسه على أنّه انقطاع كلّى ونوعى عمّا سبقه من تجارب ووقائع تاريخيّة، بل يعتبر نفسه تكملة وتتويجاً لخطّ الصدام والصراع مع مختلف المؤسسات والقوى والأعراف والعادات، التى حاولت أن تضرب خطّ التوحيد لترمى خطّ الإشراك والوثنيّة، الذى يعبّر عن نفسه بأشكال عدّة، تلتقى حول جعل وثن، أو فرد، أو جماعة محدّدة، مركز الكون ومصدر سلطته.

إنّ الرؤية الإسلاميّة لحركة التاريخ على ضوء ما تقدّم ترفض عمليّة تحقيب التاريخ إلى مراحل متميّزة نوعياً انطلاقاً من مقياس تجزيئى ما، يؤدّى إلى جعل كلّ مرحلة لاحقة نفياً للمرحلة التى سبقتها، كما يؤدّى إلى رسم خطّ تطورى لحركة التاريخ على قاعدة المميزات التى استجدت على واقع التجربة الصناعيّة فى المجتمع

۱- ۱ المرجع السابق: ۲۵۴.

ص: ٢٠٣

الغربی المعاصر.

فالمدرسـة الماركسـية ترى فی مسـتوى تطور القوى التقنيّـة معياراً للتقدم والتأخر، والمدرسة الاجتماعيّة ترى أنّ الحالة الفكريّة مقياس لخطّ التطور التاريخی.

وعلى قاعـدة ما تقـدّم ترسـى نظرة اختلالية لمقاييس التقدّم والتقهقر، تفصل بين مقاييس العدل ومقاييس القوّة (التكنولوجيا، العلوم)، لتـذهب أبعـد من ذلك حيث تجعل مقاييس العـدل ملحقة بمقاييس القوّة أو تابعة لها. من هنا نفهم تحوّل هذه المدرسة تدريجيّاً إلى أداة بيد المجتمعات الصـناعيّة فی مواجهة المجتمعات المستتبعة، تعمل على تبرير ما تقوم به الأولى من تخريب بحقّ المجتمعات الأقل تطوراً على مستوى القوّة والثروة. حتّى إنّ المرء يشك فيما إذا كانت الفلسفات الغربيّة المعاصرة، قد استنسبت المقاييس التی يمتاز بها المجتمع الصـناعی؛ وجعلتها ميزاناً للحقّ والعـدل أی‌حقّها هی وعدلها هی بالذات. من هنا نجد سـهولة تحوّل هذه الأيديولوجيات إلى لغة تبريريّة لعنف المجتمعات الصـناعيّة فی مواجهة المجتمعات المسـتتبعة. ألم يحتل نابليون مصـر تحت شـعارات الثورة الفرنسيّة؟ ثمّ ألم يجتح الاتحاد السوفياتی افغانسـتان تحت شـعار التقدّم والاشتراكية؟... إنّ هذه الفلسفات تأكل شعاراتها أثناء الطريق بعد أن تكون قـد جعلت منها ترسا حصـيناً تحمی به جسـمها. فمبـدأ المساواة فی الفكر اللبرالی، ومبـدأ ضـرب الاسـتغلال فی الفكر الماركسـی، تمّ التهامهما من قبل هاتين المدرستين على طاولة الآلة وحريّة السوق. فالمساواة والحريّة هنا، هما حريّة مالك الآلة ومالك السوق...

لا يمكن بأىّ حال من الأحوال أن يتصالح الفكر الإسـلامی مع هذه الفلسـفات. إذ لا يمكن بحال من الأحوال أن ينظر المسـلمون إلى المجتمع الفرعونی على أنّه متقدّم عن مجتمع إبراهيم الخليل، بسبب القوّة المدنيّة والماليّة التی يتمتّع بها المجتمع الفرعونی.

ص: ۲۰۴

كما لا يمكن للمسلمين أن يروا فى المجتمع العباسى وقبله الأموى نموذجاً متقدّماً على نموذج دولة المدينة التى أسسها رسول اللّه، لا لسبب إلّالأنّ هذين المجتمعين متقدّمان مادياً وتقنياً بما لا يقاس مع مجتمع المدينة. فالمسلمون يرون فى دولة الرسول الكريم نموذج القياس الذى تقرأ على أساسه التجارب اللاحقة وبغض النظر عن مقدار القوّة التى تملكها أىّ منهما.

هنا تبقى مقاييس العدل والتوحيد والتقوى، هى العنصر الثابت فى قراءة طبيعة انشدادتها. طبعاً هذا لا يعنى بأىّ حال من الأحوال أنّ الإسلام يطرح تناقضاً مبدئياً وعلى الدوام مع المقاييس الأخرى، بل جلّ ما فى الأمر أنّه ينظر إلى ميزان التوحيد على أنّه المحور الناظم والمهيمن والمتحكم بموازين القوّة التى تقرأ على قاعدة خطّ التوحيد والعدل. فهى إمّا متواصلة معه أو مختلفة عنه أو مناقضة له.

وبذلك يمكننا أن نفهم لماذا ينظر المسلمون إلى تجربة المدينة على أنّها مقياس قراءة التجارب اللاحقة لها باعتبارها متقدّمة بمقياس العدل والتوحيد رغم كونها مختلفة بمقاييس المدنية والقوّة الماديّة؟

وبذلك يكون الإسلام قد قدّم تصوراً لا يغدر بأىّ حال من الأحوال بأفراد المسلمين أو بكتاب الأمّة الإسلامية أو بعالم المستضعفين على المستوى العالمى.

لهذه الأسباب نقول: إنّ الإسلام لا ـ ينفى ما قبله وبالتالى لا ينفى ما دونه، بل يخلق عند أتباعه رؤية ومنهاجاً فى التعامل مع الوقائع والأحداث تسمح لهم بعمليّة فرز التجربة التوحيديّة عن التجربة الوثنية. وتمثل استيعاب المسلك التوحيدى ونبذ المسلك الوثنى.

ممّا يبرر هذا النهج وهذه الرؤية ما كان عليه الحجّ عشية الدعوة، وكيف تعامل معه الإسلام. فمن ذلك أنَّ قريشاً لم يكونوا يدخلون عرفات مع الحجيج، بل يقفون فى الحرم، ويقولون: نحن أهل اللّه فى بلدته وقطان بيته، ويقولون: نحن الحمس، وما إلى ذلك إلّاليتميزوا عن سائر الناس، ويحافظوا على مركزهم

ص: ۲۰۵

الجاهلى، وعلى ما كانوا يتخيّلونه من سموّ وامتياز، فأبطل اللّه هذا الامتياز الجاهلى، وأمرهم بأن يعملوا كما يعمل الناس، ويقفوا بعرفات وقال: ثمّ أفيضوا من حيث أفاض الناس (۱).

ومن سمات الحجّ فى الجاهليّة، أنّه كان عيداً من أعيادهم، ومكاناً للمفاخرة بالأنساب القبليّة ومآثر الآباء، وللّهو والخصام، فرفض القرآن ذلك فى الآية التى تقول: فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحجّ (۲).

إنّ هذا المنهج فى مغالبة المنحى «الاشراكى» تبدو معالمه جيلة فيما أُرسى من ممارسات معينة ونبذ أخرى كانت سائدة، بهدف رسم مسار توحيدى خالص للحجّ بهدف تخليد خصائص تجربة إبراهيم ومآثره، وتجديد دعوته وتعليمه، عقيدة وممارسة.

هذا التواصل مع الخطّ التوحيدى السابق للرسالة الإسلامية، نجد له استمراراً بعد ثلاثةعشر قرناً فى تجربة الحجّ لدى مسلمين فى القرن العشرين. ففى توصيف لمحمّد أسد حول تجربته فى الحجّ يقول: «... وإذا وقفت على رأس التلة أُحدق إلى أسفل نحو سهل عرفات الغائب عن ناظرى، شعرت كأنّ زرقة الأرض أمامى، التى كانت ميتة منذ لحظة، قد دبت فيها الحياة من جديد بتلك التيارات من الأنفس البشرية التى مرت عبرها، وامتلأت بالأصوات الغريبة تصدر عن ملايين الرجال والنساء الذين مشوا أو ركبوا ما بين مكّة وعرفات فى أكثر من ألف وثلاثمائة حجة... إنّ أصواتهم وخطواتهم، وأصوات حيواناتهم، وخطواتها، تستيقظ وتسمع من جديد: إنّى أراهم يمشون ويركبون ويتجمعون، كلّ تلك الملايين من الحجاج بثيابهم البيضاء عبر ألف وثلاثمائة عام... إخوان لى عن اليمين، وإخوان لى عن اليسار، كلّهم لا أعرفهم، ولكنَّ واحداً منهم ليس غريباً عنّى» (۳).

وفى تجربة حجّ آخر نقرأ: «إنّ الإنسان عندما يتواجد فى مكّة المكرّمة منطلق

۱- ۱ البقرة: ۱۹۹.

۲- ۲ البقرة: ۱۹۷.

۳- ۳ محمّد أسد، الطريق إلى مكّة، دار العلم للملايين: ۴۰۴.

ص: ۲۰۶

الدعوة الإسلامية المباركة وفى المدينة المنوّرة، دولة الإسلام الأولى، يعى من الذكريات فى أرضها انطباعات روحية كبيرة: هنا نزل الوحى، ومن هنا انطلق الرسول صلى الله عليه و آله، داعياً ومبشراً ونذيراً، وفى هذه الأمكنة عُذب دعاة الإسلام الأوائل واستشهد بعضهم مواجهين الطاغوت... وعلى هذه الطريق هاجر المسلمون من مكّة إلى المدينة...» (۱).

وكما تتواصل تجربة الحجّ مع النسق التوحيديّة فى التاريخ، استمر الصراع ما بعد الدعوة الإسلامية بين خط الممارسة التوحيدية وخطّ الوثنيّة والتسلط. ففى تاريخ هذه الظاهرة وواقعها الراهن نلحظ جملة من الظواهر والممارسات التى تحاول ضرب هذه التجربة، أو على الأقل إضعافها وجعلها ممارسة شكلية.

ففى كثير من العهود التاريخيّة اللاحقة لمرحلة الدعوة، نلحظ انعكاسات الاختلال العام فى بنية المجتمع الإسلامى على ظاهرة الحجّ. إذ ظهرت تجربة تعيين أمير الحجّ من قبل السلاطين، وما استتبع ذلک من امتيازات وممارسات مختلفة أدت إلى جعل هذا المنصب فرصة للترقى وجمع المال وتوظيف شرعيّة هذا الموقع من أجل مكاسب ومنافع مختلفة. كما أدى الاختلال العام فى حقب معينة إلى تعيين عدة أمراء للحجّ، وبالتالى خلق فجوة وشرخ فيما بين الحجيج ذات طابع جغرافى أو عرقى أو مذهبى (۲).

أضف إلى ذلک، هجمات عصابات متعدّدة على طريق الحجّ، للاستيلاء على قوافل الحجيج وسلبهم. كذلک محاولة التجار والبدو فى مكة فرض أسعار عالية جداً على ما يبيعونه من ماشية.

وفى الوقت الراهن نلحظ ما للحدود السياسيّة للدولة التى يعيش فيها المسلمون من أثر كبير على حريّة الحجّ خاصّة بالنسبة للدولة التى تقع مكّة فيها.

فهناک قيود ومراقبة أمنية وسياسية وتداخلات لمنع الحجيج من التفاعل والتواصل بهذا الشكل أو ذاک.

۱- ۱ محمّد الخنسا، مجلّة الحكمة، عدد ۴: ۱۰۷.

۲- ۲ دائرة المعارف الإسلامية، المجلّد الرابع، مادة: أمير الحجّ.

ص: ۲۰۷

ومع ذلك تستمر هـذه الظاهرة بالعيش وتزداد قوّة واتساعاً. (بلغ عدد الحجاج عام ۱۹۸۰ قرابـة المليون، بينما لم يبلغ عام ۱۹۱۴ سوى ۷۰ ألفاً) (۱) وبالتالى يستمر الصراع بين هذه الظاهرة وبين كافّة الظواهر والعلاقات المعيقة لها بهذا الشكل أو ذاک.

البعد السياسى للحجّ

كانت القبائل عنـدما تؤم مكّة فى موسم الحجّ، تحمل كلّ منها أعلامها المميّزة وأصـنامها ولباسـها، مؤكّدة بذلك على تمايزها القبلى أو على رتبتها وعلوّ شأنها بين القبائل الأخرى. ولكنّ الحجّ بعد الدعوة، أرسـى مؤسـسة جديدة تتعارض بل تلغى كلّ هذه الممارسات والشـعائر. خالقـة حالـة توحيديّـة خالصـة، تؤمن للمسـلمين إحـدى الدعائم التى تجعلهم قادرين على مقاومة الانشدادات المختلفة من قوميّـة وقبليـة وما إلى ذلك. «فالمسـلمون لا تبتلعهم القوميات، كما ابتلعت أمماً كثيرة، ولا يصـبحون ضـحيتها، ولا تكون بلادهم التى يحبونها بسائق الفطرة والعاطفـة والعصبيّـة، قبلة يتوجهون إليها، وكعبة يحجون إليها، إنّما هى قبلة واحدة يتوجّه إليها الشـرقى والغربى، والعجمى والعربى، وإنّما هى كعبـة واحدة يحجّ إليها الهندى والأفغانى والمسـلم والأوروبى والأمريكى... فالحجّ انتصار على القوميات الوطنيّـة والعنصـريّة واللسانيـة، الـتى قـد يصـبح بعض الشـعوب الإسـلامية فريسـتها تحت ضـغط عوامـل كثيرة، فتتجرّد جميع الشـعوب الإسـلاميّة من جميع ملابسـها وأزيائهـا الإقليميّـة، التى تميز بعضـها عن بعض ويتعصب لهـا أقوام، وتظهر كلّها فى مظهر واحـد يسـمى (الإـحرام) فى لغـة الـدين والفقه، وفى مصـطلح الحـجّ والعمرة، حاسـرة رؤوسـها مـا بين رئيس ومرؤوس، وصـغير وكبير، وغنى وفقير، وتهتف كلّها لغـة واحـدة ونغمة واحدة: «لبّيک اللهمّ لبّيک، لبّيک لا شـريک لک لبّيک، إنّ الحمد والنعمة لک والملک، لا شـريک لک» (۲).

والطواف حول الكعبة يرى فيه الإمام الخمينى رمزاً لحرمة «الطواف

۱- ۱ دائرة المعارف الإسلامية، عدد: ۱۰۳، ۱۹۷۵، القاهرة، مادة: الحجّ.

۲- ۲ أبوالحسن الندوى، المصدر السابق: ۲۶۳- ۲۶۴.

ص: ۲۰۸

والسعی حول (أیة مبادئ) غیر مبادئ اللَّه، وإن رجم الشیطان هو رمز لرجم کلّ شیاطین الإنس والجنّ فی الأرض. أیّها الحجّاج... احملوا من ربّکم نداءً إلی شعوبکم، أن لا تعبدوا غیر اللَّه وأن لا تخضعوا لغیره» (۱).

ویندرج الحجّ ضمن سلسلة اجتماعات المسلمین، بحیث یأتی تتویجها لها، وأهمها لجهة الشمول والاتساع:

أما أوّل هذه الاجتماعات فهو «علی مستوی أهل الحی الواحد من البلد، یتکرّر فی الیوم خمس مرات وقد شرع اللَّه صلاة الجماعة.

أمّا ثانیهما فاجتماع علی مستوی أهل البلدة الواحدة، یتوالی مع کلّ أسبوع، وقد شرع له صلاة الجمعة.

وأمّا ثالثهما فاجتماع علی مستوی العالم الإسلامی أجمع...» (۲).

حیث یتلاقی المسلمون من شتّی بقاع الأرض؛ لیتعارفوا، ویتبادلوا الآراء والخبرات، ویغلّبوا وحدتهم علی ما یغالبها من انتماءات تاریخیّة واجتماعیّة وثقافیة مختلفة.

یورد أحمد شلبی معلومات قیّمة عن تجربته فی الحجّ (۳)، عندما یشیر إلی النقاط التالیة:

- الحجّ اجتماع عام للمسلمین «لم یختر له مندوبون یمتازون بالحجیج والجدل، بل ترک الباب مفتوحاً لمن یستطیع أن یأخذ فی هذا المؤتمر الشامل بنصیب، والحجیج علی هذا یمثلون کلّ الأقطار بل کلّ القری، ویمثلون کلّ الثقافات وکلّ الطبقات.

- ومن مآثر الحجّ کذلک التعارف بین طوائف شتی جاءت من کلّ ربوع العالم الإسلامی، وطالما جلست وأنا أؤدّی هذه الفریضة مع رفاق من هنا وهناک وتدارسنا مشکلات العالم الإسلامی» (۴).

- «وهنا مأثرة مهمّة للحجّ أدرکتُ عمقها من صِلاتی ببلاد شتّی بالعالم

۱- ۱ رسالة الإمام الخمینی قدس سره إلی الحجاج عام ۱۳۹۹ هجریة.

۲- ۲ د. محمّد سعید رمضان البوطی: مقدّمة کتاب مناسک الحجّ والعمرة: ۱۲.

۳- ۳ أحمد شلبی: الإسلام، مکتبة النهضة المصریّة، ۱۹۷۹: ۱۶۰- ۱۶۵.

۴- ۴ المصدر نفسه: ۱۶۳.

ص: ۲۰۹

الإسلامی، ففی کثیر من هذه البلدان یوجد اهتمام کبیر بلقب «حاج» الذی یحمله من أدّی هذه الفریضة، ویبلغ اهتمام الناس بهذا اللقب أن الأبناء یرثونه عن الآباء والأجداد کما یحدث کثیراً فی أندونیسیا ومالیزیا والسودان، ولا ینسی رجل ذهب للحجّ ثمّ لزمه هذا اللقب أن یتّجه إلی الطیبة والاستقامة؛ لیکون أهلًا لحمله» (۱).

إنّ الدلالات السیاسیّة المختلفة التی تتضمّنها ظاهرة الحجّ فی المجتمع الإسلامی تنطوی علی سمات خاصّة بهذا المجتمع. فالسیاسة لیست مؤسسة قائمة بذاتها ومنفصلة عن باقی جوانب وأبعادالحیاة الفردیّة والجماعیة. بل هی لحظة تندرج ضمن ممارسة شمولیّة متعدّدة الجوانب تعطی للنسق السیاسی الإسلامی بعداً توحیدیاً متمیزاً.

ومن هنا خطأ موضوعتین شائعتین فی فهم دلالات الحجّ عند بعض المحللین والدارسین لهذه الظاهرة:

فالموضوعة التی تحاول أن تختزل الحجّ إلی ظاهرة تعبّدیة مقتصرة علی تنفیذ بعض الشرائع والفرائض، منظور إلیها علی أنّها ممارسات منفصلة عن باقی جوانب الحیاة الاجتماعیّة، تجد لها تعبیراً فی کثیر من الدراسات والمواقف التی تتّخذها مؤسسات سیاسیّة مختلفة. وهی بذلک تعکس موقفاً وممارسة تاریخیین، طالما تداخلا وتشابکا مع ظاهرة الحجّ ووسماها بهذا الطابع عبر التاریخ. غیر أنّ هذه الوجهة لم تستطع تدجین ظاهرة الحجّ واستیعابها إلّالفترات معیّنة من التاریخ. وبقیت هذه الظاهرة حیّة تنبض بالحیاة وتنتظر المناخ المناسب لتعید سیرتها الأولی کإحدی رکائز المجتمع التوحیدی الأساسیّة.

والموضوعة الثانیة، إحالة الحجّ إلی مؤتمر سیاسی سنوی علی النمط الذی نلحظه فی الممارسة السیاسیّة الحدیثة. (الاجتماع أو المؤتمر الحزبی وما شابه). إنّ خطأ هذه الوجهة یکمن فی إسقاط الفهم المعاصر والسائد لطبیعة المؤسسة السیاسیة علی ظاهرة مختلفة، لها أسّها ومنطقها الخاصان بها، واللذان یعبران عن

۱- ۱ المصدر نفسه: ۱۶۲.

ص: ۲۱۰

أنفسهما فی ظاهرة الحجّ الشمولیّة، والتی یندرج فیها فی زمن واحد، المستوی العقدی، والفکری، والنفسی، والاقتصادی والسیاسی... ممّا یعطی لهذه الممارسة خاصیّة وفرادة ممیزتین، کما یعطی لکلّ بعد من أبعاد هذه الممارسة طابعاً ممیزاً له أسسه وقواعده ومنطقه اللازم له.

لذا نؤکّد ضرورة العمل علی کشف المنطق العام الذی یحکم هذه الظاهرة، مستندین إلی منهج شمولی مرن، یسمح للباحث بالانفتاح علی حقائق الواقع ومعطیاته، دون أن یسمح للروی المنهجیّة والنظریة المختلفة، أن تکون قالباً جامداً، عاجزاً عن التقاط دلالات وأبعاد هذه المؤسسة. فلا بدّ والحالة هذه من تطویر مفاهیموأسالیب منهجیّة و نظریّة علمیّة دقیقة تستجیب و تتلاءم مع طبیعة الموضوع المدروس، بغض النظر عن المواقف القیمیة والنظریة التی تسود علم الاجتماع العام وخاصّة المناهج السائدة فی المجتمع الغربی الحدیث فی تجلیاته المختلفة.

فمفهوم التوحید، والجماعة، والفطرة، والعبادة، والشرع، وما إلی ذلک من موضوعات منهجیة ونظریة، کمفهوم العصبیة، والقبلیة والأمة،... کلّها مفاهیم أساسیّة فی دراسة التجربة التاریخیة والمعاشة من قبل الجماعة التوحیدیة. کی یتمکن الباحث من بلورة مفاهیم اجتماعیة دقیقة تصلح للتعامل مع طبیعیّة الواقع ودلالات ممالکه المختلفة.

إنّ المخاض الذی تعیشه الشعوب الإسلامیة، والذی بلغ أشده فی هذه المرحلة سیفتح الطریق أمام الشخصیة الفکریة الإسلامیة لأن تستعید حرکتها بعد أن طال زمن الانکماش والسیر المتعثر، أیأنّ عمق الجراح وکثافة الأصفاد تستدعی بالضرورة نهضة شاملة لن یستقیم أیّ بنیان منها إلّاعبر التواصل والتآزر مع الأبنیة الأخری.

إنّها بدایة امتحان لقدرة المسلمین علی المواجهة الحضاریّة الشاملة فی میادین الجهاد المختلفة.

ص: ۲۱۱

الهوامش:

الحجّ فی الادب العربی



ص: ۲۱۳

الحجّ فی الأدب العربی

إعداد: محمّدرضا الأنصاری

قصیدة الحجرة النبویّة الشریفة

أنشأ هـذه الیتیمة العصـماء السـلطان عبدالحمید خان بن السـلطان أحمد خان عام ۱۱۹۱ ه، واسـتحقت بإخلاـص ناظمها وحبّه الصادق لسیدنا رسول اللّه صلی الله علیه و آله أن تنقش علی الحجرة النبویة الشریفة، وقد استخرجت من کتاب ترکی قدیم هو: «مرآة الحرمین» لأیوب صبری باشا.

یا سیّدی یا رسولَ اللّهِ خُذ بیدی مالی سواکَ ولا ألوِی علی أحدِ

فأنتَ نورُ الهدی فی کلّ کائنةٍ وأنتَ سرُّ الندی یا خیرَ مُعتَمد

وأنت حقّاً غیاثُ الخلق أجمعهم وأنت هادِی الوری للّهذیالمدد

یا من یقوم مقامَ الحمدِ منفرداً للواحدِ الفردِ لم یُولد ولم یلدِ

یا من تفجّرتِ الأنهارُ نابعةً من أصبعیه فروّی الجیش ذا العدد

إنّی إذا سامنی ضیمٌ یُرَوِّعُنی أقول: یا سیّدَ السادات یا سَنَدی

کُن لی شفیعاً إلی الرحمن من زلَلی وامنُن علیَّ بما لا کان فی خَلَدی

وانظر بعین الرضا لی دائماً أبداً واستُر بفضلِک تقصیری مدی الأمد

ص: ۲۱۴

واعطف علىَّ بعفوٍ منك يشملنى فإنّنى عنك يا مولاى لم أحدِ

إنّى توسّلتُ بالمختار أشرفِ من رقى السموات سرّ الواحدِ الأحدِ

رَبُ الجمالِ تعالى اللّه خالقُه فمثلَه فى جميع الخلقِ لم أجِد

خيرُ الخلائق أعلى المرسلين ذُرًى ذخر الأنام وهاديهم إلى الرشدِ

به التجأتُ لعلّ اللّه يغفر لى هذا الذى هو فى ظنّى ومعتقدى

فمدحه لم يزل دأبى مدى عُمرى وحُبّه عند ربّ العرش مستندى

عليه أزكى صلاة لم تزل أبداً مع السلام بلا حصر ولا عدد

والآل والصحب أهل المجدِ قاطبة بحر السماح وأهل الجودِ والمدد

رسالة وقصيدة

تمتلك مكتبة البرلمان الإيرانى (كتابخانه مجلس شوراى اسلامى) مخطوطات نفيسة ونادرة، منها مجموعة برقم ۱۴۴۴۸ (جاء وصفها فى الجزء ۳۸ ص ۵۸۹ من فهرس المكتبة) فيها عدّة رسائل وكتب، منها الرسالة المسمّاة ب (تذكرة ابن عِراق)، وهو أبو الحسن علىّ بن محمّد بن عِراق الحِجازىّ المدنىّ الكنانىّ، المتوفّى سنة ۹۶۳ ه، وهو معدود فى أعلام الشافعية.

أمّا أصل التذكرة فيبدو أنّها فُقِدت وبقى لنا منتخبٌ منها، وأدرج جامع المجموعة الجزء الثانى من هذا المنتخب فيها، وهذا المنتخب من التذكرة يحتوى على قصائد ومقطوعات شعريّة ونثريّة، وبعض الرسائل الصغيرة، وقد اخترنا منه رسالة وقصيدة.

أمّا الرسالة: فهى تحتوى على وصفٍ للسّفرة التى قام بها العلّامة الأديب شهاب الدين أبو الثناء محمود بن سليمان إلى الديار المقدّسة، وقد نعت فى صدر الرسالة بأنّه (كاتب سرّ الشريف بدمشق سنة ۶۸۹ ه).

والرسالة تتضمّن أحاسيس أبى الثناء ومشاعره الجيّاشة فى تلك المواقف

ص: ۲۱۵

الشریفة، وخاصّة حین زیارته لمثوی النبیّ صلی الله علیه و آله ورؤیته للملیحة الملفوفة فی الخمار الأسود أی الکعبة المشرّفة، وقد مزج أبوالثناء بین النثر الرائق والشعر العاطفی، وأبرز من خلال اسلوبه الأخّاذ المتردّد بین الشعر والنثر عواطفه وأحاسیسه، وهو فی الواقع ترجمان لمشاعر کلّ مسلم تطأ قدماه تلک الرحاب الطاهرة.

والرسالة من ورق ۱۵۲ پ إلی ورق ۱۵۵ ر من المجموعة.

أمّا القصیدة: فهی لأحمد بن محمد الزعفرانیّ، ولا نعرف شیئاً عن تفاصیل حیاته، سوی ما یستفاد من مطاوی شعره أنّه کان عارفاً صوفیّاً، أو لعلّه یتظاهر بهما فی هذه القصیدة، والقصیدة تحتوی علی ۱۷ بیتاً، أوردها الجامع فی الورق ۱۲۷ من المنتخب.

[۱۵۲ پ] العلّامة الأدیب شهابُ الدّین أبو الثّناء محمود بن سلیمان، کاتب السرّ الشریف بدمشق المحروسة، کتب إلی بعض أصدقائه لمّا حجَّ سنة ۶۸۹، یَصفُ فیها ما جری له:

أمّا بعدُ: اللَّه المُسیّرُ فی البحر، المُیسِّرُ أداء نُسکِ الحجّ؛ مع السَّلامة من النَّحر (۱). والصّلاة علی نَبیّه الذی تُشَدُّ الرِّحالُ إلی حَرَمه (۲)، وتحذّی الآمال إلی روضة کرمه.

فإنّا سِرْنا لأداء حَجّة الإسلام، وزیارة (۳) قبر النبیّ علیه أفضل الصّلاة والسلام، نستوطئ للشَّوق الوهاد (۴)، ونُؤثِرُ النُّومَ علی الفتاد الوثیر مِنَ المَهاد، لا یستقرُّ بنا دارة منزلٍ، ولا نَبیتُ بحمًی إلّاوالکری عنّا بمَعْزل.

ونسألُ والدارُ تَدْنُو بنا عن القُرب فی کُلّ یوم مراراً

وَما ذاک إنّا سَئِمْنا الثّری وَلکِنْ دَنونا؛ فزدنا انتظاراً

وما منّا إلّامَنْ لَبِس الدُّجی، وأدْرعَ النّهار، وأرخی رکائب دُمُوعه حتّی

۱- ۱ التلف والهلاک.

۲- ۲ إشارة إلی الحدیث النبوی المشهور: «لا تُشدّ الرحال إلّاإلی ثلاثة مساجد ...» ومنها مسجد الرسول علیه الصلاة والسلام، وذلک لأجل درک فضیلة المسجد، وزیارة قبر النبیّ صلی الله علیه و آله.

۳- ۳ إشارة إلی الحدیث النبوی الذی رواه أصحاب السنن والمسانید، أنّه: «مَنْ حَجَّ وَلَمْ یَزُرْنی فَقَد جفانی» وقدواظب المسلمون علی زیارة قبره صلی الله علیه و آله؛ إمّا قبل بدء المناسک، أو بعد الانتهاء منها، أو فیهما.

۴- ۴ الصحاری والبراری المقفرة.

ص: ۲۱۶

جعلها فی أوّل القطار، وکلّما خشیتُ علی النُّوقِ الکلال، وعلی الحِداة (۱) المَلال، أنشدتُ بلسان الحال:

لا تَسْأمی یا نُوقُ طُولَ السّری فقد بَدَتْ أعلامُ وادی القُری

ولا تَملّی قَطْعَ عَرْضِ الفَلا وشِدَّة السّیر وجَذْبَ البُری

فَقَدْ عَرَضْنا الرُّوح فی حُبّ مَنْ سِرْنا إلیه والحبیبُ اشْتَری

غداً ترین الدّار مأهولةً وحُسن مَنْ تهوینَ قد أسفرا

قَصدتُ مَنْ عَمَّ جُودُه (۲) فاسْتَبْشِری منه بِحُسْنِ القِری (۳)

کلّما قیل: غَداً تدنو الدار، ویقرب المَزار، طربتُ علی السّماع، وتقرّبتُ المُلتقی مِنْ ثَنیّات الوِداعِ (۴)، وکفکفتُ العَبَرات، وأضَفْتُ إلی ما سلف من الأبیات:

قالوا: غداً ندنُو؛ فواحَسْرتا لو کانَ بالعُمر غداً یُشتری

یالیلةٌ قد بقیَتْ هل تُری أحمدَ فی صُبْحِ دُجاک السُّری؟

أحسدُ ریحاً خَطَرتْ بالحِمی وَبَارقاً فی ساحتیه سَری

وحین وصلنا إلی ثَنِیَّةُ المدینة النبویّة، عَلِمْنا أنّ لمشارکة اسمها استَحَقَّت الثَّنایا التقّبیل، ولمّا انجلت عنه بارقة اللّقاء، اتّصفَ بها الاشراق واتّصل، فشاهدنا نوراً خالف العادة إشراقه، وعزَّ علی ضوء النّهار لِحاقُه، وخَرْقُ العادة دَلیلُ الإعجاز، والنُّور الذی یَشرقُ به القلوب، هو المستحقّ لاسم الحقیقة، وما سواه مجازٌ؛ ففسحتُ لِطرف طَرْفی فی ذلک الافُق مجالًا، وأرسلتُ دمعی سِجالًا، وأنشدتُ إرتجالًا:

اللّهُ أکبر أیُّ بَرْقٍ لاحَا لی مِنْ ثَنِیّاتِ الوداعِ صَباحا

مَلأَ الوجودَ فَخِلْتُ أنّ الشّمسَ قَدْ طَلَعتْ وما نَشَرَ النّهارُ جناحا

یالیلةً بالنُّجْحِ أسْفر صُبْحُها نفسی فداک وإنْ غَرمَتْ أرواحاً

۱- ۱ الذی یحدو للإبل.

۲- ۲ هکذا ورد.

۳- ۳ الضیافة.

۴- ۴ موضعٌ علی طریق قباء جنوب المدینة المنوّرة، کان مُستَقبل ومستودع الحجیج.

ص: ۲۱۷

وصبیحةٌ قد بَشّرتْ بمُحمّدٍ هاک القُلوب، ودونَک الأرواحا

هذی النّخیل، وهذه الدّارُ التی جِبْرِیلُ کان بها مَسا وصَبَاحا

فَعَلامَ لا تطؤُ الجُفُون تُرابها ویقلُّ ذلک لو یکونُ مباحاً

ولمّا تحدّرنا مِنَ النّصاب، وقَذَفتنا بُطُونُ الأودیة مِنْ أفواه الشِّعاب، ولاحَتْ لنا الأنوار النبویّة مِنْ تلک القِباب، وابتدرنا إلی الحرم الشریف، والکریمُ قَد فَتَح الباب، ورَفَع الحِجاب، ومَلأ بالبرّ الرِحاب، فاسْتَعظمنا الإقدام علی المُقام، وعَجَزنا عن أداء ما یجبُ من السَّلام، فعبرتُ العبرات عن الکلام، واقتدینا بقاضی قضاة الإسلام (۱)، فی الوقوف بین یدی ساکنه علیه أفضَلُ الصَّلاة والسَّلام، وانتظمنا فی زمرته؛ لِنُساهم فی قِراهُ، إذْ مِنْ سُنّة الرسول صلی الله علیه و آله إکرام الکرام.

وحینَ فزتُ بکون مع تلک الزُّمرة فوزاً عظیماً، وإنّی دخلتُ مع تلک الفوجة مُدْخَلًا کریماً، وثقتُ بعد الاستغفار بالتوبة والرّحمة لقوله تعالی: ولو أنّهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوک فاستغفروا اللّه واستغفر لهم الرسولُ لوجدوا اللّه توّاباً رحیماً (۲)

. وأخذنا فی تلاوة القرآن المُنزل علیه فی حضرته، وشکَّ (۳) کلُّ منّا نفسه جالساً بین یدیه، یَعْرِضُ درسه فی سورته، ولمّا خَتَمنا التلاوة بالدُّعاء، وأطفأنا؛ بل أضرمنا نیران الشَّوق بماء البُکاء، هنّأنا النفوسَ ببلوغِ المُنی، وزوالِ العَنا، وأنشدتُ مُعْلناً:

بلغتُ مرادی ونِلْتُ المُنی وزاد السُّرور وزالَ العَنا

فماذا الذی تَرْتَجی بَعْدَها وَهذا الرَّسولُ وهَذا أنا

فَبُشراک بُشْراک یا ناظری تَملّ وإیّاک أنْ تُغْبنا

فحیثُ الْتَفْتُ رأیتُ الرسول وآثاره مِنْ هُنا أو هنا

تمل فهذا مکان الحبیب وهذا التواصل قد أسکنا

وَخَلّ الدُّموع إلی وقتها فإنّ حُسن الدُّموعِ عند الهنا (۴)

۱- ۱ أشار کاتب الرسالة فی هامش المخطوطة إلی أنّ القاضی هو شهاب الدین الجوینی.

۲- ۲ سورة النساء: آیة ۶۴.

۳- ۳ أی ظنّ وتخیّل.

۴- ۴ هکذا ورد.

ص: ۲۱۸

فَهَبّتْ علینا نَفَحات القبول من ذلک الخباب، ونفحتنا أرواحُ الرَّحمة فاجتلینا (۱) المحبوب مِن وراء الحجاب، وأقمنا کذلک ثلاثة أیّام، وهی العادة فی ضیافة العرب الکِرام، وفی کلّ لیلةٍ یتجدّدُ لنا مِنَ اللّطائف والظُّرف، والطرائف والزُّلف، ما تَقْصُرُ الألسنة عن نَعْتها، وما تری مِنْ آیة إلّاهِی أکبر من اختها (۲)

، ولمّا نَشبت قلبی بأهداب تلک الخیام، ووطّن نفسه دون بقیّة الجسد علی المُقام، خادعتُ مَرامه، وأنشدتُ أمامه:

للَّه أیُّ هوًی یُرامُهُ حَیثُ القلوبُ المُشْتهامةُ

لم یبقَ قلبٌ فی الحِمی إلّا وقد أعطی زِمامَهُ

ولمّا استلفتُ نجائب الرِفاق، وتهادینا تُحف الأسواق، وتَشارکنا روعة الفِراق، أعدی المطایا تشاکیهُ الغِرام، فلو أمّن مِن زَجْرة الحادی رجعن بنا، وحین حَمِدْنا السَّری، ووصلنا إلی امّ القری، وعَلِمْنا أنّا أضیاف اللَّه، فوَثِقْنا منه بحُسن القِری، وتبدّت لنا الکعبة الغرّاء فی أستارها، وتجلّتْ علینا الملیحةُ فی أنوارها:

وضعنا جُباهاً فی الّذی قَدْ تهلّلتْ أسارِیرُها منها وزاد سُرورها

وطفْنا بها سَبْعاً ورقّت ظِلالُها علی خائفٍ مثلی أتی یَسْتجیرها

وحین وقع نظری علیها، ومَثلتُ لدیها، أنشدتُ بلسان الخُضُوع، وکتبتُ بماء الدُّموع:

یاربَّ ذا البیت قد وافیتُ ساحته خَجْلانَ أحمِلُ بین الناس أوزاری

فَاجعل قِرای وإن لم استَّحقّ قِرًی بما تحمّلتُه عِتْقی مِنَ النّارِ

وحین أخذنا فی طواف القدوم، عَجّل لنا الحقُّ الکرامة بموجوده علی المعدوم، فجادت السَّماءُ بمائها، وسُحب الرَّحمة من أرجائها، وقضینا المناسک مهتدین بقاضی

۱- ۱ کشفنا.

۲- ۲ سورة الزخرف: آیة ۴۸.

ص: ۲۱۹

القُضاة فی قضائها، مقتدین بعلمه فی مشروع آدابها، وعُدنا إلی البیت الحرام نطوفُ به ونستلم، ونُقبِّل أرکانه ونلتزم، ونصیر عند استلام الحَجَر علی اصطلاء الاصطرام، ونغتفر الزحام عند الورود علی منهله، والمنهل العذب کثیرُ الزحام، فکمْ بِتُّ فی صُحبته لیالی أیّام الکعبة، نستنزلُ الألطاف بالمطاف، ونلذُّ المُقام بین الرُّکن والمَقام، وعرضتُ علی سمعه الکریم قصیدة فی الکعبة، من جملتها:

تبدَّتْ وقد مَدّت علیها سُتُورها ولو سفرتْ، أعنی عن الحُجب نورها

ممتعةٌ لا عِزَّ إلّالجارها ولیس الغنیُّ المحض إلّافقیرُها

تَجلّتْ فأخْفی ما علیها مِنَ الحلی سناها کما تُخْفی اللیالی بدورها

یطوفُ بها الأملاکُ فی کلّ ساعةٍ وإن لم یکن بین الأنام مُرُورها

ویسجدُ مِنْ کلّ الجهاتِ لوجهها سواءٌ تراءت أو توارت قُصُورها

قطعنا إلیها البَیْد لیس یَرُوعنا سُهولُ الفیافی دونها وَوُعُورها

وهل تَرْهبُ الأخطاءَ نفسٌ مشوقةٌ تبیتُ ولیلٌ بالحمی تستزیرُها

وکیف یَخافُ النفس مِنْ دونها الرَّدی وقَدْ قصدتها والنبیُّ خَفِیرُها

وحین طفنا طواف الوداع، وتعیّن العزْمُ علی الأزماع (۱)، وَدّعنا البیتَ الحرام، والدُّموع تستوقف القَطار، وتستوکف الأمطار، ولمّا وصلنا إلی رأس وادی العقیق (۲)، وتراءت لنا بعد البعاد أعلام ذلک الفریق، أعجلنی فَرَق الفراق عن استکمال الخطّ مِنْ فَرَح التّلاق، فأنشدتُ قصیدة من جُملتها:

ذاک الفراقُ وإنْ أصمّ مَسامِعی لم یَخْلُ مِنْ هذا اللّقاء مَطامعی

فَلِذاک لمْ یبلُغْ بی الظّمأ المدی حتّی أعاد إلی العذیب مشارعی

لم یَبْقَ بعد البُعد إلّاأنّنی فارقتُ أحبابی بنیّة راجعِ

ما الشأنُ فی بینٍ توقّعتُ اللّقاء فی منتهاهُ، فکانَ أقرب واقعِ

۱- ۱ المضاء فی الأمر والعزم علیه.

۲- ۲ من الودیان المشهورة ببساتینها ونخلها وزرعها بأطراف المدینة المنوّرة وهی تقع فی الشمال الغربی منها.

ص: ۲۲۰

الشأنُ فی هذا الذی أخْشَی به إنّ الحمام یکونُ عنهم قاطعی

لو لم اعلّل مُهْجتی بلقائکم لم یستَقرّ القلبُ بین أضلاعی (۱)

خلّوا فؤادی فی الحِمی وُحشاشتی کَرَماً لأذکر عندکم بودائِعی

وتشارعنا إلی الرُّوضة الشریفة، وکنّا ظننا أنّ الدموعِ نَفَدت، وأنّ نیرانَ القلوبِ خمدت، فتراکمتْ مِنَ العُیُون سجّیها، وتزایدَ مِنَ القُلوب لهیبها، وأخذنا بعد السلام فی شرح الأشواق، وإنْ کانت الإحاطة بوصفها ما لایُطاق، وبتنا نُطفئ نیران الأشواق بماء العبرات، ونناد رسول اللَّه صلی الله علیه و آله مِنْ أمام الحُجرة؛ لا من وراء الحُجُرات، وخَرَجنا بنیّة العود قبل الرحیل، وعزمنا علی الرجعة والقدر یتلو، ونحنُ علی ذلک الحال وحیل، ومنعنا دخول الحرم لتوقّع السَّفر، وزعموا أنّ من خطر له الدخول کان علی خَطَر، فانقطع بی الرَّجاء، وضاقتْ بی الأرجاء، وأنشأتُ من الأبیات المقدّم ذکرها:

قالوا: الرحیل، وما تَمَلّت باللّقا عینی، ولا امتلأت بغیر مدامعی

فَتَیقَنتْ روحی بأنّ مقالهم أن یَصْدُق الحادی أشد مصارعی

فوقفتُ بین تأمّلٍ وتَململٍ یبدو السُّرور علی فؤادی الجازع

حَیْرانَ لا أدْری لقُربِ رائقٍ أذْری المَدامِعَ، أم لبُعدٍ راجع

تمّت الرسالة.

وإلیکم القصیدة:

لأحمد بن محمّد الزعفرانی، قال وقد حجَّ:

إلیک حَجّی لا لِلْبیتِ ذی المَدَر وأنتَ قَصْدی لمحو الوَهْمِ والأثر

وأنتَ رُکْنی لا أبْغِی به بَدَلًا ولا أحجُّ إلی حِجْرٍ ولا حَجَر

۱- ۱ هکذا ورد.

ص: ۲۲۱

وَصَفْوَتی فِیکَ أنْ أصفُو مِنَ الکَدَر ومَروْتَی أن یمرَّ الکُلُّ عن نَظَر

وزمزمی زَمّ قَلْبی عن هوای وما أخافُ منه علی خَدّی من بَصَر

والسَّعی سَعیان: سعیُ القَلْبِ أشرفُ من سعیٍ عَلی قدمٍ مَذْمُومهٔ الخَطَر

والحَجُّ حَجّان: حَجٌّ مفرد نُسُکاً وقارنٌ عُمْرهً بالورد والصّدر

وکونه مُفرداً أعلی لرُتْبته لفظاً ومعنیً وعند البحث والنظر

وزُلفتی غیر ما سَمّوه مُزْدَلِفاً بالقُرْبِ منک وهَدْیُ الرّوح للحَزر

وفی مِنًی لی أمانٌ لستُ أنکرها عند المعرّف أقضی فیهما وَطَری

وما جِمارِی أحْجَارٌ بلا شَرَر مِنْ حرّ جَمْرِ فؤادٍ دائم الشَّرر

ومسجدُ الخَیفِ خوفُ الفوت مَنْ أملی وآهٍ آه علی قلبی مِنَ الحَذَر

وأینَ لا أینَ لی زادٌ یُبلّغُنی غیر الرَّجاء الذی أحْدُو به سَفَری

لَقَد حَجَجتُ وَمَا قرّبتُ راحلهً غَیر الیقین، وفیه أیُّ مُعتبرِ

ص: ۲۲۲

زادی الیقین، ومائی عَبْرتی أسفاً خوفاً مِنَ الرَّد، والإشفاقُ مِنْ غَرری

یا زعفرانیُّ صَحّح ما نَطَقْتَ به وامْهِد لِنَفْسِک قَبْل المکث فی الحُفر

وَحاسِب النَّفْسَ فی الأوهام، وابکِ علی ما کانَ مِنْکَ، وإلّا فَابْکِ لِلْعُمر

اسْتَغفرِ اللَّهَ مِنْ قولٍ بلا عَمَلٍ ومِنْ مقامی علی الإنکار مع کِبری

*** الهوامش:



ص: ۲۲۴

مهمّات مشبوهة فی الديار المقدّسة (۶)

مهمّات مشبوهة فی الديار المقدّسة (۶)

مهمّات مشبوهة فی الديار المقدّسة (۶)

حسن السعيد

بورتون؛ ضابط مخابرات متنكِّر يطالب باحتلال مكّة!

فی الحلقات السابقة من هذا الموضوع، تطرّق الحديث إلی ظاهرة قيام عدد من الغربيّين بالمجیء إلی المنطقة الإسلامية، خاصّة الحجاز بغية استكشافها والاطّلاع عليها عن كثب.

كانت البدايات المتردّدة الخجول مطلع القرن السادس عشر؛ لتغدو لاحقاً ظاهرة مثيرة للانتباه، لاسيّما فی أعقاب حملة نابليون علی مصر (۱۷۹۸ م)، عبر الحضور المكثّف لشتّی الدول المتنافسة علی إيجاد مواطئ قدم..

وفی غمرة تصاعد التنافس الاستعماری.. أمست جزيرة العرب بشكل عام، والحجاز خاصّة، مسرحاً لمغامرات عديدة، قام بها دبلوماسيّون وضبّاط وموظّفون ومغامرون وجواسيس، مع حرص شديد علی إخفاء هويّاتهم الحقيقيّة، والتظاهر بأنّهم مسلمون يؤدّون فريضة الحجّ، منتحلين أسماء إسلامية إمعاناً فی التمويه، بل ذهب بعضهم إلی الزعم بأنّه من سلالة الأشراف!

هنا نواصل رصد هذه الظاهرة، من خلال التعرّف علی أبرز شخوصها،

ص: ۲۲۵

محاولين تسليط الضوء الكاشف على الجزء الطافى من مهمّاتهم المشبوهة.

*** (الحاج) بورتون!

صبيحة يوم الخامس والعشرين من تموز (يوليو) ۱۸۵۳ م، وصل المدينة المنوّرة بريطانی متنكِّر باسم «الحاج عبداللّه»؛ ليغدو أحد أبرز الرحّالة الأوروپيين الذين قاموا بمهمّتهم المناطة بهم خير قيام.

ولم يكن هذا (الحاج) سوى «السير ريتشارد فرنسيس بورتون» الموظّف فی شركة الهند الشرقية المعروفة، وقد حظی «بورتون» من الشهرة الواسعة، بسبب مهمّته تلك، حتّی إنّ العديد من الأوساط قد أولته اهتماماً خاصّاً، إذ لم يُكتب عن أحد بقدر ما كُتب عن رحلة «بورتون» إلی جزيرة العرب (۱).

هذا الاهتمام الخاصّ لم يولد من فراغ، كما لم يكن محض تقليد بريطانی إزاء رجالاتها المغامرين الكبار، بقدر ما يتعلّق الأمر بالديناميكية التی اتّسم بها بورتون. فليس هناك بين جميع الرحّالة الذين ذهبوا إلی الوطن العربی من هو أكثر نشاطاً أو أغزر قلماً من الرحالة الفيكتوری، فی أواسط القرن التاسع عشر وريتشارد بورتون. ما من رحّالة فی جزيرة العرب، باستثناء تی.

إس. لورنس، كتبت سيرة حياته مرّات أكثر منه، بل إنّ أوّل سيرة نُشرت عنه قبل عشر سنوات من وفاته. لقد رحل إلی افريقيا والهند وسوريا وشمال أفريقيا والبرازيل وجزيرة العرب التی ظلّت بين هذه جميعاً، كما قال هو نفسه:

«البلاد التی تولّعت بها» (۲).

كتب بورتون تقريباً فی كلّ المواضيع من تربية الصقور، إلی المناجم، إلی الآثار، إلی الطبّ، إلی الهندسة، إلی تسلّق الجبال إلی آخره. وكتب عن رحلاته فی كلّ مكان من الأرض تقريباً، ووضع عن أفريقيا وحدها ۱۳ كتاباً تقع فی ۴۶۰۰ صفحة، غير أنّ الجزيرة العربية ورحلته إليها ظلّت، كما قال أفضل ما فعله فی حياته (۳).

وإذا كانت مقولة «المرء ابن بيئته» تحظی بقدر كبير من المصداقية، فإنّ بورتون سيكون بالتأكيد ابن عصره الفيكتوری [نسبة إلی عهد حكم ملكة

۱- ۱ سمير عطا اللّه؛ «قافلة الحبر: الرحالة الغربيون إلی الجزيرة والخليج ۱۷۶۲- ۱۹۵۰ م، دار الساقی، لندن، ۱۹۹۴ م: ۸۱، وصحيفة الحياة ط لندن: الاثنين ۴ أيار مايو ۱۹۹۲ م، مقال مسلسل؛ «أوروپيون فی الشرق- ۷» لرلی الزين.

۲- ۲ د. حلمی خضر ساری؛ «صورة العرب فی الصحافة البريطانية»، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ۱۹۸۸ م: ۴۳.

۳- ۳ قافلة الحبر؛ مرجع سابق: ۸۱.

ص: ۲۲۶

بريطانيا فيكتوريا الممتدّ من ۱۸۳۸- ۱۹۰۱ م] والذی اتّسم بتصعيد وتائر التطلّع الاستعماری، فی الغرب عموماً، وفی بريطانيا بشكل خاصّ.

من هنا؛ كان مستشرق القرن التاسع عشر إمّا باحثاً (مختصّاً بالصين، أو بالإسلام، أو بالدراسات الهندو- أوروپية)، أو متحمّساً موهوباً (مثل هوغو فی «الشرقيون»، وغوته فی «الديوان الغربی الشرقی»)، أو كلا هذين (مثل ريتشارد بورتون، ادواردلين، فردرك شليغل) (۱)، وقد كان بورتون- كرحّالة- مغامراً حقيقيّاً، كما كان- كباحث- قادراً على الوقوف ندّاً لأیّ مستشرق جامعی فی أوروپا، وكان- كشخصيته- واعياً وعياً تامّا لضرورة التصادم بينه وبين المعلّمين الرسميّين، الذين أداروا أوروپا والمعرفة الأوروپية بهذه اللاهويّة الدقيقة وتلك الصرامة العلمية. ويشهد كلّ شیء كتبه بورتون، لهذا الاستعداد للصدام، بازدراء لمنافسيه نادراً ما بلغ الدرجة التی بلغها فی تمهيده لترجمته لألف ليلة وليلة. ويبدو أنّه قد وجد نوعاً خاصّاً من المتعة الطفولية فی إظهار أنّه كان ذا معرفة تفوق معرفة أیّ باحث محترف، وأنّه قد اكتسب تفاصيل تفوق كلّ ما اكتسبوه، وأنّه كان قادراً على التعامل مع المادّة بفطنة وكياسة وطراوة هم عنها عاجزون.

وقد اعتبر بورتون بحقّ الأوّل فی سلسلة من الرحّالة الفيكتوريّين إلى الشرق الذين كانوا فرديين بعنف (۲)..

وسيكون لتصاعد روح الثقة بالنفس والشعور بالقوّة فی أوروپا القرن التاسع عشر مع تقدّم عقود القرن، أثره فی نوع الرحالة ومهمّاتهم ومقدار تصميمهم.

وسنجد فی هذا العصر رجلًا مثل بورتون يتجوّل فی طول الجزيرة وعرضها، غير متورّع عن ارتكاب جريمة القتل بعد شكّ أحد الأهالی بأنّ (الحاج) عبداللَّه ليس سوى رجل نصرانی لا يحسن المعرفة بالإسلام أو اللغة العربية. ولكنّ (الحاج) عبداللَّه سيعود ليغذّی المخيّلة العربية من خلال أوراقه التی نشرتها زوجته بعد وفاته ومن قصص ألف ليلة وليلة التی ترجمها. كما أنّه سيمهّد السبيل إلى

۱- ۱ ادوارد سعيد؛ «الاستشراق: المعرفة. السلطة. الانشاء»، تعريب كمال أبو ديب، ط ۲، ۱۹۸۴ م: ۸۱.

۲- ۲ المرجع نفسه: ۲۰۶.

ص: ۲۲۷

مکتشف آخر هو بلغریف وتالیه داوتی. وسیضع هذان الرجلان تقلیداً جدیداً فی تاریخ الرحلات إلی الجزیرة العربیة ذلک هو تخلّیهما عن اتّخاذ صفة المسلم (۱).

الشخصیة المغامرة

وککلّ الشخصیّات المثیرة للجدل، فإنّ المؤرِّخین- والبریطانیّین تحدیداً- اختلفوا فی تقییم بورتون، ولو أنّ الخلاف لم یتناوله کرجل غامض.. لکن البعض رأی فیه، فی تلک المرحلة التوسّعیة من تاریخ بریطانیا، شیئاً شبیهاً بالجنرال غوردون الذی حاول تطویع السودان بقوّة المدفع..

وفی حین ینظر «روبن بیدویل» بخِفّة إلی بدایات بورتون واختیاره اللغة العربیة فی اوکسفورد، فإنّ مؤرّخین آخرین یرون فی هذا الاختیار تکریساً للغة أحبّها منذ البدایة.

وفی حین یری بیدویل فی سفر (والده) جوزیف بورتون إلی فرنسا وایطالیا شیئاً من «الغجریّة» فی دماء العائلة، فإنّ البعض الآخر یری تفسیرات أکثر دقّة فی سِیَر بورتون الاخری. والواقع أنّ سفر جوزیف بورتون فی العام ۱۸۲۱، أی بعد قلیل من رؤیته للنور، هو الذی سیغیّر الکثیر من مجری حیاته.

کان هناک محرِّک واحد لریتشارد بورتون هو حبّ الشهرة، إنّها الرغبة التی لن تشبع أبداً.. کما کان بورتون مجموعة من المتناقضات (۲) فقد کان یواجه إهمال وعدم احترام بعض الناس له بشجاعة ومرارة، حتّی إنّه کان یطیب له أن یظلّ مجهولًا، ومع ذلک فقد کان علی یقین أنّ العالم لا یمکن أن یغفل اسمه فی النهایة.

لقد کان بورتون محبّاً للظهور بشکل ربّما اعتبره أبناء طبقته من الانکلیز ممجوجاً ومبتذلًا، وکان طیلة حیاته متضایقاً، أو ربّما أتلفه ضیق الافق الذی کان رجال طبقته علی النقیض یتفاخرون به. ویجب أن نضیف أیضاً- یقول بیتربرینت-: «إنّ القوّة الدافعة والزخم الذی جعل من بورتون ذلک الرجل الاسطوری یعود الفضل فیه إلی حبّ زوجته له حبّاً یقرب من العبادة، بشکل یفوق أی مجهود آخر بذله هو

۱- ۱ یُراجع مقال «رجال علی ظهر الرمال العربیّة» لعبد الرحیم حسن، مجلّة العالم لندن، العدد ۲۷۶- ۲۷ آیار مایو ۱۹۸۹ م- ۲۲ شوّال ۱۴۰۹ ه: ۵۱.

۲- ۲ قافلة الحبر؛ مرجع سابق: ۸۷- ۸۸.

ص: ۲۲۸

لنفسه، لخلق تلك الشعبية الواسعة. فقد كان طيلة حياته بريطانياً غيوراً. وكان كلّ ما يطلبه احترام الجمهور له والمكافآت التى يستحقّها من حكّام البلاد والمسؤولين. ولكى يحرز هذه الامور عمل على إنجاز الواجبات التى ربّما أظهرته للعيان. ولكن الأمر المؤسف والمأساوى، من وجهة نظر مواطنه برينث، هو أنّ أحداً لم يفهمه، ولم ينل أى إعجاب أو استساغة من الجمهور، وهكذا فلم تتوفّر له الفرصة لنيل مقاصده (۱).

وتظلّ المفارقات تلازم بورتون كالظلّ، فهذا الرجل الذى طرد من أوكسفورد؛ لأنّ زميلًا له سخر من شاربيه، سوف يرى خلال تنقّله فى جزيرة العرب أنّ شاربيه الكثّين هما اللّذان حبّباه إلى الناس، حتّى إنّ أحد مشايخ بنى حرب سمّاه «أبو الشوارب»! على أنّ ذروة أعماله سوف تظلّ، فى العرب طبعاً، ذلك الوصف الذى وضعه لمكّة المكرّمة ولحظة الانبهار أمام الكعبة (۲).

إنّ ما يثير الغرابة فى حياة بورتون هو أنّ نجاحه الخالد غير المشكوك فيه، كان مؤسّساً على اعتقاد جازم بأنّه أوّل رجل اوروبى دخل إلى (مكّة) وأنّ هذا الاعتقاد كان مجرّد خيال محض.

ولم يكن بورتون هو الذى عزّز ورعى هذا الاعتقاد فهو عند وصفه لذلك المكان القدسى (أى مكّة) اعتمد كلّياً وبصراحة وإعجاب على عمل ذلك السويسرى بيركهارت. فلم يكن بورتون أوّل شخص يقوم بأداء مناسك الحجّ متخفّياً بل لقد رأينا كيف أن دومينگو باديا ليبلش قد وصل فى العقد الأوّل من القرن التاسع عشر إلى مكّة راكباً ظهر جمل، ومنتحلًا اسم «على بك العبّاسى». ولربّما كان أوّل مصدّق لتلك القصة، التى تقول: إنّ بورتون هو أوّل من قد دخل مكّة، هو وزوجته الليدى بورتون، التى كانت من خلال ترمّلها، قد صمّمت على وضع زوجها السير ريتشارد بورتون فى المكان الملائم لكفاءاته.. (۳).

إنّ الليدى بورتون هى التى تحاول الإيحاء بذلك، فى مقدّمة النسخة التذكارية لكتاب الحجّ، والتى تتألّق

۱- ۱ بيتربرينث؛ «بلاد العرب القاصية: رجلات المستشرقين إلى بلاد العرب»، ترجمة خالد عيسى أسعد وأحمد غسّان سبانو، دار قتيبة، بيروت، ۱۴۱۱ ه- ۱۹۹۰ م: ۱۴۲.

۲- ۲ قافلة الحبر؛ مرجع سابق: ۸۸.

۳- ۳ بلاد العرب القاصية؛ مرجع سابق: ۱۴۲- ۱۴۳.

ص: ۲۲۹

منظر عام للمدينة المنوّرة (رسم بورتون)

ريتشارد بورتون (لوحة من رسم لويس دوزانج)

ص: ۲۳۰

منهـا نظرات الإعجـاب الرومانسـی إلی الحـدّ الـذی یقف فیه کلامهـا کسـتار أو حـاجز رقیق بیننا وبین أولئک المغامرین الـذین دبّروا أمورهم، ودخلوا مکّهٔ فعلًا منذ أیّام ثاریتما.

وفی هـذه المقدّمـهٔ لا تدّعی کاتبتها أنّ رحلهٔ زوجها کانت الرحلهٔ الاولی (فهی لا تسـتطیع ذلک ما دام أنّ بورتون نفسه یذکر الشـیء الکثیر عن رحلات الآخرین) ولکنّهـا تسـتعمل أسـلوباً یشـیر ضـمناً إلی ذلـک. وهـذا یقودنـا إلی اعتبـار عمـل هـذه السـیّدهٔ نوعاً من المغامرات لا یجرؤ کثیر من الناس علی القیام بها، حتّی إنّ القلیل من الناس ینجحون فی مثل هذه الأعمال، ولکن لا بأس أن نذکر أنّه حتّی لو کانت لهجتها مضلّلهٔ، إلّا أنّها لا تخلو من شیء من الصواب فی آرائها (۱).

ولعلّ النجاح المتمیّز الذی حقّقه بورتون فی وصف رحلهٔ الحجّ، هو الذی حفّز زوجته إلی المضـی بعیداً فی مضمار المباهاهٔ. وإذا کان المستر بیرکهارت لم یسـتطع فی بعض الأحیان القیام بجمیع مناسک الحـجّ وتفاصـیله علی الوجه الأکمل، فقد اسـتطاع السـیر ریتشارد بورتون أن یفعل ذلک بعده بأربعین سنهٔ من دون أن یُکتشف أمره علی الإطلاق. وکان الفضل فی ذلک یعود إلی إتقانه التخفّی، بعد أن تعلّم العربیـهٔ والفارسـیهٔ والترکیهٔ، وأتقن تعلّم الفروض الدینیهٔ المعروفهٔ عند المسـلمین، وقد اسـتعدّ لذلک قبل أن یقدم علی رحلته الخطرهٔ بأشـهر عدیـدهٔ، واتّخـذ جمیع التـدابیر اللازمـهٔ للقیام بمهمّته خیر قیام، ومن جملـهٔ ذلک أنّه عمـد إلی الاختتان وهو یومئـذٍ فی الثانیهٔ والثلاثین من عمره! وقد جرّب علاوهٔ علی ذلک تأثیرات الصبغات المختلفهٔ فی جلده ومظهره، وتعلّم التنعّل واستعمال الرمح وما أشبه (۲).

ولـذلک فإنّ المرء لیأخذه العجب حینما یطّلع علی مغامرات بورتون، التی جعلت منه اعجوبهٔ من الأعاجیب، فقد کان یتقن لغات عدّهٔ، بالإضافهٔ إلی کثیر من اللهجات المحلّیهٔ المعروفهٔ فی الشـرق الأوسط والأقصی.. وقد جعلت منه أخبار رحلاته ومغامراته رجلًا اسطوریاً، وهو فوق هذا کاتب

۱- ۱ المرجع السابق: ۱۴۳، بشیء یسیر جدّاً من التصرّف.

۲- ۲ جعفر الخلیلی؛ «موسوعهٔ العتبات المقدّسهٔ- ۲، قسم مکّهٔ»، مؤسّسهٔ الأعلمی، ط ۲، بیروت، ۱۴۰۷ ه- ۱۹۸۷ م: ۲۹۴.

ص: ۲۳۱

مبرز، ترک عند وفاته أکثر من ثمانین کتاباً یصف فیها رحلاته، وما لقی من أخطار.

ومن رحلاته التی خلّدته رحلته إلی مکّة والمدینة، وکشفه عن أسرار قلب جزیرة العرب؛ فقد فضی عنه ثیابه الأوروپیة، واستبدلها بملابس مسلم أفغانی فی طریقه لأداء فریضة الحجّ، وتسمّی باسم الحاج عبداللّه. وقد وصف لنا «بورتون» بدقّة رحلته هذه فی کتاب ممتع من جزأین ضخمین هو «الحجّ إلی المدینة ومکّة» [۱۸۵۵- ۱۸۵۶ م].. وقد عدّه الباحثون من أشهر روّاد قلب جزیرة العرب (۱).

فمن هو هذا البریطانی المتأفغن؟ وما هی حکایته؟ وماذا عن طبیعة مهمّته الخاصّة؟

سیرة حیاة

یقول الزرکلی: «ریتشارد فرنسیس بورتون Burton Francis Richard مستشرق انکلیزی رحّالة، ولد فی «هرتفورد شایر» (عام ۱۸۲۱)، وکان والده «جوزیف نیترفیل بورتون» ضابطاً فی الجیش البریطانی، وجدّه «ادورد بورتون» قسیساً فی آیرلنده» (۲).

قیل: إنّ عائلته تنحدر من أصل غجری، أو هکذا قال المؤرِّخون والباحثون، مع أنّ امّه تدّعی أنّها تنحدر بصورة غیر شرعیّة من سلالة لویس السادس عشر. ومع أنّ والده کان ضابطاً فی الجیش، لکنّ الدلائل علی «غجریّة» بورتون کثیرة (۳) ممّا دفع بعض الباحثین إلی التساؤل عن الغموض الذی یکتنف أصل بورتون، بل أنّ سحنته کانت مدعاة لتعزیز التکهّنات المثارة حوله، وقد ساهمت زوجته اللیدی بورتون فی تعمیق ذلک، إذ تمیل- وهی التی تتّصف بالرومانسیة دوماً- إلی التلمیح إلی أنّه کانت تجری فی عروق زوجها دماء اخری غیر الدماء الأوروپیة کدماء العرب والقرباط مثلًا، والتی أورثته شهوة التجوال (۴).

ثمّة إثارة اخری فی هذا الاتجاه؛ إذ ما إنْ رأی بورتون النور فی العام ۱۸۲۱ م، حتّی رمی والده الثیاب العسکریة خلفه، وراح یتیه فی فرنسا وایطالیا،

۱- ۱ د. محمود السمرة؛ «مراجعات حول العروبة والإسلام وأوروپا»، کتاب العربی الرابع، الکویت ۱۹۸۴ م: ۱۲۳. ومن المثیر للاستغراب انّ الباحثة الفرنسیة جاکلین بیرین قد أهملت الإشارة إلی بورتون فی کتابها «اکتشاف جزیرة العرب». کما فعل ذلک عبد الرحمن بدوی فی «موسوعة المستشرقین!!».

۲- ۲ خیر الدین الزرکلی؛ «الأعلام»، دار العلم للملایین، ط ۷، بیروت، ۱۹۸۶ م، المجلّد الثالث، ص: ۳۸، وکذلک نجیب العقیقی؛ «المستشرقون»، دار المعارف، ط ۴، القاهرة د. ت، الجزء الثانی: ۵۹.

۳- ۳ قافلة الحبر؛ مرجع سابق: ۸۱.

۴- ۴ بلاد العرب القاصیة؛ مرجع سابق: ۱۴۴.

ص: ۲۳۲

وهکذا لم یتلق سوی القلیل من التعلیم الرسمی. وکان الکولونیل بورتون ینوی إدخال ابنه فی سلک الکهنوت؛ ولذا أرسله إلی أوکسفورد لتعلّم مبادئ اللاهوت (۱)، بید أنّ الشاب جُبل علی التمرّد فلم یتقیّد بقواعد التقالید البریطانیة، فضلًا عن أنّه تصرّف بطریقة منافیة لقواعد الرصانة والوقار، فقد سبق وأن تعلّم فی منزل والده المبارزة بالسیف، وصار یتحدّی الجمیع إلی منازلته، وخلال الدراسة الکهنوتیة دعا أحد رفاقه إلی المبارزة؛ لأنّ هذا سخر من شاربیه (۲).

ولهذا وذاک، فقد طُرد من الجامعة طرداً مؤقّتاً، وقد کان فی نیّته الرجوع إلی الجامعة، لولا سماعه نشوب الحرب فی بلاد الأفغان فی آسیا، فبدأت أحلام المغامرات تنتابه، فأقنع والده بشراء براءة لمرتبة عسکریة، وفی عام ۱۸۴۲ م، وعندما کان فی الحادیة والعشرین من العمر أبحر إلی الهند، وسرعان ما أصبح ضابطاً فی فرقة المشاة، وهی الفرقة الثامنة عشرة (۳).

فی تشرین الأوّل (اکتوبر) ۱۸۴۲ م وصل بورتون إلی بومبای، فی أولی رحلاته حول العالم، وهو ضابط برتبة ملازم ثانٍ فی «شرکة شرق الهند الامبراطوریة». وسرعان ما أظهر مقدرته الفائقة علی تعلّم اللغات، حین راح یتقن لغة جدیدة کلّ بضعة أشهر، حتّی قیل: إنّه فی أواخر عمره کان قد صار یتقن ۲۹ لغة و ۱۲ لهجة إقلیمیة (۴).

بخصوص تعلّمه اللغة العربیة، فقد بدأ دراستها فی جامعة أوکسفورد، ولکنّه لم یکمل دراسته هذه لانضمامه إلی الجیش البریطانی فی الهند، حیث استأنف دراسة العربیّة عن طریق سکنه فی المقاطعات الإسلامیة (۵) وتعلّم الفارسیة علی أساتذة مسلمین (۶).

لم یکتفِ بورتون بإتقان اللغات، بل کان یتنکّر بثیاب أهل البلد وینتحل هویّة محلّیة، ففی الهند مثلًا، کان یستأجر متجراً فی السوق ویجلس کباقی الباعة یفاصل فی الأسعار مع الزبائن الذین لم یتمکّنوا من التفرقة بینه وبین باقی التجّار (۷)، وفی بلاد کالهند تکثر

۱- ۱ قافلة الحبر؛ مرجع سابق: ۸۲.

۲- ۲ المرجع نفسه: ۸۲.

۳- ۳ بلاد العرب القاصیة؛ مرجع سابق: ۱۴۵.

۴- ۴ قافلة الحبر؛ مرجع سابق:

۵- ۵ سورة العرب فی الصحافة البریطانیة؛ مرجع سابق: ۴۳.

۶- ۶ المستشرقون؛ مرجع سابق ۲: ۵۹.

۷- ۷ صحیفة الحیاة؛ مرجع سابق.

ص: ۲۳۳

اللغات لم يكن الناس يهتمّون بالأخطاء اللغويـة فى اللفظ أو فى نبرة الكلام التى تـدلّ على إتقان المصـطلحات اللغوية، ولماذا يشـكّك ذلك الشعب الفقير بشخصية فقير غريب آخر يحتشد معهم فى عالمهم الخاصّ يا ترى؟ (۱).

غير أنّ ممارسـة هوايته المفضّـلة هذه لم تسـتمر، إذ حالت دونها العوائق؛ لأنّ تقمّص شخصـيّة الباعة والنزول إلى الأسواق من دون أن يلاحظه أحد جلبا له المتاعب من قبل مرؤوسـيه فى الجيش، الذين لم ترق لهم هذه التصرّفات، خصوصاً أنّه أرفقها ذات مرّة باختطاف راهبة، أو بملءِ منزله بالسعادين التى كان يجلسها معه إلى طاولة الطعام.

لكن اختلافه وتآلفه مع شـريحة من الشـعب، كـان معظم زملائه الضـبّاط يحتقرونهـا، سـبّب له نوعـاً من الازدراء والاحتقار أكثر من الإعجاب من قبل زملائه. فقـد كان هؤلاء الضـبّاط يتّخذون الخليلات أو الزوجات المؤقّتات من بين أفراد الشـعب حولهم، ولكنّهم لم يتنازلوا بفعل أكثر من ذلك.

ولكن بورتون من جهة اخرى اتّخذ شخصية «الميرزا عبداللّه» وهو بائع متجوّل من أصل نصفه فارسى ونصفه عربى؛ ولهذا لا عجب أن نرى «السير تشارلز نايير» الذى أخمد الثورة فى السند يعمد إلى استخدام بورتون لمساعدته، بعد أن اكتشف أنّه كان بحاجة إلى معرفة المهـارات اللغويـة التى تختلف عن المهـارة فى نشـر الجنود وإدارة المعـارك. وتلت ذلك خطوة اخرى وهى إرسال ذلك الشاب فى مهمّات سـريّة تُظهر النزعات الامبراطورية التوسّـعية- كما يقول الباحث البريطانى بيتربرينث- وكانت إحدى المهمّات جمع المعلومات حول الميول الجنسـية للسـكّان الـذكور فى المنطقة؛ ولذلك فقد عمد بورتون إلى إصدار تقرير وافٍ شامل عن ذلك الموضوع. وفى أثناء تلك الفترة ترك «نابيير» الهنـد، ولكن سـرعان ما تسـرّبت الإشاعات عن تقرير بورتون هذا، ووصـلت إلى الرأى العام البريطانى، وهكذا تحطّمت سمعة بورتون على صخرة النطاق البشرى.

وبعدها بدأ البريطانيّون الجدد

۱- ۱ بلاد العرب القاصية؛ مرجع سابق: ۱۴۵.

ص: ۲۳۴

الآتون من بريطانيا، والذين لم يكن لديهم أى مواهب أو مقدرة يرتقون فى وظائفهم فوق رأس بورتون. أمّا بورتون فقد بدأ بالاهتمام بالثقافة، أو الثقافات الهندية. وقيل: إنّه انضمّ إلى البراهمة، لكن ربّما كان هذا الخبر لا يخلو من المبالغة. ونظراً لإجادته اللغة العربية والفارسية فمن المعقول والمقبول ظاهرياً أنّه قد انغمس فى أساليب ومفاهيم أولئك الأساتذة المسلمين من الصوفية، فقد قيل: إنّه قد أصبح من «الدراويش»، وإنّه أصبح «استاذاً» إذ ربما حدث ذلك، ولكن مدّة إقامته فى الهند كانت قصيرة غير كافية لرجل أجنبى للارتفاع إلى المراتب العليا فى المذاهب الدينية فى نظام قاسٍ كالنظام الذى كان سائداً هناك، على حدّ تعبير بيتر برينث (۱).

أمضى بورتون حوالى سبع سنوات من الإقامة فى الهند، وقد خاض فيها تجربة خاصّة لا تخلو من غرابة وثراء واستحقاقات. ولمّا رأى أنّ كلّ طرق التقدّم فى الهند قد سُدّت فى وجهه طلب إجازة مرضية مطوّلة وعاد إلى أوروپا، حيث أمضى أربع سنوات فى الدراسة والكتابة (۲).

ورغم أنّه عاد إلى بلاده مثقلًا بأوزار الفشل وقد أنهكه المرض والحمّى.. غير أنّ حادثين حاسمين صادفاه فى انكلترا وفرنسا بدّلا مجرى حياته. ففى بولون قابل الفتاة ايزابل التى كان ينوى مؤجّلًا الزواج منها (ولكن تلك النيّة كانت حقيقة واقعة بالنسبة إليها) والأمر الثانى هو أنّه عرض نفسه للعمل مع الجمعية الجغرافية الملكيّة فى لندن لاكتشاف ما وصفه ب «البقعة الشاسعة البيضاء فى خرائطنا التى تدلّ إلى المناطق الشرقية والوسطى فى شبه الجزيرة العربية» وكانت خطّته تقضى بالنزول فى مسقط وعبور الربع الخالى إلى مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة.

كانت مسألة استكشاف المناطق البعيدة فى منتصب القرن التاسع عشر، تثير الاهتمام بقدر ما يثير الاهتمام اليوم اكتشاف الفضاء الخارجى. ولم يكن العثور على مموّل لمشروع مفصّل ومدروس أمراً صعباً. وعندما تقدّم

۱- ۱ المرجع نفسه: ۱۴۶.

۲- ۲ قافلة الحبر؛ مرجع سابق: ۸۲.

ص: ۲۳۵

بورتون بمشروع رحلته تبنّته «الجمعية الملكية الجغرافية» فوراً. إلّاأنّ «شركة الهند الشرقيّة» التی كان ما يزال يعتبر موظّفاً فيها، رفضت الرحلة على اعتبار انّها خطيرة. وبدلًا من ذلك سُمح لبورتون بإجازة إضافية لدراسة اللغة العربية فی «المناطق التی تدرّس فيها اللغة بجدّية» فغيّر بورتون خطّته وقرّر العبور من مكّة المكرّمة إلى مسقط ومنها بحراً إلى الهند قبل أن تنتهی إجازته. وكان يعتقد أنّ زيارة مكّة المكرّمة، واجتياز مناطق مجهولة فی شبه الجزيرة العربية وحصوله على لقب حاج، قد تساعده فی رحلات لاحقة فی المناطق المسلمة، وكذلك فی موضوع شراء الأحصنة العربية للجيش البريطانی فی الهند (۱).

وهكذا قرّر أن يبدأ رحلته، فتوجّه من التو صوب مصر؛ ليشرع من هناك بمغامرته الكبرى.. وليقتحم التاريخ من أبوابه الواسعة.

فی الطريق إلى مكّة

بعد أن أكمل الاستعدادات جميعها أبحر من انكلترة إلى الاسكندرية، فی اليوم الثالث من نيسان (أبريل) ۱۸۵۳ م، باسم المرزا عبداللّه من بوشهر. ويقول سيتون ديردون مؤلّف كتاب «الفارس العربی»: إنّه قبل أن يتوجّه إلى مهمّته علم أنّ رحّالة انكليزياً يدعى «فالين Wallin» كان قد تمكّن من الدخول إلى مكّة والحجّ مع الحجّاج فی ۱۸۴۵، لكنّه لم يستطع تدوين شیء عمّا فعل ورأى؛ لأنّه كان خائفاً على حياته، بعد أن لاحظ أنّ اثنين من اليهود قد اكتشف أمرهما فی مكّة تلك السنة، فقتلهما الحجّاج الهائجون شنقاً. فقرّر أن يستفسر منه عن أشياء كثيرة قبل أن يقدم على الاضطلاع بمهمّته، وكتب له بذلك، لكن كتابه لم يصل إلى فالين إلّابعد أن كان قد توفّی؛ ولذلك عمد إلى دراسة ما كان قد كتبه بيركهارت قبله من تفصيلات، فدرسه دراسة مستفيضة، واستعدّ للرحلة على ضوء ما جاء فيها (۲).

وفی طريقه إلى الشرق، كان يعمل على إتقان دوره كمسلم فی تفاصيل الحياة اليومية، منتحلًا شخصية نبيل فارسی، لكن بعد وصوله إلى مصر قرّر

۱- ۱ يُراجع: بلاد العرب القاصية: ۱۴۶- ۱۴۷، وصحيفة الحياة، وقافلة الحبر: ۸۲ مراجع مذكورة.

۲- ۲ موسوعة العتبات المقدّسة؛ مرجع سابق ۲: ۲۹۵.

ص: ۲۳۶

التخلّی عن هويّته الفارسيۀ.. واتّخذ بدلًا منها هويّۀ درويش متجوّل (۱).

وعن سبب إقدامه علی هذه الخطوۀ، يقول بورتون: «لقد أصلحت لقبی وعدّلته من ميرزا عبداللَّه إلی الشيخ عبداللَّه. إذ ليس هنالک من شخصيّۀ مناسبۀ للتخفّی فی العالم الإسلامی أكثر من شخصيۀ الدرويش. فهذه الشخصيۀ يمكن لأیّ رجل من أیّ طبقۀ أن يتلبّسها، من أی عمر أو من أی مذهب، فالنبيل الذی أُهين فی بلاط أحد الملوک يمكنه تلبُّس تلک الشخصيۀ، وكذلک الفلّاح الذی لا يرغب لكسله فی حراثۀ الأرض، أو أولئک الفاسقون الذين تعبوا فی مسالک الحياۀ، أو أولئک الشحّاذون الذين ينتقلون من باب إلی باب.. جميعهم يستطيعون أن يصبحوا دراويش.

وفوق ذلک فالدراويش يسمح لهم بتجاوز أو تجاهل أصول الأدب والمعاملۀ كأشخاص قد انسلخوا عن المجتمع، وتوقّفوا عن الظهور علی مسرح الحياۀ. فهو يستطيع أن يصلّی أو لا يصلّی حسبما يريد. ويمكنه أن يتزوّج أو يظلّ عازباً حسب رغبته، ويمكنه أن يرتدی الملابس أو لا يرتدی شيئاً، ولا يمكن أن يُوجَّه أی سؤال لذلک المتشرّد المعفی من المسؤوليات، لماذا أتی هذا المكان أو ذاک؟».

ثمّ يضيف بورتون بشكل طريف:

«كلّما كان الدرويش متكبّراً متعجرفاً علی الناس زاد احترامهم له» (۲).

علی أنّ بورتون عاد وبدّل هويته وجنسيّته، بعد فترۀ من تنكّره بزیّ درويش، منتحلًا شخصيۀ اخری، كانت هذه المرّۀ مواطناً بريطانياً من أصل أفغانی درس الطبّ فی الهند.

وكان لون بشرۀ بورتون (ربما بفضل أصوله الغجريّۀ) قريباً من العرب ممّا ساعده فی تنكّره.

وروی بورتون أنّه اشتری عدداً من الثياب الأنيقۀ لرحلته؛ ذلک أنّه اكتشف أهمّيۀ الإناقۀ فی منطقۀ «تنظر إلی الذين لا- يهتمّون بمنظرهم كفقراء، وإلی الفقير كنصّاب، إلّاإذا كان ينتمی إلی طريقۀ أو زاويۀ دينيۀ» (۳)، وكان بين مشترياته أيضاً مظلّۀ صفراء واسعۀ «تشبه حديقۀ مرتفعۀ الأعناق»،

۱- ۱ صحيفۀ الحياۀ؛ مرجع سابق.

۲- ۲ بلاد العرب القاصيۀ؛ مرجع سابق: ۱۴۷.

۳- ۳ صحيفۀ الحياۀ؛ مرجع سابق.

ص: ۲۳۷

ومشط خشبی، وظرف من جلد الماعز، وسجّادة فارسیّة «التی إلی جانب كونها تكایة فهی أیضاً كرسی وطاولة ومنبر ووسادة قطنیة.. كذلك اقتنی خنجراً ومحبرة من النحاس، ومشكاك أقلام، وإبراً، وعلبة نحاسیة خضراء «قادرة علی تحمّل السقوط عن ظهر جمل مرّتین فی النهار». وكانت موازنته للرحلة ۲۵ لیرة انكلیزیة ذهباً، لفّها فی حزام تحت ثوبه (۱).

ویبدو أنّ بورتون كان معجباً بطریقة الحیاة فی مدینة الاسكندریة وبما أسماه ب «الكیف» الذی وصفه كالتالی:

«التراخی اللذیذ، والراحة الحالمة، وبناء القصور الخیالیّة، وكلّ ما یناقض الحیاة المركّزة والمكثّفة والنشیطة فی أوروبا..» ویمضی بورتون فی وصفه هذا: «فی الشرق لا یحتاج المرء إلی أكثر من الراحة والظلّ. إنّه یرتاح سعیداً علی حافّة جدول یخرخر أو فی ظلّ شجرة عاطرة، یدخّن غلیوناً أو یحتسی فنجاناً من القهوة، أو یتناول كوباً من الشراب، لكنّ الأهمّ من ذلك أنّه لا یزعج جسده.. إلّاقلیلًا، معتبراً أنّ حدّة المحادثة ومرارة الذكریات والإغراق فی التفكیر امور مفسدة كثیراً للكیف!» (۲).

لم یطل الوقت به، حتّی غادر بورتون الاسكندریة متوجّهاً إلی القاهرة التی وصلها علی ظهر مركب صغیر، ولیستقرّ به المقام فی فندق صغیر، وراح یمارس مهنته كطبیب، وذاعت شهرته بسرعة، حین استطاع أن یشفی عبدتین حبشیتین من «الشخیر»، والأهمّ من ذلك أنّه التحق فیما بعد بجامعة الأزهر، لمتابعة الدراسات الدینیة وإتقان اللغة العربیة..

تحسّباً للوصول إلی مكّة المكرّمة. فقد كان عرف أنّه لیس من الضروری للمسلم- أو لمدّعی الإسلام- أن یكون ضالعاً فی اللغة العربیة، لكن من الضروری له أن یكون ملمّاً بشؤون دینه والفرائض.

أضاف بورتون إلی موازنة السفر ۸۰ جنیهاً اخری، وبدأ السعی للحصول علی جواز سفر. واتّجه أوّلًا إلی القنصل الفارسی الذی طلب ۴ جنیهات لقاء ذلك، فثارت ثائرة

۱- ۱ قافلة الحبر؛ مرجع سابق: ۸۳.

۲- ۲ صحیفة الحیاة؛ مرجع سابق، وقافلة الحبر؛ مرجع سابق: ۸۳.

ص: ۲۳۸

بورتون الـذی أصـرّ علی أن یـدفع جنیهاً واحـداً! وقام من بین معارفه من دلّه علی رئیس «الزاویـة الأفغانیة» فی الأزهر، وكان هذا رجلًا طیّب القلب، فأعطاه الوثیقة اللازمة لسفره لقاء شلن واحد (۱).

ولنزعته الفیكتوریة وما یتّصف به الغربیّون عموماً من غطرسة، راح بورتون یكیل السخریة اللاذعة لهذا الرجل الذی قدّم إلیه خدمة بلا مقابـل، وفیمـا كـان بورتون یسـتعدّ للرحیـل تعرّف إلی نزیـل فی الفنـدق الـذی یقیم فیه، وهو ضابـط ألبانی كان قادماً من الحجاز فی إجـازة، ودعاه الضابط إلی غرفته، فلبّی الـدعوة، وهناك وضع كلّ منهما خنجره جانباً وراحا یتعاطیان الخمر، ثمّ أخـذا یـدعوان النزلاء الآخرین إلی مشاركتهما، إلی أن تحوّل المنزل إلی ساحة للهو والصخب، واجتمع الجیران یؤنّبون السكاری (۲).

فی صباح الیوم التالی بدأ «الحاج والی» وهو مرشده ومعلّمه الخاص بإسداء النصح له قائلًا: «لیتك تبدأ فی رحلة الحجّ حالًا»، وقد سُرّ بورتون من هذه النصیحة وعمل بها حالًا (۳).

فترك القاهرة فی أسـرع وقت ممكن، وعثر علی بدوی من سیناء متّجه فی الطریق نفسها، فاستأجر جملین بقیمة جنیه واحد، وتوجّه مع خادم هنـدی إلی السویس. وفی الطریق التقی بعض التّجار المحترمین من المدینـة الـذین كانوا عائـدین إلی بلادهم، ومعهم شاب من مكّة كان تعرّف إلیه فی القاهرة ویدعی محمد البسیونی، الذی أخذ بورتون فی رعایته طوال الرحلة (۴).

عن هـذا الشاب یحـدّثنا بورتون بأنّه من موالیـد مكّـة، وكان فی حوالی الثامنـة عشـرة من العمر، وكان حنطی البشـرة، عالی الملامـح، جسوراً. وقد قرّر هذا الشاب أنیبقی معبورتون ویقوم بخدمته حتّی انتهاء الحجّ. ویقول عنه بورتون:

إنّه كان ملمّاً بالقراءة ولكن بصورة بسـیطة، ویسـتطیع كتابة اسـمه وهو ماهر فی المساومة، وقد تعلّم التكلّم باللغة العربیة الفصـحی وهو فی مكّة، كما أنّه یستطیع أن یتخلّص بسهولة وطلاقة من مواقف الشبهة، وكان یصلّی ویقوم بمناسك الحجّ بكلّ إتقان.

۱- ۱ قافلة الحبر؛ مرجع سابق: ۸۴.

۲- ۲ المرجع نفسه: ۸۴.

۳- ۳ بلاد العرب القاصیة؛ مرجع سابق؛ ۱۴۸.

۴- ۴ قافلة الحبر؛ مرجع سابق: ۸۴.

ص: ۲۳۹

وفى السويس استقل بورتون سفينة تسمّى سلك الذهب، وقبل الانطلاق حصلت مشاجرة بين ركّابها سرعان ما تدخّل بورتون لحسمها، كما يزعم، وفى ظهيرة يوم ۶ تموز (يوليو) عام ۱۸۵۳ م انطلقت سفينة الحجّاج التى هدأت الامور فيها.. ويقول بورتون: إنّه لم يسعه إلّاالنظر إلى العلم البريطانى الذى كان يرفرف فوق القنصلية البريطانية فى السويس. ولكن ما لبث سروره أن اختفى واختنق عندما اشتدّ وجيب قلبه وخفقانه عند التفكير بالمحنة والمغامرة القادمة (۱)، إلّاأنّ السفينة تعرّضت للغرق فى مرحلة لاحقة، كما تعرّض قبطانها للضرب المبرح، غير أنّ المسافرين وصلوا إلى ينبع فى نهاية المطاف (۲) بعد اثنى عشر يوماً. وبدأ بورتون بالاستعداد للجزء التالى من الرحلة وهو التوغّل فى الداخل (۳) ولدى نزولهم إلى البرّ داس بورتون، على ما يبدو، على شىء سام جعله يتألّم من قدمه طوال الرحلة. ومن هنا استأجرت المجموعة جمالًا كلفة الواحد منها ثلاثة دولارات واتّجهت إلى المدينة فى رحلة مسافتها ۱۳۰ ميلًا، استغرقت ثمانية أيّام (۴).

اختراق جزيرة العرب

هاهو بورتون أمام مهمّته العسيرة وجهاً لوجه، ولابدّ أن يأخذ للأمر عدّته، بمنتهى الحيطة والحذر، لاسيّما وأنّه غير مسلم يجوس خلال الديار، من جهة، فضلًا عن أنّه ينبرى لأداء مهمّة سرّية محدّدة يعوّل عليها، وكذلك الدوائر التى وراءه، الشىء الكثير. ولهذا وذاك، كان عليه أن يُهيئ الاستعدادات اللازمة لخوض هذه التجربة المحفوفة بالمخاطر. وبالفعل فقد أنجز المطلوب قبل مغادرة ينبع.

كان يحمل دفتر ملاحظاته، وهو عبارة عن دفتر طويل كان يحفظه فى صدره، وقد صنع هذا الدفتر وهو فى القاهرة. وكان يعلّق إلى جانبه محفظة تتدلّى من كتفه وتصل إلى خصره، وكانت هذه المحفظة يحمل بها نسخة من القرآن الكريم تبرّكاً، ولكنّه قسّم هذه المحفظة إلى ثلاثة جيوب، وضع ساعة وبوصلة فى الجيب الأوّل، وفى الجيب الثانى وضع بعض النقود كمصروف

۱- ۱ بلاد العرب القاصية: ۱۵۰.

۲- ۲ قافلة الحبر: ۸۴.

۳- ۳ بلاد العرب القاصية: ۱۵۱.

۴- ۴ قافلة الحبر: ۸۴.

ص: ۲۴۰

للجیب، وفی القسم الثالث وضع سکّیناً وبعض أقلام الرصاص وأوراقاً صغیرة یستطیع إخفاءها، وکان یستطیع أن یکتب أو یرسم علی هذه الأوراق بسرعة تامّة. ثمّ ینقل نسخاً من هذه الأوراق فی دفتر ملاحظاته عندما تسنح الفرصة. وفی جیب سرّی من جیوبه وضع مسدّساً ومعه خنجراً کباساً، وکان شدید الاعتماد علیه، ولم یجعل أحداً یعلم أنّه یحمل هذه الأسلحة. وکان ینظّف المسدّس ویحشوه لیلًا.

وبعد استئجار الرجال لسَوْق الجمال والحیوانات، وبعد أن جمع أمتعته ودفاتر ملاحظاته وجیوبه السرّیة والمحفظة، التی لم تکن تحوی قرآناً کریماً بل کانت کاذبة موضوعة علی جانبه، استعد بورتون للرحیل وهو یقول:

«وفی صباح أحد أیّام منتصف شهر تموز مررنا خلال بوّابة ینبع واتجهنا إلی الشرق. وقد صاحب الحجّاج قافلة، مؤلّفة من حوالی ۲۰۰ جمل، حاملة القمح لأهالی المناطق الداخلیة، وکان معهم حرس مؤلَّف من سبعة جنود من الأتراک» (۱).

ویمضی بورتون فی ذکر المصاعب والمخاطر التی واجهت القافلة، وهی تغذّ سیرها نحو هدفها المنشود، لتصل فجر یوم ۲۵ تموز ۱۸۵۳ م إلی مشارف المدینة المنوّرة. وعن الانطباعات التی اعترت الحجیج وما شعر به هو شخصیّاً، کتب یقول: «عند وصولنا إلی قمّة ذلک الجبل رأینا طریقاً ضیّقاً منحدراً تتألف جوانبه من بقایا الحمم البرکانیة القدیمة، وبعد بضع دقائق بدت المدینة المنوّرة أمامنا، وعندها أدرکت معنی ذلک القول المأثور الذی یتردّد علی ألسنة المسلمین فی طقوسهم الدینیّة، وهو عندما تقع عینا الحاجّ علی أشجار المدینة علیه أن یرفع صوته بالتسبیح والشکر والثناء علی رسول اللّه بأبهج الصلوات والدعوات الصالحات، إذ إنّه من خلال ذلک المنظر الجمیل لم یکن هنالک من شیء أثّر علی تفکیرنا ووجداننا أکثر من منظر تلک البساتین والحدائق الواقعة تحتنا».

وحالما ارتفعت أصوات رفقائه بالصلوات والدعوات الصالحات

۱- ۱ بلاد العرب القاصیة: ۱۵۱.

ص: ۲۴۱

والشکر، بـدأ بورتون للحظـة من الزمن وکأنّه قـد أُخِذ بنفس حماسـهم، ولکن سـرعان ما هدأت أحواله وشـرع فی کتابة الملاحظات والرسوم بکلّ برود کعادته (۱)، وممّا کتبه: «عندما نظرنا شرقاً کانت الشمس تطلع من وراء تلال منقّطة بأشجار صغیرة، وکانت الأرض مصبوغة بالـذهبی والارجوانی، أمامنا امتـدّ سـهل واسع، وإلی الیسار حاجز من الحجارة، جبل أُحُـد الشـهیر الـذی ظهرت عنـد أسـفله النباتات وقباب بیضاء» (۲)، وفی أسفل السهل علی بعد میلین منّا، کانت تربض المدینة المنوّرة، فتبدو کأنّها مکان کبیر متّسع، لکنّنا ما دنونا وتبیّناها عن قرب حتّی تبیّن لنا أنّ انطباعنا ذلک کان شیئاً وهمیّاً (۳).

ویصف بورتون بعد ذلک ساعة الوصول والاستقبال فیقول خلال هذا:

إنّ العرب یبـدون فی هـذه المناسـبات من العواطف أکثر ممّا تبـدیه سائر الأقوام الشـرقیة التی یعرفها، ففی طبیعتهم من الحنان والمحبّة الشیء الکثیر، وهم أکثر تعبیراً عنعواطفهمبکثیر من الهنود (۴).

ومع ذلک فقد شرع فی القیام بالشعائر الضروریة (أو الطقوس علی حدّ تعبیره) والتی یصفها بالتفصیل.

ومن المفارقات التی تعرّض لها، بسبب إصابته بألم حاد فی رجله لحظـة نزوله إلی ینبع، أنّه بـدأ زیارة المدینـة راکباً علی حمار!، وقد أمّن له الشـیخ حامـد، وهو أحـد الحجّاج الـذین رافقوه من القاهرة، حماراً عاری الظهر به عرج فی إحـدی رجلیه وتعوزه اذن واحـدة، ولکنّ الشیخ حامداً رافقه إلی المسجد النبوی، حیث دخلوا من باب الرحمة من خلال درجات.

ورغم أنّه أبدی اندهاشه، لأوّل وهلة، بید أنّه لم ینس معاییره الغربیة فی رؤیته للأشیاء: «کنت مندهشاً من ذلک المنظر البسیط المبهرج لأقدس مکان فی جمیع أنحاء العالم الإسـلامی»، ثمّ یضیف: أنّ المسجد کان شدید الشبه بمتحف للفنون من الدرجة الثانیة! أو بمکان تُعرض فیه التحف وهو مملوء بالزینة والزخارف العادیة الشعبیة المألوفة!

أمّا عن رؤیته لمقام النبیّ محمّد صلی الله علیه و آله

۱- ۱ المرجع نفسه: ۱۵۳.

۲- ۲ صحیفة الحیاة؛ م. س.

۳- ۳ موسوعة العتبات المقدّسة ۳: ۲۶۱ قسم المدینة المنورة.

۴- ۴ المرجع نفسه ۳: ۲۶۲.

ص: ۲۴۲

فيقول: «بعد أن حدّقت بعينى برهة من الزمن رأيت ستارة مكتوباً عليها بخطوط ذهبية أنّ قبر رسول اللّه والخليفتين بعده يقع خلفها، وفوق قبر النبىّ تدلى الكوكب الدرّى وهو مجموعة من اللآلى والماس رُكّبت بشكل نجم وعُلّقت فى الظلام، باعتقاد أنّ عيون البشر لا تستطيع تحمّل إشعاعها. وكان ذلك الكوكب رائعاً حقّاً.. إنّ هذا الكوكب يشبه ماسّة «كوه نور Koh- Nur» الشهيرة» (۱).

ثمّ يمضى يصف المدينة المنوّرة بدقّة مرشد السيّاح. ويلاحظ من الرحلة التفصيليّة الرائعة التى طبعت بجزأين كبيرين أنّ السير ريتشارد لم يترك شاردة وواردة إلّاذكرها فى نصوص الرحلة أو شروحها وهوامشها الضافية. ومع ما فى هذه الرحلة من تحامل وأغلاط فى فهم الإسلام وشريعته، فإنّها تعدّ شيئاً ممتازاً من ناحية البحث والتحقيق، ودراسة لها قيمتها التاريخية والجغرافية (۲).

فى رحاب المدينة المنوّرة

فى فصل خاصّ يفرده بورتون لزيارة قبر النبىّ صلى الله عليه و آله، يستهلّ الكتابة بالخوض فى موضوع المفاضلة بين مكّة والمدينة. فيقول: إنّ المسجد النبوى هو أحد الحرمين، وثانى الأماكن المقدّسة الثلاثة المعدّة للعبادة، أمّا الاثنان الآخران فهما؛ المسجد الحرام فى مكّة، والمسجد الأقصى فى القدس الشريف.

ثمّ يوضّح الفرق بين استحباب (زيارة) الرسول صلى الله عليه و آله ووجوب فريضة الحجّ إلى بيت اللّه الحرام.. ليستعرض الآراء حول منزلة المسجد النبوى ومكانته الروحية، خاصّة لدى المذاهب الإسلامية، وأنّ الشرف الذى حظيت به المدينة يعود إلى أنّ ثراها قد ضمّ رفات الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، ثمّ يعرج إلى تبيان موقف الوهابيّين قائلًا: «ولمّا كان الوهابيّون من جهة اخرى لا يعترفون بشفاعة الرسول يوم القيامة، ويعتبرون قبر الرسول قبراً مثل سائر القبور وشيئاً لا يُعتدّ به، ووسيلة للعبادة (الوثنية) التى يمارسها بعض المسلمين (الحمقى)، فقد نهبوا المبنى المقدّس بعنف ينطوى على التدنيس، ومنعوا الزوّار القادمين من البلاد النائية عن الدخول

۱- ۱ بلاد العرب القاصية: ۱۵۳- ۱۵۴.

۲- ۲ موسوعة العتبات المقدّسة ۳: ۲۶۰. يصف نجيب العقيقى كتاب «الحج إلى مكّة والمدينة» بأنّه من أوثق المراجع عند الغربيّين المرجع المذكور ۲: ۶۰، أمّا خير الدين الزركلى فيقول عن الكتاب بأنّه يعدّ من أعظم المراجع عند الغربيّين فى موضعه الاعلام ۳: ۳۸.

ص: ۲۴۳

إلی المدینة (۱).

بعد هذه الإطلالة، یشرع فی وصف مظهر الحرم النبوی الشریف، فالمسجد متوازی الأضلاع یناهز الأربعمائة وعشرین قدماً فی الطول والثلاث مائة وأربعین فی العرض، وهو مثل سائر المبانی الدینیّة الإسلامیة المعتادة مبنی فیه ساحة وسطی مکشوفة تسمّی الصحن، أو الحوش.. یحیط بها بهو له صفوف عدیدة من الأعمدة علی شاکلة الأدیرة الایطالیة. والأروقة فیها سقوف منبسطة، لکنّها مقبّبة من فوق بقبب تشبه القبب الأسبانیة نصف التاریخیة..

ویمتدّ علی طول الجدار الشمالی القصیر من داخله الرواق المجیدی المسمّی باسم السلطان الحاکم (عبد المجید)، کما یشغل الجدار الغربی الطویل رواق باب الرحمة، والجدار الشرقی رواق باب النساء، ویستمدّ الرواق الأخیر اسمه هذا من قربه من قبر السیّدة فاطمة علیها السلام ویدخل النساء منه عندما یردن زیارة القبر المطهّر.

ویحتضن الطول الداخلی للجدار الجنوبی القصیر صفّ الأعمدة الرئیس المحیط بالروضة، أی الموضع المحتوی علی جمیع ما هو مقدّس فی الحرم.

وهذه الأروقة الأربعة المقدّسة من الخارج تحملها من الداخل أعمدة تختلف بعضها عن بعض فی الشکل والمادّة. وقد بُلّط الرواق الجنوبی الذی یقوم فیه الضریح بقطعة جمیلة من الرخام الأبیض المشغول بشغل التطعیم، المغطّی هنا وهناک بالحصر الخشنة التی فُرش فوقها السجّاد غیر النظیف المتآکل بأرجل المؤمنین (۲).

ثمّ یستعرض المنائر فی الحرم الشریف، ویبلغ عددها خمساً، لکن منارة واحدة هی الشکیلیة التی تقوم فی الزاویة الشمالیة الشرقیة من المبنی قد هُدّمت وما تزال تُبنی بشکل جدید. أمّا المنائر الأربعة الاخری فهی؛ منارة باب السلام، منارة باب الرحمة، المنارة السلیمانیة المسمّاة باسم بانیها السلطان سلیمان القانونی، والمنارة الرئیسیة.

ویقول بورتون: إنّ هذه الأخیرة سُمّیت رئیسیّة؛ لأنّها مخصّصة لرؤوساء المؤذّنین.. وتعلّق بمنصّات المنارتین الأخیرتین مصابیح نفطیة فی الأعیاد

۱- یُراجع:..noitidE lairomeM . ۱۸۶۳ nodnoL notrub lebasi efiW sih yB detidE .hacceM hanidaM
-LA ot egamirgliP A fo evitarraN lanosreP -fdrahciR ,nitruB

۲- موسوعة العتبات المقدّسة ۲: ۲۶۵.

ص: ۲۴۴

والمناسبات، مثل مناسبة وصول موكب الحجّ الشامى (۱).

أمّا الأروقة والأعمدة المحيطة بالصحن المربّع المكشوف فى الوسط أيضاً، فيمضى فى وصفها بإسهاب، مبدياً عدم إعجابه فيما راح يعدّدها:

«ومن بين هذه الأعمدة التى لا تستحقّ الثناء، هناك ثلاثة لها شهرة فى تاريخ الإسلام، ولذلك كُتبت أسماؤها عليها بالدهان، وتتمّع خمسة اخرى بشرف التسميات المشهورة، فيسمّى الأوّل «المخلق» لأنّه لطّخ بالخلوق فى مناسبة من المناسبات.. ويقع هذا بالقرب من المحراب النبوى إلى يمين المكان الذى يصلّى فيه الإمام، كما يدلّ على البقعة التى كان الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله قبل اختراع المنبر يتّكئ فيها على «الاسطوانة الحنانة» ويلقى خطبة الجمعة، والعمود الآخر هو ثالث عمود من المنبر وثالث من الحجرة، ويسمّى «عمود عائشة» وكذلك «اسطوانة القرعة» لأنّ الرسول على ما تقول بعض الروايات صرّح قائلًا: إنّ الناس حينما يعرفون قيمة هذا المكان سوف يستعينون بالقرعة للصلاة فيه، ويذكر فى بعض الكتب باسم «عمود المهاجرين»، كما أنّ آخرين يسمّونه «المخلق» كذلك.

وعلى بُعد عشرين ذراعاً من عمود عائشة، وعمودين من الحجرة، وأربعة أعمدة من المنبر يقع «عمود التوبة» أو عمود أبى لبابة، وقد سمّى كذلك على إثر حادثة وقعت لأبى لبابة أحد الأنصار.. أمّا الأعمدة التى تقلّ فى شهرتها فهى «اسطوانة السرير» التى كان من عادة النبىّ أن يجلس فى موقعها للتأمّل فوق سريره المتواضع المصنوع من جريد النخل. وتشير «اسطوانة على» إلى المكان الذى كان الإمام على يصلّى فيه إلى جنب ابن عمّه النبىّ. وفى موقع «اسطوانة الوفود» كان النبىّ صلى الله عليه و آله يستقبل الوفود والرسل والمبعوثين من البلاد الاخرى، وتدلّ «اسطوانة التهجّد» على المكان الذى كان النبى يمضى ليله فيه مصلّياً متهجّداً. وأخيراً «مقام جبرائيل» الذى لم يجد بورتون تفسيراً لاسمه الآخر «مربعة البعير».

وتطلّ الأروقة الأربعة فى مسجد

۱- ۱ المرجع نفسه ۲: ۲۶۶.

ص: ۲۴۵

المدينة على صحن أوسط مكشوف متوازى الأضلاع فى شكله. والشيء الوحيد الذى يلفت النظر فيه سياج خشبى مربّع الشكل يحيط بتربة حسنة الارواء تدعى «حديقة سِتّنا فاطمة»، وتوجد فيها اليوم (أى يوم زيارة بورتون فى ۱۸۵۳ م) اثنتا عشرة شجرة يهدى خصيان المسجد تمرها إلى السلطان وعظماء المسلمين. وتوجد بين النخلات بقايا لسدرة قديمة يُباع ثمرها بأسعار عالية. أمّا البناية الصغيرة التى ذكرها بيركهارت قبل أربعين سنة، وقال: إنّها توجد بالقرب من هذا الموقع، فقد هدّمت قبل ثلاث أو أربع سنوات، وكانت تسمّى «قبّة الزيت» أو «قبّة الشمع» (۱).

وينهى بورتون فصله الطويل الذى كرّسه لوصف الحرم الشريف (الفصل السادس عشر من الجزء الأوّل) بالتشكيك فى صحّة المكان الذى دُفن فيه النبى الأعظم، مستنداً إلى أسباب تافهة. ومن بينها أنّ الشيعة ربما نقلوه إلى مكان آخر، حينما ظلّ القبر المقدّس بعهدتهم قروناً عديدة! ومعلوم أنّ الأسباب التى اعتمدها والرأى الذى رجّحه كلّها لا تستحقّ الرد لتهافتها، إن لم تكن ذات غرض سيء (۲).

المدينة: التاريخ.. والحاضر

وأفرد بورتون الفصل السابع عشر (من الجزء الأوّل) لتاريخ المسجد النبوى، تطرّق فى بدايته إلى تاريخ المدينة القديم، والأقوام التى قطنتها، وعلاقة النبىّ صلى الله عليه و آله بالمدينة وكيفيّة وقوع الهجرة المباركة.. الخ.

وعن تشكيلات الحرم النبوى فيقول: إنّ هذه التشكيلات قد تغيّرت كثيراً منذ أيّام الرحّالة بيركهارت (۱۸۱۴ م). وعلى هذاالأساس لم يعد «شيخ الحرم» من الخصيان، وكان على أيّام بورتون رجلًا من پاشوات الأتراك يدعى عثمان، ونائبه «رئيس الأغوات».. ويطلق على رئيس الخزانة «مدير الحرم»، وله مساعد يُسمّى «نقيباً»، وهناك شيوخ ثلاثة للخصيان البالغ عددهم حوالى مائة وعشرين.

وهؤلاء ينقسمون إلى ثلاث طوائف:

(البوّابون، الخبزية، البطّالين).

وهناك إلى جانب الخصيان عدد من

۱- ۱ المرجع نفسه ۲: ۲۶۷- ۲۶۹.

۲- ۲ لمزيد من الاطّلاع يراجع المرجع السابق ۲: ۲۶۹.

ص: ۲۴۶

الخدم الأحرار يطلق عليهم (الفرّاشون).. وهناك طبقة دنيا من الخدم الذين يقومون بفرش الساحات وسقی الحدائق وتقديم الماء للزوّار.

أمّا التشكيلات الدينيّة فهی علی نطاق أوسع من التشكيلات الإدارية، فهناك القاضی الذی يُبعث كلّ سنة من استانبول، ويشتغل فی معيّته ثلاثة مفتين: (شافعی، حنفی، مالكی). أمّا المؤذِّنون، ويسمّون الرؤساء، فهم كثيرو العدد، ۴۸- ۴۹ مؤذِّناً، يترأسهم ستّة من المؤذِّنين الكبار، وهؤلاء يرأسهم شيخ الرؤوساء الذی يحقّ له فقط أن يؤذِّن من فوق «المنارة الرئيسيّة». وهناك فی الحرم خمسة وأربعون خطيباً، وهم تبع لرئيس الخطباء. وتصرف الأموال الشرعية علی مستحقّيها من: (العلماء والمدرّسين الذين يعظون، الأئمّة والخطباء، السادة من نسل النبیّ، الفقهاء والملالی، العوام بمن فيهم أهالی المدينة والمجاورون).

ثمّ يتطرّق بورتون إلی سكّان المدينة وأهمّ الأسر القاطنة فيها، ليعرج إلی ذكر النخاولة الشيعة فيورد نقاطاً وتهماً ما أنزل اللَّه بها من سلطان عنهم، ولعلّ ذلك من خيال المتعصّبين الذين نقلوا له هذه الأخبار عن مثل هذه الطبقة من الناس، التی كانت تشتغل فی صدر الإسلام فی الفلاحة عند الإمام الحسن عليه السلام..

ويحلّل بعد ذلك أوضاع سكّان المدينة من جميع الوجوه بفصل يستغرق ثمانٍ وعشرين صفحة كاملة. وقد زار بورتون مقبرة البقيع زيارة خاصّة، وهو يقول: إنّ هناك خبراً يقول: إنّ سبعين ألف قدِّيس، وفی رواية مائة ألف، سوف يبعثون يوم القيامة من البقيع، وإنّ عشرة آلاف صحابی وعدداً لا يُحصی من السادة، قد دُفنوا فی هذه المقبرة علی مرّ السنين فاندرست قبورهم. ويشير إلی ما تعرّضت له هذه المقبرة من عبث وتخريب أيّام الأمير سعود؛ لاعتقاد الوهابيين بأنّ خير القبور الدوارس! «ويرجع الفضل لما بُنی منها بعد ذلك إلی السلطان عبد الحميد ومحمود..».

ويقول بورتون كذلك: «.. وقد

ص: ۲۴۷

دخلت المقبرة المقدّسة مقدِّماً رجلی الیمنی کما لو کنت أدخل إلی المسجد، وحافی القدمین لأتحاشی اعتباری من الرافضة، ثمّ بدأنا بقراءة الزیارة العامّة المألوفة... وبانتهائها رفعنا أیدینا وقرأنا الفاتحة قراءة خافتة، ومسحنا أیدینا علی وجوهنا وتحرّکنا».

وبشیء من التفصیل یستعرض أهم المراقد هناک، وعلی التوالی: [قبر الخلیفة عثمان، أبی سعید الخدری، حلیمة السعدیة، قبور شهداء البقیع الذین قتلهم مسلم قائد کبیر الفاسقین یزید (۱)(۲)، إبراهیم بن النبیّ صلی الله علیه و آله، نافع بن عمر، مالک بن أنس، عقیل بن أبی طالب، أزواج النبی جمیعهنّ عدا خدیجة، بنات النبیّ].

وبعد أن یصف بورتون الشحّاذین وأنواعهم وکیف یستقبلون الزوّار یقول:

«.. وقبل أن نترک البقیع وقفنا الحادیة عشرة فی القبّة العبّاسیّة، أو قبّة العبّاس عمّ النبیّ.. هذه القبّة التی بناها الخلفاء العبّاسیون من قبل فی ۵۱۹ للهجرة أکبر وأجمل جمیع القبب الاخری، وتقع علی یمین الداخل من باب المقبرة. ویدلّ علی أهمّیتها تجمّع الشحّاذین بقربها، فقد جاءوا إلیها وتکأکأوا علیها حینما وجدوا الایرانیین متجمّعین فیها بکثرة وهم یبکون ویصلّون.. وتوجد فی القسم الشرقی قبور الحسن بن علی سبط النبیّ، والإمام زین العابدین بن الحسین، وابنه محمّد الباقر (الإمام الخامس)، ثمّ ابنه الإمام جعفر الصادق، وهؤلاء جمیعاً من نسل النبیّ وقد دُفنوا فی نفس المرقد الذی دُفن فیه العبّاس بن عبد المطّلب عمّ النبیّ.. وبعد أن خرجنا وتخلّصنا من أیدی الشحّاذین الصغار وجهنا وجهنا نحو الجدار الجنوبی الذی یوجد بقربه قبر ینسب إلی السیّدة فاطمة وقرأنا الدعاء المعروف» (۳).

وفی حاشیة مستفیضة استعرض بورتون الغموض الذی یکتنف مدفن السیّدة فاطمة الزهراء علیها السلام والروایات المتداولة حول مکان دفنها.. لینتقل مباشرة إلی الحدیث عن مساجد المدینة التی یوجد فیها، علی ما یذکر بورتون، ما بین الخمسین وخمسة وخمسین مسجداً وبقعة مقدّسة، لا یعرف معظمها

۱- ۱ یقول بورتون فی حاشیة له ص: ۳۷ من الجزء الثانی من کتابه: إنّ الإمام الشافعی یسمح لأتباعه بسبّ یزیدابن معاویة الذی جعلته قساوته مع آل البیت، وجرائمه وموبقاته، یهودا الأسخربوطی المسلم، وقد سمع بورتون مسلمین أحنافاً یسبّون یزیداً کذلک موسوعة العتبات المقدّسة ۳: ۲۸۲.

۲- ۱ یقول بورتون فی حاشیة له ص: ۳۷ من الجزء الثانی من کتابه: إنّ الإمام الشافعی یسمح لأتباعه بسبّ یزیدابن معاویة الذی جعلته قساوته مع آل البیت، وجرائمه وموبقاته، یهودا الأسخربوطی المسلم، وقد سمع بورتون مسلمین أحنافاً یسبّون یزیداً کذلک موسوعة العتبات المقدّسة ۳: ۲۸۲.

۳- ۲ موسوعة العتبات المقدّسة ۳: ۲۸۳- ۲۸۴.

ص: ۲۴۸

اليوم حتّى أهالى المدينة أنفسهم، وذكر أهمّها نقلًا عن أفواه الناس، بشىء من التفصيل، وفيما عدا هذه احصيت أسماء، أسماء فقط، أربعين مسجداً آخر.. (۱).

على أنّ بورتون الذى استغرق فی وصف أدقّ التفصيلات عن خصوصيات المدينة المنوّرة، لا يفوته تذكير القارئ أو الدوائر المعنيّة بمهمّته على السواء، بأنّ حجم المدينة أكبر بمرّة وثلث من حجم مدينة السويس، أو بقدر نصف حجم مكّة، وهى عبارة عن مكان مسوّر يؤلّف شكلًا بيضويّاً غير منتظم ولها أربع بوّابات.. وهناك بنايات ضخمة وأبراج مزدوجة متقاربة.. وفى داخل المدينة الظليل ترى الجنود يحرسون المدينة، وأصحاب الجمال يتشاجرون، وكثيراً من الرجال الذين لا عمل لهم يتسكّعون.

ثمّ يصف البنايات العامّة فيقول: إنّ هناك أربعة خانات كبيرة وبضع مقاهٍ صغيرة وحمّاماً ممتازاً، ويقدّر عدد السكّان ب (۱۶) ألف نسمة... ويقول:

إنّ المدينة تشبه جبل طارق بالنسبة للبدو الوهابيّين (۲).

وبعد أن اطلع على ما فی المدينة وأماكنها المقدّسة، وانتهاء فترة الاستجمام والاسترخاء، تلك الأيّام التى اعتبرها أيّام راحة حقيقيّة، بالنسبة للأخطار القادمة التى كانت ماثلة أمام عينيه كلّ يوم، كان عليه أن يتوجّه مع موكب الحجّ الشامى إلى مكّة فی يوم ۳۱ آب ۱۸۵۳ م (۳)، وهكذا بدأ يستعدّ للرحلة على عجل، وجمع مؤونة ۱۵ يوماً له ولمرافقه محمّد، واستأجر من بدوى ناقتين ب (۲۰) دولاراً. وكان أصدقاؤه نصحوه بأن يأكل مرّة كلّ ۲۴ ساعة مع مرافقيه لكى «يبقى فی معدتهم ملح من عنده، فذلك قد يمنعهم من خيانته أو الغدر به»! كانوا يسافرون فی الليل، وفی إحدى المراحل ساروا من الساعة الثالثة بعد منتصف الليل وحتّى الحادية عشرة من صباح اليوم التالى (۴).

بورتون فی مكّة

فی ۱۱ أيلول (سبتمبر) ۱۸۵۳ م، وصل بورتون إلى مكّة المكرّمة بعد رحلة متعبة حافلة بالمخاطر، ليستقرّ به

۱- ۱ للمزيد يراجع المرجع السابق ۳: ۲۸۵- ۲۸۹.

۲- ۲ بلاد العرب القاصية: ۱۵۴.

۳- ۳ موسوعة العتبات المقدّسة ۳: ۲۹۶. ولابدّ من الإشارة هنا إلى اضطراب رواية «بيتر برينث» حول موعدانطلاقة بورتون التى حدّدها بتاريخ كانون الأوّل ديسمبر ۱۸۵۳، ليعود إلى تحديد وصوله إلى مكّة بتاريخ ۱۱ أيلول من العام نفسه.. ولعلّ الاشتباه كان فی الترجمة!

۴- ۴ قافلة الحبر: ۸۵ وكذلك صحيفة الحياة: ۴/ ۵/ ۱۹۹۲.

ص: ۲۴۹

المقام فی بيت مرافقه الشاب محمّد البسيونی الذی كان خير دليل له، خاصّة وأنّ أهل مكّة أدری بشعابها.

يقول بورتون عن مكّة حينما وصلها لأوّل مرّة: إنّه لم يجد فيها ذلك الجمال الرشيق المتناسق الذی يتجلّی فی آثار اليونان وايطاليا، ولا الفخامة البربرية المتجلّية فی أبنية الهند، ومع هذا فقد كان المنظر غريباً فريداً فی بابه بالنسبة إليه (۱)، وكتب: «شاهدت احتفالات دينية فی مناطق مختلفة، لكنّنی لم أرَ مثل هذه المشاهد المهيبة والرائعة فی أی مكان آخر» (۲).

ويقول كذلك: «.. ويمكننی أن أقول حقّاً: إنّه من بين جميع الحجّاج الذين كانوا يتعلّقون بأستار الكعبة وهم يبكون، أو يضغطون بقلوبهم النابضة علی الحجر، لم يكن هناك أحد فی تلك اللحظة أشدّ شعوراً وأطغی عاطفةً من (الحاج) القادم من بلاد الشمال، فقد بدا لی كأنّ أساطير العرب الشعرية جميعها كانت تنطق الصدق، وكأنّ أجنحة الملائكة الخفّاقة، وليس نسيم الصبح العذب، كانت هی التی تحرّك الكسوة السوداء التی تجلّل الكعبة المقدّسة.

لكنّنی لابدّ لی من أن أعترف اعترافاً متواضعاً بأنّ عاطفة أولئك الحجّاج المتدفّقة كان مبعثها الحماسة الدينيّة، أمّا عاطفتی فقد كان مبعثها نشوة الكبرياء المطمئن» (۳).

لقد كتب بورتون عن زيارته إلی المدينة ومكّة بتفصيل مسهب استغرق مجلّدين كبيرين، لكنّ الملاحظ أنّ المومی إليه كتب عن جميع ما دوّنه سلفه بيركهارت، ولكن بطريقة مختلفة وتعليقات لا تشبه تعليقات بيركهارت فی كثير من المناسبات. غير أنّ الوصف العام لا يختلف عند الاثنين اختلافاً جوهرياً (۴)؛ ولذلك نجد بورتون يشير إلی أنّه قد وصف ما رآه قدر الاستطاعة، ولكنّه اعترف أنّه لا يستطيع أن يصل إلی دقّة بيركهارت الذی يعترف بورتون أنّه مَدين له ليس بالشكر والامتنان فحسب، بل بالاقتباس عنه بصورة جلية واسعة واضحة!، ولكن تعليقات بورتون علی العموم كانت عملية واقعية (۵).

فهو يقول: «وكان جمهور من الناس

۱- ۱ موسوعة العتبات المقدّسة ۲: ۲۹۶.

۲- ۲ صحيفة الحياة: ۴/ ۵/ ۱۹۹۲.

۳- ۳ نقلًا عن موسوعة العتبات المقدّسة ۲: ۲۹۶.

۴- ۴ المرجع نفسه.

۵- ۵ بلاد العرب القاصية: ۱۶۱.

ص: ۲۵۰

قد احتشد حول الكعبة، ولم أكن راغباً فى أن أقف حاسر الرأس حافى القدمين فى شمس أيلول. فصاح أحدهم يقول:

افتحوا الطريق للحاج الذى يريد أن يدخل البيت، وعند ذاك أفسح المتجمهرون الطريق.. وتقدّم رجلان قويّان من أهالى مكّة كانا يقفان تحت الباب المرتفع، فرفعانى بأذرعهما بينما سحبنى رجل ثالث من أعلى إلى داخل المبنى، فحيّانى فى المدخل عدد من خدّام الكعبة وهم من المكيّين سمر البشرة الذين كان أشدّهم سمرة وبساطة شاب من اسرة بنى شيبة سدنة الكعبة.. وسرعان ما جلس على مسطبة خشبية فى ركن الكعبة الأيسر، وابتدرنى بالسؤال رسميّاً عن اسمى وقوميتى وتفصيلات اخرى. ولمّا كانت أجوبتى وافية بالمرام أمر الفتى محمّداً الذى كان يصحبنى بأن يقودنى حول المبنى ويرتّل أمامى الصلاة، ولا أنكر أنّنى حينما نظرت إلى الجدران الخالية من الشبابيك، ولاحظت وجود السدنة بالباب، وجمهور (المتعصّبين) الهائجين فى أسفل الكعبة، شعرت وكأنّنى فأرة فى المصيدة، على أنّ ذلك لم يمنعنى عن ملاحظة ما كان يحيط بى بدقّة خلال صلاتنا الطويلة، ورسم مخطّط تقريبى بقلم الرصاص فوق قماش إحرامى الأبيض» (۱).

ثمّ يتحدّث بورتون عن الكعبة وأركانها الأربعة، وعن باب التوبة، ليستعرض بشيء من التفصيل كسوة الكعبة المشرّفة، ومن أىّ قماش تصنع، وعمّن بدأ بتجهيز الكعبة، وكيف تطوّر الأمر على مرّ العصور التاريخية..

وآخرها العهد العثمانى.

ويقول بورتون فى الأخير: إنّ الكسوة فى عهده (۱۸۵۳ م) كانت تصنع فى مصنع النسيج القطنى المسمّى «الخرنفش» فى باب الشعرية فى القاهرة، ثمّ يذكر أنّ الكسوة تتألّف عادةً من ثمانى قطع، اثنتان منها لكلّ وجه من أوجه الكعبة، ويغطّى محلّ اتّصال القطعتين بحزام ذهبى المظهر، ثمّ تُبطّن بخام أبيض وتجهّز بحبال قطنية.

ويُقال: إنّ الكسوة كانت تنسج خلال حياكتها الآيات القرآنية كلّها فيها..

وحينما تتمّ حياكة الكسوة فى الخرنفش

۱- ۱ موسوعة العتبات المقدّسة ۲: ۲۹۶.

ص: ۲۵۱

تنقل إلی مسجد سیّدنا الحسین فی القاهرة بموکب خاصّ، وهناک تبطّن وتخاط فتکون جاهزة للرحلة إلی البیت الحرام (۱).

مشاهدات.. وانطباعات

وفی رحلة بورتون فصل قیّم کثیر الفائدة عن الحیاة فی مکّة، یصف فیها مکّة نفسها وأحوال سکّانها بشیء غیر یسیر من التفصیل، فهو یقول عنها: إنّها تعدّ مدینة حدیثة نسبیّاً، برغم أنّ منشأ بیت اللَّه الحرام تضیع جذوره العمیقة بین طیّات الماضی السحیق.. وهی تحتوی علی ثلاثین إلی خمسة وأربعین ألف نسمة من السکّان. مع وجود أماکن فیها لسکنی ثلاثة أضعاف هذا العدد من الناس علی الأقلّ. وتبنی بیوتها بالطابوق وحجر الغرانیت والحجر الرملی المستمدّ من الجبال المجاورة. ومنظر مکّة أشبه بوادٍ متموّج متعرِّج یمتدّ فوق هضبة صغیرة من الهضاب. ویبلغ أقصی عرضها ما بین أبی قبیس فی الشرق (الذی تمتدّ علی سفوحه الغربیّة البلدة معظمها) وجبل هندی فی الغرب. وتقوم الکعبة فی مرکز هذا الخطّ (۲).

ویخبرنا بورتون، خلال تحدّثه عن سکّان مکّة، أنّ بشرة أهالی مکّة کانت أکثر اسمراراً من بشرة أهالی المدینة، وأنّهم یفسِّرون هذه الظاهرة هناک بتأثیر حرارة الشمس اللافحة علی مناخ مکّة. ولکنّه یعلّق علی ذلک فیقول: «إنّی أفضّل أن أعزو السبب فی سمرتهم الشدیدة إلی کثرة الإماء السوداوات اللواتی کنّ یأتین إلی (سوق النخاسة)..!».

ویمکن للقارئ أن یتصوّر لهجته التهکمیّة عند الإدلاء بهذا الرأی! فبورتون، کما یقول «بیتربرینث» شأنه شأن معظم الغرباء الذین اخترقوا الحواجز، وتسرّبوا ودخلوا إلی مکّة، لا تخلو أفکارهم من الازدراء والاحتقار للسکّان وذلک حین یقول:

«إنّ أهالی مکّة طمّاعون ومبذِّرون» ولکنّه یعود فیقول: «من جهة اخری أنّ المکّیین یتمتّعون بصفات الصراحة، وهم مستعدّون لتحکیم العقل والاعتراف بالخطإ، ولیس لدیهم أی نوع من العناد لدی اقتراف الذنب،

۱- ۱ للمزید یراجع المرجع السابق ۲: ۲۹۸- ۳۰۱.

۲- ۲ المرجع نفسه ۲: ۳۰۱.

ص: ۲۵۲

الأمر الذى يميّز الآثمين منهم عن آثمى الشعوب الاخرى» (۱).

والخلاصة التى يتوصّل إليها بيتربرينث هى: أنّ بورتون يتصرّف فى حكمه كقاضٍ غير متحيّز، وليس هناك من يحاسبه على استنتاجاته فيقول: «إنّ الصفات التى تعوّض عن هذه النقائص هى شجاعة المكّى، وحبّه للإحسان، ورجولته وإحساسه المُتّقد بالشرف، وارتباطاته العائلية القويّة، واقترابه من صفة حبّ الوطن وثقافته العامّة». أمّا القسم المظلم من الصورة فينحصر فى الكبرياء والتعصّب الأعمى، وقلّة الدين، والجشع وحبّ الربح، وانعدام المُثل الأخلاقية، والإسراف الذى يُقصد منه التظاهر والفخفخة، ويبدو عند فحص الصورة أنّ القسم المظلم يتفوّق على القسم المضىء، مع أنّ بورتون قد وصف المكّيين فى مناسبات سابقة بالذكاء والفكاهة، شأن بقيّة الساميين (۲).

بيد أنّ أخطر الانطباعات التى ذكرها بورتون عن أهل مكّة هو ما سمعه منهم عن مستقبل الإسلام، إذ ذكر أنّ الكثيرين ممّن عرفهم يذكرون أنّ الإسلام مكتوب له أن يصادف كثيراً من الإحن والنكبات فى مقتبل الأيّام.

ويخلص من هذا إلى القول: إنّ المسيحيّين المتحمّسين لنشر عقيدتهم وديانتهم فى العالم يمكن أن يجدوا فى وضع المسلمين الفكرى هذا فرصة للانتشار والتغلغل بينهم فى الأجيال المقبلة. ثمّ يذكر فى حاشية له أنّ الوضع لا يحتاج إلى كثير من التنبّؤ قبل الأوان؛ ليستنتج منه المرء بأنّ الانكليز لابدّ أن تضطرّهم الأحوال السياسيّة لأن يحتلوا بالقوّة ينبوع الإسلام هذا وقبلته المقدّسة (۳).

من جهة اخرى، يذكر بورتون أنّ المشروبات الكحولية التى يذكر بيركهارت وجود أمكنة خاصّة لبيعها فى مكّة لم يعد لها وجود مطلقاً فى أيّامه، وقد أكّد له بعض الضبّاط الأرناؤوط أنّهم وجدوا صعوبة فائقة فى تهريب بعض القنانى من هذه المشروبات من جدّة إلى مكّة. ثمّ يشرح فى الحاشية أنّ زيارة بيركهارت كانت فى عهد استيلاء محمد على باشا عليها، ويعزو السبب

۱- ۱ بلاد العرب القاصية: ۱۶۱.

۲- ۲ المرجع نفسه: ۱۶۱- ۱۶۲.

۳- ۳ موسوعة العتبات المقدّسة ۲: ۳۰۲.

ص: ۲۵۳

إلى هذا الوضع بطبيعة الحال.

ومن طريف ما يذكره بورتون فى هذا الفصل (۳۲ من ج ۲) أنّ أحد المطوفين كان يصحبه فى ذهابه وإيابه إلى العمرة، فأصرّ عليه أن ينيبه للحجّ بالنيابة عن أبيه وامّه، فألقى نفسه مجبراً على الإذعان للطلب، وأخبره أنّ أباه يسمّى يوسف بن أحمد، وامّه فاطمة بنت يونس، ففعل المطوّف ذلك وأخذ اجرته المقنّنة عن عمله هذا (۱).

وقد زار بورتون مقبرة مكّة المقدّسة كما يسمّيها، التى كان يُطلق عليها «جنّة المعلّى».

وهو يقول: إنّه شاهد فيها المكان الذى علّقت فيه جثّة عبداللّه بن الزبير بأمر من الحجّاج بن يوسف الثقفى، وقبر عبد الرحمن بن أبى بكر، يذكر أنّه موضع تقديس السنّة والشيعة معاً، وقبر السيّدة خديجة الكبرى الذى كان مغطّى بقماش أخضر، وقبر آمنة والدة النبىّ صلى الله عليه و آله الذى أُعيد بناؤه بعد أن خرّبه الوهابيّون، وبعد هذا يذكر بورتون قيامه بزيارة الأماكن الاخرى التى ذكرها بيركهارت من قبل. ويشير فى الحاشية إلى أنّ الكتب التى رجع إليها تذكر اثنى عشر مكاناً آخر للزيارة فى مكّة، لا يعرف عن أكثرها غير اسمها.

وأخيراً؛ يشير بورتون إلى دعوة عشاء دعاه إليها رجل يُقال له على بن ياسين الزمزمى. وقد أكل فيها أكلات كثيرة.. وقد أكل بعض ذلك بملعقة خشبية، وهو يقول، فى هذه الأثناء: إنّ العرب يتجاهلون فنّ الأكل الفرنسى..

ويذكر بالمناسبة أنّ مكّة تتجهّز من الطائف ووادى فاطمة بكمّيات كثيرة من الخضر والفواكه التى يبلغ مقدارها فى موسم الحجّ وحده مئة حمل بعير فى اليوم على الأقل، وممّا يؤتى به إلى مكّة الرقّى والتمر والليمون والعنب والخيار وما أشبه (۲).

وهكذا انتهت حدّة مغامرات بورتون، ولم يبقَ لديه من عمل سوى مغادرة مكّة والرجوع إلى جدّة، حيث سارع إلى إنجاز قضيّتين؛ الاولى أنّه كشف للمستر كول القنصل البريطانى فى جدّة عن هويّته (۳)، والثانية هى صرف الحوالة المالية التى كانت الجمعية الجغرافية الملكية قد أرسلتها إليه؛

۱- ۱ المرجع نفسه ۲: ۳۰۲.

۲- ۲ المرجع نفسه ۲: ۳۰۲- ۳۰۳.

۳- ۳ المرجع نفسه ۲: ۳۰۳.

ص: ۲۵۴

لیطرد الفقر ویسدّ بعض الدیون (۱)، دون أن ننسی أنّ هذه الحوالة هی جزء من المبلغ المرصود لبورتون قبال قیامه بمهمّته السریّة تلک.

بعد مغادرته مکّة، سمح بورتون لنفسه بنیل قسط من الراحة، فی أعقاب تجربة مثیرة: «وعندما وصلت إلی السهل الفسیح شعرت بهزّة من الفرح تنتابنی، ذلک الشعور الذی لا یحسّ به إلّا السجین الذی خرج من غیاهب السجن» (۲).

ولکن؛ ماذا عن مرافقه محمّد البسیونی؟

لقد کان محمّد البسیونی بصحبة بورتون حتّی نهایة المطاف، حیث رافقه إلی جدّة. ولکنّ ثمّة تغیّراً طرأ علی الموقف، لحظه بورتون علی مرافقه الشاب، الذی ودّعه ببرود لم یستطع بورتون تفسیره، بید أنّ البسیونی کان قد أسرّ للشیخ نور (خادم بورتون الهندی) بأنّ هناک شکّاً یخامر عقله حول حقیقة بورتون، وقد قال لخادمه:

«إنّنی قد فهمت الآن أنّ سیّدک لیس مسلماً.. بل هو بریطانی من الهند، ضحک علی ذقوننا» (۳).

ولکن هل فهم الآخرون سرّ بورتون کما فهمه محمّد؟ فلقد انتشرت بعض الإشاعات التی تدلّ علی أنّ الکثیرین قد فهموه، وأنّ تنکّر بورتون لم یکن ناجحاً تماماً کما یبدو من نظرته.

إذ قیل: إنّه اضطرّ لقتل رجل رآه یتغوّط بغیر الشکل المألوف، وقد تحدّی هذا الرجل مصداقیّته نتیجة لذلک، ممّا جعل بورتون یقوم بقتله.

ومع ذلک فهاهو بورتون قد أتمّ رحلته ولا یکاد أیّ إنسان أن یصدّق أن یصل بورتون إلی نهایة رحلته سالماً دون أیّ ضرر فی تلک الظروف الصعبة، وبین جمهور متدیّن متحمّس مقاتل، وسلطات شدیدة المراقبة والحذر.. لو أنّ الشکّ تطرّق إلی البعض..

أمّا بورتون نفسه فقد أنکر أنّ شخصاً ما قد شکّ فی أمره، أو فکّر أنّه لم یکن ذلک الشخص الذی یعرفه الجمیع أنّه من الحجّاج السائرین فی طریق الحجّ (۴)، وبهذا یکون بورتون قد أجاد لعب دوره المرسوم بمهارة فائقة، وإنْ کان قد اکتشف أمره فی

۱- ۱ بلاد العرب القاصیة: ۱۶۲.

۲- ۲ المرجع نفسه: ۱۶۲.

۳- ۳ المرجع السابق: ۱۶۲، وکذلک صحیفة الحیاة: ۴/ ۵/ ۱۹۹۲.

۴- ۴ بلاد العرب القاصیة: ۱۶۲- ۱۶۳.

ص: ۲۵۵

اللحظة الأخیرة، وبعد فوات الأوان، من قبل مرافقه البسیونی، خلافاً لبعض أسلافه الرحّالة الغربیّین الذین کانت تحوم حولهم الشبهات منذ الخطوة الاولی.. اللّهم ما عدا هذه الحادثة العابرة التی تمکّن بورتون أن یتلافاها علی وجه السرعة، رغم أنّه حاول إنکارها!

مهمّات اخری

عاد بورتون إلی القاهرة، حیث أمضی ما تبقّی من إجازته محافظاً علی تنکّره.. خادعاً أصدقاءه البریطانیّین الذین کانوا یمرّون فی المدینة (۱) بعدها غادر القاهرة إلی انجلترا، ومنها قصد إلی أفریقیا الشرقیة والحبشة متنکِّراً بزیّ تاجر عربی (۲).

وکان أوّل أوروپی یدخل مدینة هرار فی أثیوبیا عام ۱۸۵۵ م، واصیب بحربة فی فکّه الأسفل، ووضع کتاب «خطوات فی أفریقیا الشرقیّة». وأقام سنتین فی ترکیا. وفی عام ۱۸۵۸ م أرسلته الحکومة البریطانیة فی بعثة لکشف منابع النیل، فکتب عن مناطق البحیرات فی أفریقیا الاستوائیة، واکتشف بحیرة تنجانیقیا (۳).

بعد ذلک غیّر بورتون مسار رحلاته، وتوجّه إلی شمال أمریکا لدراسة «المورمون» (طائفة دینیة نشأت فی القرن التاسع عشر اعتبر مؤسّسها أنّ تعالیمه مکمِّلة للإنجیل) فی سولت لیل سیتی (ولایة یوتا). وفی عام ۱۸۶۱ تزوّج من «ایزابیل اروندیل» التی لعبت دوراً کبیراً فی تعیینه فی المراکز القنصلیة فی أفریقیا الغربیة والبرازیل ودمشق، ثمّ تریستا فی شمال ایطالیا (۴).

فی العام ۱۸۶۶ م منحته الملکة فیکتوریا رتبة فارس، جرّاء خدماته التی قدّمها إلی بریطانیا العظمی، وفی العام ۱۸۶۹ م نُقل من البرازیل إلی دمشق التی قصدها مع زوجته بصحبة «ادوارد بالمر» (أحد کبار العملاء السریّین البریطانیین فی الشرق)، ومنذ اللحظات الاولی انخرط بورتون وزوجته فی حیاة دمشق بکلّ ما أُوتیا من وقت ومن قوّة، وقد کان بورتون المثال الوحید، کما تقول زوجته، للرجل غیر المسلم الذی ما إن أدّی

۱- ۱ صحیفة الحیاة: ۴/ ۵/ ۱۹۹۲.

۲- ۲ المستشرقون للعقیقی؛ مرجع سابق ۲: ۵۹.

۳- ۳ الاعلام للزرکلی؛ مرجع سابق ۳: ۳۸، والمستشرقون ۲: ۵۹، وصحیفة الحیاة.

۴- ۴ صحیفة الحیاة: ۴/ ۵/ ۱۹۹۲.

ص: ۲۵۶

الحجّ، حتّى صار مثل المسلمين يعتبرونه واحداً منهم، ويسمّونه الحجّى عبداللّه، ويعاملونه كأنّه واحد منهم..

وفيما تنغمس الزوجة ايزابيل فى أعماق المجتمع الدمشقى.. كان زوجها يمارس هواية غير مألوفة فى السلك الدبلوماسى، وهى العودة إلى حياة التقنّع والتخفّى التى طالما أجادها، وكان يجوب أسواق دمشق القديمة متزيّياً كلّ مرّة بشخصية مختلفة من الشخصيّات المحلّية.. كذلك كانت ايزابيل بورتون ترتدى أحياناً الزى العربى (من دون أن تتخفّى) وتنزل إلى دمشق لكى تتذوّق شيئاً من حياة الشرق، حسب زعمها.

وحين كانت تسافر فى الصحراء بمعيّة زوجها كانت ترتدى ثياب الرجال مدّعية أنّها ابنة ريتشارد!

قبل مضىّ وقت غير طويل، بدأت علامات الاستفهام تُثار حول تحرّكات السفير وزوجته التى بدأ مسلمو دمشق يتّهمونها بالتعصّب للكثلكة والتبشير بها كلّما سنحت لها الفرصة، وحينما بلغت تدخّلات بورتون فى سياسات دمشق المحلّية ذروتها اضطرّت وزارة الخارجية البريطانية نقل قنصلها بورتون إلى تريستا الايطالية، وذلك فى ۱۶ آب (اغسطس) ۱۸۷۱ م (۱).

وفى إيطاليا، حيث كان الضجر يطغى على حياته، تذكّر بورتون أنّ أحد معارفه فى القاهرة كان أخبره بأنّه خلال عودته من الحجّ اكتشف مغارة مليئة بالذهب فى مقطع تقع شمال الجزيرة العربية، يفصلها عن سيناء خليج العقبة.. وهكذا نجد بورتون على رأس بعثة ضمّت مهندساً فرنسيّاً وبعض الجنود المصريّين، بعدما تمّ إقناع الخديوى إسماعيل، وغادرت المجموعة السويس فى آذار (مارس) ۱۸۷۷ م، وأمضت ثلاثة أسابيع فى المنطقة وجدت خلالها النقوش القديمة والحشرات والنباتات الجديدة، إلّاأنّها لم تكتشف أىّ ذهب، ولكن هذا لم يمنع بورتون من إرسال برقية إلى الخديوى مليئة بالآمال والاحتمالات بوجود الذهب، فوافق إسماعيل على توسيع البعثة، فعاد بورتون من جديد مع مجموعة مؤلّفة من أربعة أوروپيين وستّة ضبّاط مصريين و ۳۲ جندياً

۱- ۱ للمزيد يراجع؛ قافلة الحبر: ۹۰- ۹۲.

ص: ۲۵۷

و ۳۰ عاملًا فی مقالع الأحجار، وطبّاخ يونانی ونجّار.

وعلى امتداد أربعة أشهر، أخفق بورتون فی الحصول على مبتغاه، بيد أنّه تمكّن من مسح مساحة ۲۵۰۰ ميلٍ، وعادوا ب ۲۵ طنّاً من النماذج المختلفة، ودرسوا ۱۸ موقعاً قديماً، فی مقدّمتها مدينة مدين.. ويعتبر علماء الجغرافيا أنّ مسح بورتون الجيولوجی لهذه المنطقة كان أهمّ إسهام قدّمه لدراسة شبه الجزيرة العربية.

وبعد هذه الرحلة، خفّف بورتون تنقّلاته، وتفرّغ لنشاطات أدبية عدّة، فأكمل عام ۱۸۸۶ م أكبر مهمّة نذر نفسه لها وهی ترجمته الانكليزية لكتاب «ألف ليلة وليلة» التی وصلت إلى ۱۶ مجلّداً، بما فيها الملاحظات والهوامش المطوّلة (۱)، وقد صدرت فی العام نفسه الذی حصل فيه على لقب سير. كما اهتمّ بنشر كتبه وإعادة طبع بعضها. وإضافة إلى ما تمّت الإشارة إليه فی ثنايا البحث من كتبه، هناك عدّة مؤلّفات له كتبها كلّها بالانكليزية ونشرت وهو حیّ؛ وأهمّها: سوريا غير المكتشفة، زنجبار، مناطق البحيرات فی أواسط أفريقيا، وكان قد حاول مع غيره ترجمة القرآن بالسجع الشعری (۲).

وفی تشرين الأوّل (اكتوبر) ۱۸۹۰ م، توفی السير ريتشارد بورتون فی تريستا، وهو فی التاسعة والستّين من عمره، ودفن فی لندن، وقد شيّدت له زوجته ضريحاً فريداً اتّخذ شكل خيمة عربية (۳)، كما وضعت كتاباً عن حياته.

العدد القادم

الهوامش:

---

۱ - ۱ صحيفة الحياة: ۴ / ۵ / ۱۹۹۲، وللمزيد حول ترجمة كتاب ألف ليلة وليلة تُراجع «دائرة المعارف الإسلامية» بقلم نخبة من المستشرقين، ترجمة أحمد الشنتناوی وآخرين، دار المعرفة، بيروت د. ت، المجلّد الثانی، ص: ۵۳۴، حيث يذهب كاتب المادّة مكدونالد إلى أنّ بورتون اعتمد كثيراً على ترجمة «پاين» بل نقل منها نقلًا حرفيّاً فی كثير من الأحيان.

۲- ۲ يراجع الاعلام للزركلی ۳: ۳۸، والمستشرقون للعقيقی ۲: ۶۰.

۳- ۳ صحيفة الحياة؛ مرجع سابق، وقد وقع د. حلمی خضر ساری فی اشتباه، حين ذكر وفاته فی القاهرة. رغم اعتماده منهجاً علمياً صارماً. وجلّ مَنْ لا يُخطئ!

ص: ۲۶۲

شخصیّات من الحرمین الشریفین (۱۱)

ابو ایّوب الأنصاری

أبو أیّوب الأنصاری

رجال صدقوا ما عاهدوا اللَّه علیه

حسن الحاج

تلک هی مدرسهٔ مبارکهٔ، أصلُها ثابت وفرعُها فی‌السماء لا یضرّها من کبا، ولا یعکر صفوها من ولی وجهه بعیداً عنها.. وکیف یکدر مسیرتها من شطط، ویضعف کیانها من جفا، وها هو رسول اللَّه صلی الله علیه و آله قائم علیها، یؤسس بنیانها علی تقوی من اللَّه ورضوان، یمدّها بعطائه الذی لا ینضب، وبخلقه الذی لا یحد ولا یتوقف، وبعلمه الذی لا یبور..؟!

فکان منهم الصادقون حقّاً، وکان منهم الصالحون، وکان منهم الشهداء...

وهکذا ظلّت شجرتها خضراء مورقهٔ معطاء بفضل دمائهم وجهودهم ومواقفهم ...

رغم ما تعرّضت له من کید وتآمر، وما توغّل فی صفوفها من نفاق، وما حیک حولها من اتهامات وأثیر علیها من شبهات..

فالصحابهٔ والصحبهٔ مدرسهٔ قلّ نظریها وفقد شبیهها فی التاریخ، إنّهم طلیعهٔ آمنوا بربّهم فزادهم اللَّه هدًی؛ لهذا لا تجد مثیلًا لهم فی حیاتنا قدیماً وحدیثاً إلّامن رحم ربّی، نخبهٔ صالحهٔ تفرّدت بصفاتٍ وخصائص.. راحت تتمّناها الأجیال المؤمنهٔ وتتحلّی بها وهی تکدح متمنّیهٔ رضوان اللَّه وجنانه..

ص: ۲۶۳

إنّ من يقرأ حياتهم مهاجرين وأنصاراً يضع يـده على مزايا عالية وأخلاق رفيعة ومناقب راقية وبسالة وجهاد، تحلى بكلّ هذا وبغيره من قيم السـماء جمعٌ كثير منهم، حتّى إنك تجد وكأنّ بعضاً منهم اصـطفته السـماء واصطنعته يدُ الغيب لمهامٍ رساليّة، وليبقى نموذجاً فذّاً، ومثالًا يتحـذّى، وحجّةً على غيره ممّن عاصـروه والذى جاؤوا من بعدهم،.. والسابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار والذين اتّبعوهم بإحسان رضى اللَّه عنهم ورضوا عنه وأعدّ لهم جنّات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم.

لقـد حظيت هـذه الشـريحة من الصـحابة بنصيبٍ وافرٍ من رعايـة الرسول الكريم صـلى الله عليه و آله واهتمامه وهديه وتربيته وتعليمه، فراحت تسـتوعب كلّ ذلك بوعى ورغبة، وتمثّلت ما اكتسـبته من رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله أسلوباً عملياً ومواقف صلبة- لم تهن ولم تنكل ولم تنقلب ولم تغيّر ولم تبـدّل ولم تحـد عن منهجه ولم تتجاوز خطاه، ظلّت مسـتقيمة على مبادئها وفيّه لقيمها، حتّى غـدت أمّةً رساليّة فحملت أعباءً عظيمة ومخاطر جسيمة..

والأنصار هؤلاء الذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقّاً يحبّون من هاجر إليهم.

وروى عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «لولا الهجرة لكنتُ امرأً من الأنصار». وهذا الصحابيّ الجليل واحد منهم.

فهو خالـد بن زيـد بن كليب بن ثعلبـة بن عبـد بن عمرو بن عوف بن غنم بن مالك بن النجّار بن ثعلبة بن الخزرج، المعروف ب «أبو أيّوب الأنصـارى الخزرجى المـالكى» من أشـراف الأنصـار وسـاداتهم. صـحابى جليـل آخى رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله بينه وبين مصعب بن عمير.

مضـيف رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله، بهـذا عرف هـذا الصـحابى الجليل، فقـد أكرمه اللَّه تعالى بكرامـة أعلت فى الـدنيا قدره حين اختار بيته من دون البيوت؛ ليحلّ فيه

ص: ۲۶۴

رسول‌اللّه صلی الله علیه و آله حین هاجر من مکّهٔ، ورحل صلی الله علیه و آله من قباء إلی المدینهٔ، فبعد أن اقتربت قافلته صلی الله علیه و آله من تخوم هذه البلدهٔ الطیّبهٔ، وطأت قدماه الشریفتان أرض المدینهٔ مهاجراً، وراحت تحییه بدءاً بسعیفات نخلها التی استقبلته بظلالها الوارفهٔ، ومروراً بقلوب أهلها التی راحت هی الاخری تستقبله بأفضل ما یتلقّی به مقبلٌ، وتطلّعت عیونهم إلیه، وفتحت له أفئدتهم... وانتهاءً ببیوتها التی أشرعت أبوابها..

وحسب هذا الأنصاری بذلک فخراً وشرفاً وکرامهٔ...

دعوها إنّها مأمورهٔ!

فقد راح رسول اللّه صلی الله علیه و آله یصوّب ناظریه إلی حیث المکان الذی عیّنته السماء لتبلیغ دعوتها وحمل رسالتها إلی الناس کافّهٔ... فشدّ صلی الله علیه و آله رحاله عبر صحراء محرقهٔ ملتهبهٔ وریاح مغبرهٔ تلفح وجهه الشریف... وعبر هضاب صعبهٔ وصخور صمّاء وودیانٍ جافّهٔ... حتّی اقتربت قافلته صلی الله علیه و آله من تخوم یثرب... إنّها معاناهٔ شاقّهٔ وتعب مریر..

علت وجهه المبارک ابتسامهٔ وهو یلمح معالم هذه البلدهٔ الطیّبهٔ.. وسرعان ما ینظر خلفه- حیث مدینته التی ولد ونشأ بین هضابها وجبالها ولصق بها، وتعلّق قلبه بحبّها، یودّعها بدموعٍ منهمرهٔ وفؤادٍ حزین...

هاهی یثرب، وها هو النور قد قدم، وها هی الجموع عند ثنیّات الوداع، وقد أحاطت برسول اللّه صلی الله علیه و آله من کلّ جانب، یتسابقون للترحیب به، ولخدمته وضیافته. کم هی امنیهٔ عظیمهٔ عاشت فی نفوسهم جمیعاً صغیراً وکبیراً أن یحلّ هذا المهاجر الکریم بین ظهرانیهم؟! ومَن هو صاحب الحظّ الأوفر الذی ادّخرته السماء لیضع رسول الرحمهٔ رحله عنده؟!

راحت أصواتهم تعلو وأهازیجهم تملأ ذلک المکان، وقد فتحت له قلوبهم وتطلّعت له عیونهم... وراح کلّ واحد منهم یُهلک نفسه امنیهٔ وحسرهٔ لیتشرّف بضیافهٔ رسول اللّه صلی الله علیه و آله، وهم یعترضون ناقته، آخذین بزمامها..

ص: ۲۶۵

نحن بنو سالم،... أقم عندنا فی العدد والعدّة والمنعة.. نحن بنو بیاضة،...

هلمّ إلینا، إلی العدد والعدّة والمنعة،... نحن بنو ساعدة... نحن بنو الحارث...

نحن بنو النجّار....

اغمرنا بالسعادة یا رسول اللّه، انزل فدوُرنا لک عامرة، حتّی راحت دموعهم تنهمر توسّلًا به صلی الله علیه و آله، وخوفاً من أن لا یلبّی طلبهم.

لم تفارق محیّاه صلی الله علیه و آله ابتسامة الشکر لهم والثناء علیهم، ولم یزد علی قوله لهم:

خلّوا سبیلها، فإنّها مأمورة.. أی الأمر لیس بیدی إنّه بید السماء، فقد امِرت هذه الناقة بشیء وهی منقادة إلیه، وها هو زمامها مرسلًا..

فخلّوا سبیلها، وما زالت عیونهم تلاحقها وقلوبهم تحفّ بها..

رمق صلی الله علیه و آله السماء بطرفه «اللّهم خِر لی، واختر لی».

کان أبو أیّوب الأنصاری أحدهم وقد ابتلّت لحیته بدموع الأمل والفرح..

وراحت نفسه تتوق إلی أن تکون صاحبة تلک الضیافة وتلک الحظوة، حقّاً لا ینالها إلّاذو حظٍّ عظیم.

لقد برکت الناقة فی أرضه.. لکنّها نهضت ثمّ عادت ورسول اللّه صلی الله علیه و آله یرخی لها زمامها، لا یثنیها به.. وبرکت بجوار بیته واستقرّت... فنزل رسول اللّه صلی الله علیه و آله عنها وقد ملئت أساریر وجهه بشراً وسروراً..

وخطی نحوه صاحب الحظّ الأوفر والسعادة العظمی، أبو أیّوب وقد علا وجهه الفرح والغبطة.. إنّه الرحل إذن أحمله وراح یحمل رحله وکأنّه یحمل کنوز الدنیا وما فیها، واتجه به إلی بیته، وسمع رسول اللّه یقول للناس وهم یدعونه إلی منازله... «المرء مع رحله» فراحت العیون تغبط أبا أیّوب علی هذا النصیب الوافر والحظّ الوافی..

مع روایة الطبری:

إنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله رکب ناقته وأرخی لها الزمام، فجعلت لا تمرّ بدار من دور

ص: ۲۶۶

الأنصار إلّادعاه أهلها إلى النزول عنـدهم، وقالوا له: هلمّ يا رسول اللّه إلى العدد والعدّة والمنعة، فيقول لهم صـلى الله عليه و آله: «خلوا زمامها فإنّها مأمورة» حتّى انتهى إلى موضع مسجده اليوم، فبركت على باب مسجده، وهو يؤمئذ مربدٌ لغلامين يتيمين من بنى‌النجار فى حجر معاذ بن عفراء، يقال لأحـدهما سـهل وللآخر سـهيل ابنا عمرو ابن عباد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار، فلمّا بركت لم ينزل عنهـا رسول اللّه صـلى الله عليه و آله، ثمّ وثبت فسـارت غير بعيـد، ورسول اللّه صـلى الله عليه و آله واضع لهـا زمامهـا لاـ يَثنيها به، ثمّ التفتـت خلفهـا، ثمّ رجعت إلى مبركهـا أوّل مرّة، فـبركت فيه ووضـعت جرانهـا، ونزل عنهـا رسـول اللّه صـلى الله عليه و آله، فـاحتمل أبوأيّوب رحله، فوضـعه فى بيته، فـدعته الأنصـار إلى النزول عليهم، فقـال رسـول اللّه صـلى الله عليه و آله: المرءُ مع رحله. فنزل على أبى‌أيّوب خالـد بن زيـد بن كليب فى بنى غنم بن النجار... وسأل رسول اللّه صـلى الله عليه و آله عن المربـد لمن هو؟ فأخبره معاذ بن عفراء، وقال: هو ليتيمين لى، سأُرضيهما.

فأمر به رسول اللّه أن يبنى مسـجداً، ونزل على أبى‌أيوب، حتّى بنى مسـجده ومساكنه. وقيل: إنّ رسول اللّه صـلى الله عليه و آله اشترى موضع مسجده ثمّ بناه.

وقد أعقب هذه الرواية بما قاله أنس بن مالك: كان موضع مسـجد النبى صلى الله عليه و آله لبنى النجار، وكان فيه نخل وحرث وقبور من قبور الجاهليّة، فقال لهم رسول اللّه صلى الله عليه و آله: ثامنونى به، فقالوا: لا نبتغى به ثمناً إلّاما عند اللّه.

فأمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله بالنخل فقطع، وبالحرث فأفسد، وبالقبور فنبشت...

وتولّى بناء مسجده صلى الله عليه و آله هو بنفسه وأصحابه من المهاجرين والأنصار (۱).

فقد شاءت السـماء أن يكون جوار مبرك هذه الناقة مسجداً عظيماً، ثانى الحرمين الآمنين بعد مكّة المباركة، ومدرسة للقرآن وعلومه، وموضـعاً يحكم فيه بين العباد وترسم فيه مناهـج السـياسة وخطط الحرب.. إنّه بقعـة مباركة طالما كانت مكاناً آمناً وملتقىً عظيماً تهفو إليه قلوب المؤمنين، يتحلقون حول رسول اللّه صـلى الله عليه و آله يبلغهم مـا توحيه السـماء من آيات مباركـة وأحكام تنظيم حياتهم، ويملأ قلوبهم إيماناً

۱- ۱ السيرة النبويّة لابن هشام ۲: ۴۹۴- ۴۹۶ تاريخ الطبرى ۲: ۸ السنة الهجرية.

ص: ۲۶۷

ويثبت أقدامهم... ويلبّى حوائجهم ويجيب عن أسئلتهم ويقضى بينهم حتّى غدا هذا المكان من المقدّسات الكبرى يؤمّه الملايين من المسلمين والمؤمنين، يأتونه من كلّ بقاع الدنيا ترفع فيه الدعوات ويُبتهل فيه إلى العلىّ القدير.. وتذكرهم أجواؤه بتلك الوجوه الطاهرة أنصاراً ومهاجرين وهم يضعون أسسه ويرفعون بناءَه.

وأن يكون ضريحاً يضمّ الجسد الطاهر لخاتم النبيّين، وأن ترد فى فضله الروايات والأحاديث لتبيّن فضله وعلوّ مكانه..

لقد كان بيت الصحابى الجليل أبى أيّوب الأنصارى الذى مكث فيه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله شهراً قبل ابتنائه المسجد مؤلّفاً من طبقتين؛ طبقة سفلى فوقه عُلِّية، آثر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أن ينزل الطبقة السفلى منه ليبقى الآخر لأبى أيّوب وأهله.

لمّا حلّ الليل، وقد آوى نبىّ الرحمة إلى فراشه، صعد أبو أيّوب وزوجته إلى حيث فراشهما فى الطبقة الثانية، فانتبه أبو أيّوب إلى عمله واستنكر فعلته قائلًا لزوجته:

ويحك، ماذا صنعنا؟!

أيكون رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أسفل، ونحن أعلى منه؟!

أنحشى فوق رسول اللَّه صلى الله عليه و آله؟!

أنصير بين النبىّ والوحى؟! إنّا إذن لهالكون، ولم تسكن نفساهما بعض السكون إلّاحين انحازا إلى جانب العلية الذى لا يقع فوق رسول اللَّه صلى الله عليه و آله! والتزماه لا يبرحانه ماشيين على الأطراف متباعدين عن الوسط.

فلمّا أصبح أبو أيّوب قال للنبى صلى الله عليه و آله: واللَّه ما أغمض لنا جفنٌ فى هذه الليلة لا أنا ولا امّ أيّوب.

فقال عليه الصلاة والسلام:

وممَّ ذاك يا أبا أيّوب؟!

ص: ۲۶۸

قال: ذكرتُ أنّى على ظهر بيت أنت تحته، وأنّى إذا تحرّكت تناثر عليك الغبار فآذاك، ثمّ إنّى غدوت بينك وبين الوحى.

فقال له الرسول صلى الله عليه و آله:

هوّن عليك يا أبا أيّوب، إنّه أرفق بنا أن نكون فى السُّفل، لكثرة من يغشانا من الناس.

قال أبو أيّوب:

فامتثلت لأمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله إلى أن كانت ليلة باردة فانكسرت لنا جرّةٌ وأُريق ماؤها فى العُلّيّة، فقمتُ إلى الماء أنا وامّ أيّوب، وليس لدينا إلّاقطيفة كنّا نتّخذها لحافاً، وجعلنا ننشف بها الماء خوفاً من أن يصل إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله.

فلمّا كان الصباح غدوت على الرسول صلوات اللّه عليه وقلت: بأبى أنت وامّى، إنّى أكره أن أكون فوقك، وأن تكون أسفل منّى، ثمّ قصصت عليه خبر الجرّة، فاستجاب لى، وصعد إلى العُلّية، ونزلت أنا وامّ أيّوب إلى السُّفل.

إنّه لقاء عظيم مبارك لأبى أيّوب برسول الرحمة وهو اللقاء الثانى، بعد أن كان واحداً من ثلاثة وسبعين رجلًا وكانت معهم امرأتان وهم الذين بايعوا رسول اللّه صلى الله عليه و آله بيعة العقبة الثانية فقد قويت بهم شوكة الإسلام والمسلمين، وكانوا بها للمهاجرين إخواناً، وداراً يأوون إليها ويأمنون بها، وكانت هذه المصافحة الثانية ليد رسول اللّه صلى الله عليه و آله، الاولى كان فيها مبايعاً مؤمناً، والثانية مبايعاً مضيّفاً.

من رواياته

قال: قلتُ يارسول اللّه، ما هذه الأربع ركعات التى تصلّيها عند الزوال؟

قال: «هذه الساعة تفتح فيها أبواب السماء فلا ترتج حتّى تصلّى الظهر، فأحبّ أن أقدّم خيراً» (۱).

وعنه أيضاً أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: قل هو اللّه أحد تعدل ثلث القرآن (۲).

وله أيضاً أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: «لا تهاجروا ولا تدابروا وكونوا عباد اللّه

۱- ۱ حلية الأولياء ۱۰: ۲۱۸.

۲- ۲ حلية الأولياء ۷: ۷۳۴.

ص: ۲۶۹

إخواناً، هجرة المؤمن ثلاث، فإن تكلّما وإلّا أعرض اللَّه عنهما حتّى يتكلّما» (۱).

وعنه أيضاً أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ليلته بثلث القرآن؟».

فأشفقنا أن يأمرنا بأمر نعجز عنه، قال: فسكتنا. فقال ثلاث مرّات: «أن يقرأ بثلث القرآن فإنّه من قرأ اللَّه الواحد الصمد، فقد قرأ ليلته ثلث القرآن» (۲).

وممّا رواه أنّ رجلًا جاء إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقال: دلّني على عمل أعمله يدنيني من الجنّة ويباعدني من النار، قال صلى الله عليه و آله: «تعبد اللَّه لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصِل ذا رحمك».

قال: فأدبر الرجل.

فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «إن تمسّك بما أمر به دخل الجنّة» (۳).

وله أيضاً: قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «من أخلص للَّه‌تعالى أربعين يوماً ظهرت ينابيع الحكمة على لسانه» (۴).

ومن حكمه:

من أراد أن يكثر علمه وأن يعظم حلمه، فليجالس غير عشيرته.

مكانته

كان أبوأيوب من الواعين للحالة التي انتابت المجتمع الإسلامي أيام الخلافة الثالثة، وما دبّ في هذه الأمّة من فساد وانحراف فبادر هو وجمع من الصحابة لعليّ عليه السلام قائلين له: إنّ هذا الأمر قد فسد، وقد رأيت ما صنع عثمان، وما أتاه من خلاف الكتاب والسنّة، فأبسط يدك نبايعك، تصلح من أمر الأمّة ما قد فسد.

ولمّا وقع حصار بيت عثمان من قبل الثوّار الذين راحوا يحيطون ببيته من كلّ جانب، بعد أن يئسوا من تلبية الخليفة لمطالبهم التي وعدهم بها مراراً ولم يفِ، فلم يقصدغيره لإمامة صلاة الجماعة في مسجد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، فجاء مؤذّن المسجد يومذاك سعد القَرظ إلى الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في ذلك اليوم، فقال: مَنْ

۱- ۱ حلية الأولياء ۷: ۹۵.

۲- ۲ حلية الأولياء ۱: ۱۱۷.

۳- ۳ حلية الأولياء ۴: ۳۷۴.

۴- ۴ حلية الأولياء ۵: ۱۸۹.

ص: ۲۷۰

يصلّى بالناس؟

فقال علىّ عليه السلام: نادِ خالد بن زيد.

فنادى خالد بن زيد، فصلّى بالناس.

وهنا يقول الطبرى فى تاريخه: فإنّه لأوّل يوم عرف أنّ أبا أيّوب خالد بن زيد.

فكان يصلّى بهم أيّاماً، ثمّ صلّى علىّ عليه السلام بعد ذلك بالناس (۱).

وشبيه بهذا ما حدّث به عبداللّه بن نافع عن أبيه عن ابن عمر، قال: لمّا حُصر عثمان صلّى بالناس أبو أيّوب أيّاماً، ثمّ صلّى بهم علىّ الجمعة والعيد (۲).

وهذا الأمر يدلّنا على أنّ لأبى أيّوب مكانةً مرموقةً فى قلوب الناس، وله منزلة رفيعة عند الإمام علىّ عليه السلام فاختاره دون الآخرين ليؤمّ المسلمين.

وكان ابن عبّاس يجلّه كثيراً ويحفظ له موقفه من رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقد قدِم أبو أيّوب البصرة فنزل على ابن عبّاس وكان الأخير والياً عليها، ففرغ له بيته، وقال له: لأصنعنّ بك كما صنعت برسول اللّه صلى الله عليه و آله. ثمّ قال له: كم عليك من الدين؟

قال: عشرون ألفاً.

فأعطاه أربعين ألفاً وعشرين مملوكاً، ثمّ قال له:

لك ما فى البيت كلّه.

موقفه من معاوية

بعد معارك الإسلام الكبرى شارك أبو أيّوب الأنصارى فى معارك اخرى خاضها الإمام على عليه السلام ومنها معركة صفّين، فقد كان إلى جوار الإمام على عليه السلام ضدّ معاوية وجنده.

سُئل أبو أيّوب يوماً: يا أبا أيّوب قد أكرمك اللّه بصحبة نبيّه صلى الله عليه و آله ونزوله عليك، فما لى أراك تستقبل الناس تقاتلهم، تستقبل هؤلاء مرّةً وهؤلاء مرّةً؟

۱- ۱ تاريخ الطبرى ۲: ۶۹۴.

۲- ۲ تاريخ الطبرى ۲: ۶۹۴.

ص: ۲۷۱

فقال: إنّ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله عهد إلینا أن نقاتل مع علیٍّ الناکثین، فقد قاتلناهم، وعهد إلینا أن نقاتل مع علیّ القاسطین، فهذا وجهنا إلیهم، یعنی معاویة وأصحابه، وعهد إلینا أن نقاتل مع علیٍّ المارقین، فلم أرهم بعدُ (۱).

وحینما أراد الإمام علیه السلام الرجعة إلی صفّین لحرب معاویة ثانیةً، کان أبو أیّوب قائداً من قیادات الجیش، فقد عقد الإمام علیه السلام لابنه الحسین علیه السلام فی عشرة آلاف، ولقیس بن سعد فی عشرة آلاف، ولأبی أیّوب فی عشرة آلاف، ولغیرهم علی أعداد اخری، وهو ینادی بأعلی صوته:

الجهاد الجهاد عباد اللَّه! ألا وإنّی معسکر فی یومی هذا، فمن أراد الرواح إلی اللَّه فلیخرج!

إلّا أنّ الغدر المتمثِّل بضربة ابن ملجم قد حال بینه وبین مراده، وکما یقول أحد أصحابه بعد استشهاده علیه السلام:... فکنّا کأغنام فقدت راعیها، تختطفها الذئاب من کلّ مکان (۲).

ولمّا وجد معاویة أنّ أبا أیّوب الأنصاری أشدّ الأنصار علیه وأنّ له دوراً مهمّاً ومکانة رفیعة عند علیّ علیه السلام، راح یراسله فلعلّه یستمیله بعض الشیء، ولا أقلّ یزرع الشکّ فی موالاته للإمام علیّ علیه السلام وفی تشویه مواقفه، فکتب إلیه کتاباً وکان سطراً واحداً:

عن الأعمش وهو أحد أعلام کتاب صفّین أنّه قال:

کتب معاویة إلی أبی‌أیوب خالد بن زید الأنصاری، صاحب منزل رسول اللَّه صلی الله علیه و آله وکان سعیداً معظماً من سادات الأنصار، وکان من شیعة علی علیه السلام، کتاباً،... قال فیه: لا تنسی شیباءُ أبا عذرتها، ولا قاتل بکرها، أو أمّا بعد، فإنّی ناسیتک ما لاتنسی الشیباء.

فلمّا قرأ أبو أیّوب کتابه المختصر هذا، لم یدرِ ما هو، فأتی به علیّاً علیه السلام، وقال:

یا أمیر المؤمنین، إنّ معاویة ابن آکلة الأکباد، وکهف المنافقین، کتب إلیَّ بکتابٍ

۱- ۱ مختصر تاریخ دمشق ۷: ۳۴۰.

۲- ۲ انظر نهج البلاغة لصبحی الصالح: ۲۶۴.

ص: ۲۷۲

لا أدری ما هو، فقال له علیّ: وأین الکتاب؟ فدفعه إلیه فقرأه وقال: نعم، هذا مثلٌ ضربه لک، یقول: ما أنس الذی لا تنسی الشیباءُ، لا تنسی أبا عذرتها، والشیباء:

المرأة البکر لیلة افتضاضها، ولا تنسی بعلها الذی افترعها أبداً، ولا تنسی قاتل بکرها وهو أوّل ولدها أو لا تنسی ثکل ابنها، وکذلک لا أنسی أنا قاتل عثمان (۱).

فکتب إلیه أبو أیّوب: إنّه لا تنسی الشیباء ثکل ولدها، وضربتها مثلًا لقتل عثمان، فما نحن وقتلة عثمان؟ إنّ الذی تربّص بعثمان، وثبّط أهل الشام عن نصرته لأنت، وإنّ الذین قتلوه غیر الأنصار، والسلام.

دوره فی فتنة الخوارج

وکان لأبی أیّوب الأنصاری دوره المتمیّز فی الحوار مع الخوارج وإقناع شریحة واسعة منهم بأن یعتزلوا الحرب قبل وقوعها أو تحیید جمع منهم وإبعادهم عن قتال مریر أطاح بمن لم یزده نداء الخیر والحقّ إلّاعناداً ونفوراً، فقد خرج إلیهم الإمام علیّ علیه السلام وقد عبّأ الناس لقتالهم بعد أن سفکوا الدم الحرام، فجعل علی میمنة جیشه حُجر بن عدی وعلی میسرته شبث بن ربعی، وعلی روایة معقل بن قیس الریاحی، وعلی الرجالة أبا قتادة الأنصاری، وعلی أهل المدینة وهم سبعمائة أو ثمانمائة رجل، قیس بن سعد بن عُبادة الأنصاری. فیما راح الصحابی الجلیل أبو أیّوب الأنصاری یقف علی الخیّالة... (۲).

وعبّأت الخوارج مقاتلیها، فجعلوا علی میمنتهم زید بن حصین الطائی، وعلی المیسرة شریح بن أوفی العبسی، وعلی خیلهم حمزة بن سنان الأسدی، وعلی الرجّالة حُرقوص بن زهیر السعدی.

بعد هذا الحشد الکبیر للفریقین، واستعدادهم للقتال، وبعد نداءات ومواعظ الإمام علی علیه السلام المتکرِّرة، رفع الإمام علیه السلام أخیراً رایة أمانٍ وکان إلی جواره أبو أیّوب الأنصاری، الذی راح ینادیهم بأعلی صوته- بعد أن أذن له الإمام علیه السلام- قائلًا: مَنْ جاء هذه الرایة منکم ممّن لم یقتل ولم یستعرض فهو آمن، ومن انصرف

۱- ۱ وقعة صفّین: ۳۶۶، والإمامة والسیاسة: ۱۶۹- ۱۷۰.

۲- ۲ الطبری، وانظر الإمامة والسیاسة ۱: ۱۶۹.

ص: ۲۷۳

منکم إلی الکوفة أو إلی المدائن، وخرج من هذه الجماعة فهو آمن؛ إنّه لا حاجة لنا بعد أن نصیب قَتلة إخواننا منکم فی سفک دمائکم.

وعلی إثر خطابه رضوان اللَّه علیه، قال فروة بن نوفل الأشجعی وهو من کبار الخوارج: واللَّه ما أدری علی أیّ شیء نقاتل علیّاً! لا أری إلّاأن أنصرف حتّی تنفذ لی بصیرتی فی قتاله أو اتّباعه. وانصرف فی خمسمائة فارس حتّی نزل البندنیجین والدسکرة.

وخرجت طائفة اخری متفرّقین فنزلت الکوفة، وخرج إلی علیّ منهم نحو من مائة. وبقی منهم ألفان وثمانمائة خرجوا زاحفین علی جیش الإمام علی علیه السلام بقیادة صاحبهم عبداللَّه بن وهب.. فاستقبلت المرامیة وجوههم بالنبل وعطفت علیهم الخیّالة بقیادة أبی أیّوب الأنصاری من المیمنة والمیسرة، ونهض إلیهم الرجال بالرماح والسیوف، فواللَّه ما لبثوهم أن أناموهم.. (۱).

ولمّا أراد الإمام علی علیه السلام الانصراف من معرکة النهروان والتی انتهت بانتصار عظیم له وهزیمة ساحقة للخوارج، وقف خطیباً مرّتین، وممّا قاله فی خطبته الاولی، بعد أن حمد اللَّه تعالی:

أمّا بعد، فإنّ اللَّه قد أحسن بلاءکم، وأعزّ نصرکم، فتوجّهوا من فورکم هذا إلی معاویة وأشیاعه القاسطین، الذین نبذوا کتاب اللَّه وراء ظهورهم، واشتروا به ثمناً قلیلًا، فبئس ما شروا به أنفسهم لو کانوا یعلمون.

فکان جوابهم أن قالوا: یا أمیر المؤمنین نفدت نبالنا، وکلّت أذرعنا، وتقطّعت سیوفنا، ونصلت أسنّة رماحنا، فارجع بنا نحسن عدّتنا... إلّا أنّهم ما إن أقبل بهم الإمام ونزل بهم معسکر النخیلة حتّی راحوا یتسلّلون ویدخلون الکوفة حتّی ترکوا علیّاً وما معه إلّانفرٌ یسیر..

ثمّ ارتقی المنبر ثانیةً واستحثّهم واستنهضهم مرّة اخری لقتال عدوّهم معاویة، فقال بعد حمد اللَّه تعالی والثناء علیه:

۱- ۱ تاریخ الطبری ۳: ۱۲۱- ۱۲۲.

ص: ۲۷۴

أيّها الناس، استعدّوا للمسير إلى عدوّ فى جهاده القربة إلى اللّه، ودرك الوسيلة عنده، فأعدّوا ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل، وتوكّلوا على اللّه وكفى به وكيلًا.

ولم يجد فيهم العزم على ذلك، فقال لهم: عباد اللّه، ما لكم إذا أمرتكم أن تنفروا فى سبيل اللّه اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة (۱)

، وبعدما انتهى الإمام من خطبته، قام أبو أيّوب الأنصارى خطيباً فقال:

إنّ أمير المؤمنين أكرمه اللّه قد أسمع من كانت له أذُن واعية، وقلب حفيظ، إنّ اللّه قد أكرمكم به كرامة ما قبلتموها حقّ قبولها، حيث نزل بين أظهركم ابن عمّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله، وخير المسلمين وأفضلهم وسيّدهم بعده، يفقهكم فى الدين، ويدعوكم إلى جهاد المحلّين، فواللّه لكأنّكم صمٌّ لا تسمعون، وقلوبكم غلف مطبوع عليها فلا تستجيبون.

عباد اللّه، أليس إنّما عهدكم بالجور والعدوان أمس، وقد شمل العباد، وشاع فى الإسلام، فذو حقٍّ محروم، ومشتوم عرضه، ومضروب ظهره، وملطوم وجهه، وموطوء بطنه، وملقى بالعراء، فلمّا جاءكم أمير المؤمنين صدع بالحقّ، ونشر بالعدل، وعمل بالكتاب، فاشكروا نعمة اللّه عليكم، ولا تتولّوا مجرمين، ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون، اشحذوا السيوف، وجدّدوا آلة الحرب، واستعدّوا للجهاد، فإذا دُعيتم فأجيبوا، وإذا امرتم فأطيعوا، تكونوا بذلك من الصادقين (۲).

مواقف اخرى

كان هذا الصحابى مؤمناً تقياً مجاهداً واعياً يبحث عن الحقّ ويتحرّاه فى كلّ نواحى حياته، فى قوله وفعله، ويقف بقوّة مدافعاً عن الحقّ والعدل، فتراه واحداً من شيعة علىّ حينما رأى أنّ علياً مع الحقّ والحقّ مع علىّ، مبتغياً رضا اللّه تعالى الذى نذر له حياته، وفى عبادته تراه ذلك الرجل الذى إن صلّى كانت صلاته صلاة

۱- ۱ التوبة: ۳۸.

۲- ۲ الإمامة والسياسة ۱: ۱۶۹- ۱۷۳.

ص: ۲۷۵

مودّع، وإن تكلّم فلا يتكلّم بما يضطرّه للاعتذار، وإن تعامل مع إخوانه كان اليأسُ شعاره ممّا فى أيديهم، فقد كانت القناعة ديدنه وسلوكه المتميِّز، فهو بين عابد مودّع قتله الشوق لمولاه، وبين عازف إلّامن رحمة اللَّه تعالى، وبين مقاتل ملأت قلبه الرحمة حتّى على أعدائه الذين هم أعداء الدين والحقّ، فتراه يوعظهم ويناديهم بلسان عطوف قبل أن يهزّ رمحه وينتشل سيفه ليجد له موقعه فى أعداء اللَّه.

ولا ريب فى ذلك وقد راح ينتهل من معِين النبوّة الصافى، ومن صحبة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، كان يستمع لنبيّ الرحمة صلى الله عليه و آله ويعى ما يسمع، قال له: «إذا صلّيت فصلِّ صلاة مودّع، ولا تكلّمنَّ بكلام، تعتذر منه.. والزم اليأس ممّا فى أيدى الناس».

هذا فى عبادته، وأمّا فى شجاعته فقد كان شعاره- رضوان اللَّه عليه- انفروا خفافاً وثقالًا فلم يتخلّف عنه، فى بدر وأُحُد والخندق، وفى كلّ المعارك والمشاهد التى خاضها، والتى كان لها دور واضح فى معالم حياته، فقد ملأت عليه كلّ وجوده ولم تترك له وقتاً يبعد به عن الأسنّة والرماح، أو يأخذ قسطاً من الراحة بين أحبّته ولمشاغله الخاصّة.

كانت حياته رضوان اللَّه عليه همّاً متواصلًا للإسلام ولدعوته المباركة، يترفّع عن الفتن الصغيرة والمطامع الزائفة، محلّقاً بناظريه إلى حيث الهدف الأعلى الذى يُرضى اللَّه ورسوله.

لقد وهب أبو أيّوب الأنصارى حياته وماله وحشاشة قلبه للجهاد فى سبيل إعلاء كلمة الإسلام، ولا يهمّه من يكون على رأس قيادة الجيش، وشعاره (ما علىَّ مَن استعمل علىَّ)، ما دام الهدف هو الإسلام ودعوته، فكان مع مكانته العالية لا يريد أن يعيش إلّاجنديّاً تحت راية لا إله إلّااللَّه، وأن يعيش مأموماً لا إماماً؛ لهذا تراه لا يبغى عنواناً بقدر ما يأمل أن ينال الشهادة فى سبيله تعالى، وأن يرزقه اللَّه خير الدنيا وخير الآخرة، فراحت بطولاته تتجلّى فى كلّ معارك الإسلام

ص: ۲۷۶

الکبری التی خاضـها جنـدیّاً مخلصـاً وفـدائیاً متفانیاً، وحسـبه فخراً أنّه مع شـدّة تواضـعه نال حظوة تلو اخری منـذ أن آمن وحتّی اثخن بالجراح وهو مقاتل عنید تحت رایة الإسلام، وصدق من قال: ما زال أبو أیّوب شاخصاً فی سبیل اللَّه حتّی دفن بأرض الروم.

نعم، کان أبو أیّوب فی کلّ معارکه یُلقی بنفسه فی لهواتها لا یأبه بعـدّة ولا عدد، ویدافع عن کلّ من یسـیر بسـیرته هذه، ویتهالک فی الفداء واقتحام حشود أعدائه.

تقول الروایة: کنّا بمدینة الروم، فأخرجوا إلینا جمعاً عظیماً من الروم، وخرج إلیهم مثله أو أکثر، وعلی أهل مصر عقبة بن عامر صاحب رسول اللَّه صلی الله علیه و آله، فحمل رجل من المسلمین علی صفّ الروم حتّی دخل فیهم، فصاح به الناس وقالوا:

سبحان اللَّه، یُلقی بیده إلی التهلکة.

وهنا خشی أبو أیّوب من أن یسری هذا التأویل للآیة فیثبّط عزائم قومه وجند الإسلام، فقام وسط الجند وقال:

أیّها الناس إنّکم تتأوّلون هـذه الآیة علی هذا التأویل، وإنّما نزلت هذه الآیة فینا معاشـر الأنصار، إنّا لمّا أعزّ اللَّه الإسـلام وکثّر ناصـریه، قلنا بعضـنا لبعض سـرّاً من رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله: إنّ أموالنا قـد ضاعت، وإنّ اللَّه قد أعزّ الإسـلام وکثّر ناصـریه، فلو أقمنا فی أموالنـا فأصـلحنا ما ضاع منها، فأنزل اللَّه عزّوجلّ علی نبیّه صـلی الله علیه و آله یرد علینا ما قلنا أو ما هممنا به وأنفقوا فی سبیل اللَّه ولا تلقوا بأیدیکم إلی التهلکة وأحسنوا إنّ اللَّه یحبّ المحسنین (۱)

.

فکانت التهلکة الإقامة فی أموالنا وإصلاحها وترکنا الغزو.

ثمّ تقول الروایة:

وما زال أبو أیّوب شاخصاً فی سبیل اللَّه حتّی دفن بأرض الروم (۲).

فی وصیة له وهو جندی مقاتل فی أرض الروم:

اذهبوا بجثمانی بعیداً بعیداً فی أرض الروم، ثمّ ادفنونی هناک. (ما علیّ من

۱- ۱ سورة البقرة: ۱۹۵.

۲- ۲ مختصر تاریخ دمشق ۷: ۳۴۱، أسباب النزول للواحدی: ۶۰.

ص: ۲۷۷

استُعمل عليَّ) شعاره هذا.

كان هذا وهو يرى جموع المسلمين يصوّبون أنظارهم إلى حيث القسطنطينية، وراح يحدّث نفسه: إنّها الشهادة التى طالما حدّثت بها نفسى ولم اوفّق لها.. امتطى جواده، وامتشق سيفه.. وعلاه رمحه.. وراح يصول ويجول مقاتلًا عنيداً يردّد كلمة «لا إله إلّااللَّه محمّد رسول اللَّه» حتّى اثخن بالجراح.

تقدّم أحدهم نحوه وقد وجده يصارع سكرات الموت فى ساحة الوغى، لابدّ أن تكون له حاجة...

هل لك يا أبا أيّوب من حاجة؟

(اذهبوا بجثمانى بعيداً بعيداً فى أرض الروم ثمّ ادفنونى هناك).

إنّه اليقين بالفتح والنصر، وكأنّه يريد أن يقول: إنّى اريد مواصلة القتال بروحى، واريد أن أُواكب أعلام النصر الخفّاقة وصهيل خيولكم ووقع أقدامكم وصلصلة سيوفكم.. لا اريد أن أكون بعيداً عن أجواء المعركة وغبارها. ولا أريد أن تثننى الجراح عن خوض غمارها حتّى النصر...

فى وسط تلك المدينة (القسطنطينية) استنبول فى تركيا اليوم، مدينة الألف مسجد المليئة بالأذان الذى يشقّ أُذنى أبى أيّوب فى كلّ حين.. وهو يردّد:

هذا ما وعدنا اللَّه ورسوله وصدق اللَّه ورسوله.

رقد جثمان ذلك الفارس العنيد الذى كانت الشهادة امنيته منذ أوّل لحظة التقى بها برسول الرحمة، فكان مضيّفه فى الدنيا؛ لينزل عند رسول اللَّه فى الدار الآخرة ضيفاً عزيزاً كريماً، كما نزل عنده رسول اللَّه ضيفاً عظيماً..

وظلّ هذا الجثمان وهذا المرقد مزاراً حتّى للروم أنفسهم، الذين راحوا يتعاهدون قبره ويرمّمونه ويزورونه ويستسقون به إذا قحِطوا..

كانت وفاته رضوان اللَّه عليه بالقسطنطينية سنة خمس وخمسين، وقيل: فى سنة اثنتين وخمسين، وقيل: سنة خمسين، تقول الرواية: لم يزل أبو أيّوب مجاهداً فى

ص: ۲۷۸

سبیل اللَّه حتّی دُفن بالقسطنطینیة.

ولمّا توفی دفن مع سور المدینة وبُنی علیه، فلمّا أصبحوا أشرف علیهم الروم فقالوا: یا معشر العرب، قد کان لکم اللیلة شأن.

فقالوا: مات رجل من أکابر أصحاب نبیّنا صلی الله علیه و آله... وقد أوصی بهذا؛ لئلّا یکون أحد من المجاهدین ومن مات فی سبیل اللَّه أقرب إلیکم منه.

ولمّا عرف الروم مکانة هذا المجاهد تعهّدوا قبره وبنوا علیه قبّة بیضاء، وأسرجوا علیه قندیلًا، وإذا أمحلوا کشفوا عن قبره فأُمطروا (۱).

وکانت وصیّته الأخیرة رضوان اللَّه علیه:

إذا متُّ فاحملونی، فإذا صاففتم العدوّ، فادفنونی عند أقدامکم...

وساحدّثکم حدیثاً سمعته من رسول اللَّه صلی الله علیه و آله لولا حالی هذه ما حدّثتکموه، سمعتُ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله یقول:

«من مات لا یشرک باللَّه شیئاً دخل الجنّة».

الهوامش:

۱- ۱ انظر مختصر تاریخ دمشق ۷: ۳۴۲- ۳۴۳.

ص: ۲۷۹

ص: ۲۸۰

معجم ما کتب فی الحجّ و الزیارة (۱۰)

معجم ما کتب فی الحجّ و الزیارة (۱۰)

معجم ما کتب فی الحجّ و الزیارة (۱۰)

۱۶۱۷- فائدة عن جبال الحجاز ومنبسط أراضیه

محمّد نصیف

المنهل (جدّة) مج ۶: ج ۹ (۹/ ۱۳۶۵ ه/ ۸/ ۱۹۴۶ م) ص ۴۲۷

۱۶۱۸- فتاوی الحجّ والعمرة

محمّد بن صالح بن عثیمین

مکّة المکرّمة: دار ابن القیم، ط ۲، ۱۹۹۰ م، ۸۳ ص، ۲۴ سم

۱۶۱۹- الفتح المبین فی جواز الدعاء وإهداء ثواب الأعمال لسیّد المرسلین

محمّد بن حسن بن همان الدمشقی الحنفی ت ۱۱۷۵ ه

ظ

إیضاح المکنون ۲/ ۱۷۱

۱۶۲۰- فتح المسالک فی إیضاح المناسک

محمّد أمین بن فتح اللَّه الکردی الأربلی

القاهرة: د ت.

۱۶۲۱- فتح مکّة

خ: الجامع الکبیر بصنعاء برقم ۲۱۶۷ فی ۲۹۱ ورقة

۱۶۲۲- فتح مکّة

أحمد بن عبداللَّه بن محمّد البکری

ص: ٢٨١

القاهرة: ١٢٧٨ ه/ ١٨٦١ م.

ظ:

مصادر التراث العسکری عند العرب

٣/ ١٦٧

١۶٢٣- فتح مکّة

حسین أمین

البلاغ (بغداد): ع (١٢/ ١٩۶٧ م)

ص ٩٢- ٩۴

١۶٢۴- فتح مکّة (بالفارسیة)

خلیل بن أبو طالب صمیری کمره‌ای

طهران: محمّد رضا تناوش،

٧۴ ص، ١٢* ١٨ سم

قم: ٧٢ ص

١۶٢۵- فتح مکّة

سمیر عبد الرزاق قطب

بیروت: دار التوفیق (السلسلة الإسلامیة)

١۶٢۶- فتح مکّة

(مسرحیة)

عبد الجبّار شوکة البخار

بغداد: المطبعة العربیة، ١٩۵۴ م

١۶٢٧- فتح مکّة

عبد الحمید جودة السحّار

منبر الإسلام. س ٢۴: ع ٣ (١٩۶۶ م)

ص ٢٧۴- ٢٧٩

١۶٢٨- فتح مکّة

عبد السلام محمود الشافعی

بیروت: المکتبة العصریة، د. ت، ٩۴ ص

١۶٢٩- فتح مکّة

(قصیدة)

عبد الغنی أحمد ناجی

منبر الإسلام س ۴٩: ع ٩ (رمضان ١۴١١ ه مارس ١٩٩١ م)

ص ۴۴

١٦٣٠- فتح مكّة

عبد المنعم شميس

القاهرة: الدار القومية، ١٩٦٢ م،

٦٢ ص، ٢٠ سم

١٦٣١- فتح مكّة

عبد الوهاب آشى

المنهل (جدّة) مج ١٥: ج ٩ (١١/ ١٣٧٤ ه/

ص: ۲۸۲

۶- ۷/ ۱۹۵۵ م) ص ۳۶۰- ۳۶۱

۱۶۳۲- فتح مکّة

علی شعیب

المعارج (بیروت) مج ۱: ع ۳، ۴ (۸/ ۹/ ۱۴۱۱ ه- ۳، ۴/ ۱۹۹۱ م)

ص ۱۹۹- ۲۰۳

۱۶۳۳- فتح مکّة

محمّد أحمد باشمیل

بیروت: دار الفکر، ۱۹۷۲ م،

۳۹۸ ص (من معارک الإسلام الکبری، ۸)

۱۶۳۴- فتح مکّة

محمّد محمّد حسین.

۱۶۳۵- فتح مکّة: دراسة حدیثیة

محسن أحمد الدوم

المدینة المنوّرة: الجامعة الإسلامیة،

۱۴۰۰ ه (رسالة ماجستیر).

عالم الکتب (الریاض) مج ۲: ع ۲

(۸/ ۱۹۸۱ م)، ص ۲۴۰

۱۶۳۶- فتح مکّة

شوقی أبو خلیل

دمشق: دار الفکر، ط ۱، ۱۹۸۳ م، ۱۶۸ ص.

۱۶۳۷- فتح مکّة: نبردهای بزرگ مسلمانان

(بالفارسیة)

حسن باهنری

پیام انقلاب س ۱۴: ع ۳۱۵ (۱۵ دی ۱۳۷۲ ش)

ص ۲۸- ۳۱

۱۶۳۸- فتح مکّة وأثره فی حیاة الرسول صلی الله علیه و آله

صفاء الدین محمّد محمّد

الفیصل س ۱۴: ع ۱۵۹ (۴/ ۱۹۹۰) ص ۴۷- ۵۰

۱۶۳۹- فتح مکّة والعوامل التی ساعدت علیه

أحمد شلبی

القاهرة: مکتبة النهضة المصریة،

۱۹۸۱ م، ۴۴ ص.

۱۶۴۰- فتح مكّة ومكارم الأخلاق

رؤوف شلبى

الأزهر س ۶۱: ع ۹ (۴/ ۱۹۸۹)

ص ۹۹۲- ۹۹۷، ع ۱۰ (۵/ ۱۹۸۹)

ص ۱۱۰۴- ۱۱۰۹

ص: ۲۸۳

۱۶۴۱- فقرة مجهولة فی تاریخ طیبة الطیّبة

حمد الجاسر

مجموعة مقالات متسلسلة فی المجلّة العربیة ۱۴۱۵- ۱۴۱۶ ه

۱۶۴۲- فتنهٔ قرامطه در مکّه

(بالفارسیة)

یعقوب جعفری

میقات حج س ۲: ع ۵ (بائیز ۱۳۷۲ ش)

ص ۷۱- ۸۷.

۱۶۴۳- فتوح الحرمین

عبداللّه بن الحسین الأزرنجانی الرومی.

خ:

خزانة آیاصوفیة بجزأین

ظ:

المنهل (جدّة) س ۵۶: ع ۴۷۵ (۳- ۴/ ۱۴۱۰ ه/ ۱۰- ۱۱/ ۱۹۸۹ م) ص ۲۰۶

۱۶۴۴- فتوح الحرمین

(منظوم، موضوع، بالفارسیة)

محمّد یوسف حسینی بلگرامی

ظ:

مرآت العلوم ۳/ ۹۳،

فهرستواره فنروی ۱/ ۱۴۵

۱۶۴۵- فتوح الحرمین

(رحلة منظومة)

محیی لاری (ق ۱۰ ه)

قم: ۱۳۷۳

۱۶۴۶- فتوی بجواز الإحرام من جدّة لمن یحجّ بطریق الجوّ

عبداللّه کنون

الرسالة الإسلامیة (بغداد) ع ۱۱۹- ۱۲۰

(۱۳۹۸ ه) ص ۸۸- ۹۱

۱۶۴۷- الفتوحات الکوازیة فی السیاحة إلی الأراضی الحجازیّة

عبداللّه باش أعیان

العراق: ۱۸۰۹ م.

۱۶۴۸- فذلکة المناسک

(بالفارسية)

كريم خان الكرمانى

خ: ميرزا محمود كلباسى.

١۶۴٩- فرحة الزائر وبهجة الخواطر

أحمد بن أبى القاسم على بن طاووس

ص: ٢٨۴

ظ:

الذريعة ١۶/ ١۵٨، معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت صلوات اللَّه عليهم ١٠/ ٢٣

١۶۵٠- فرحة العيد وسنة الأضحية

محمّد صابر البريسى

الأزهر (القاهرة) س ۶٠: ع ١٢ (٧/ ١٩٨٨ م)

ص ١۵۶۵- ١۵٨٨.

١۶۵١- فرهنگ آثار تاريخى مكه

(بالفارسية)

عاتق بن غيث بلادى، وحسن إسلامى

ميقات حج: ع ١٣ (پائيز ١٣٧۴ ش)

ص ١۵٠- ١۶٠.

ع ١۵ (بهار ١٣٧۵ ش، ص ٩١- ١١٠.

١۶۵٢- فرهنگ دانستنى هاى پيش از سفرخانه خدا

(بالفارسية)

مهدى ملتجى

طهران: أشرفى، ١٣۶٣ ش، ٣٢٧ ص.

١۶۵٣- فرهنگ نامه حج وعمره

(بالفارسية)

طهران: كوكب.

١۶۵۴- فرهنگ نامه حج وعمره واماكن مربوطه

(بالفارسية)

مهريزى

قم: در راه حق، ط ٢،

١٣۶٧ ش، ۴۶۴ ص، ٢١ سم.

١۶۵۵- فريد عقد اللآل فى التوسل بالنبى والآل

محمود قبادو التونسى ت ١٢٨٨ ه

تونس: ١٢٨٨ ه، ١٧ ص.

١۶۵۶- فريضة الحج

عبد الرزاق نوفل

بيروت: دار الكتاب العربى.

١۶۵٧- فريضه حج: نسخه الهى

(بالفارسية)

إبراهيم وحيدى

طهران: انتشارات حرفه اول، ۱۳۷۱ ش، ۶۰ ص

۱۶۵۸- فصل من الرحلة الحجازية

محمّد السنوسى

ص: ۲۸۵

حولیات الجامعة التونسیة: ع ۷ (۱۹۷۰ م)

ص ۷۹- ۱۱۱ (علی الشنوفی).

۱۶۵۹- فصول من تاریخ المدینة المنوّرة

علی عبد القادر حافظ

ت ۱۴۰۸ ه

المدینة المنوّرة: ۱۳۸۸ ه.

جدّة: شرکةالمدینة للطباعة والنشر، ط ۲، ۱۴۰۵ ه، ۴۰۸ ص، ۲۴ سم.

۱۶۶۰- الفصول المهمّة فی مشروعیة زیارة النبیّ صلی الله علیه و آله والأئمّة

مهدی صحین بن علی الساعدی،

فرغ منه سنة ۱۳۵۶ ه

ظ:

الذریعة ۱۶/ ۲۴۶.

۱۶۶۱- فضائل الأنصار

أبو البختری بن وهب ت ۲۰۰ ه

ظ:

فهرست الندیم ۱۱۳، العرب.

س ۳۱: ج ۷، ۸ (۱، ۲/ ۱۴۱۷ ه/ ۶، ۷/ ۱۹۹۶ م) ص ۴۵۳.

۱۶۶۲- فضائل بنی هاشم

علی بن معروف البزاز

۳ أجزاء

ظ: صلة الخلف بموصول السلف

.۳۱۵

۱۶۶۳- فضائل تمر المدینة وترابها

جمال الدین بن حمزة العمری

ظ: المدینة المنوّرة فی التاریخ ۲۰۹،

العرب. س ۳۱: ج ۸۲۷ (۱، ۲/ ۱۴۱۷ ه

۶، ۷/ ۱۹۹۶ م) ص ۴۵۴.

۱۶۶۴- کتاب فضائل الحج

عبیداللَّه بن أحمد بن نهیک النخعی

رجال النجاشی ظ: ۲۳۲، الذریعة ۱۶/ ۲۵۷.

۱۶۶۵- کتاب فضائل الحجّ

محمّد بن أبی عُمیر الأزدی ت ۲۱۷ ه

ظ: رجال النجاشی ۳۲۷.

۱۶۶۶- کتاب فضائل الحجّ

معاویة بن وهب البجلی

ظ: رجال النجاشی ۴۱۲،

الذریعة ۱۶/ ۲۵۷.

ص: ٢٨۶

١۶۶٧- فضائل الحرمين الشريفين

محمّد بن عبد السلام بنانى ت ١١۶٣ ه

ظ: فهرس الفهارس والإثبات ٢٢٥.

١۶۶٨- فضائل قريش

قاسم بن أصبغ الأندلسى ت ٣٣٠ ه

ظ: معجم ما ألّف عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله ۴٧.

١۶۶٩- فضائل قريش والأنصار

محمّد بن إدريس الشافعى

ظ: معجم الادباء ١٧/ ٣٢۶.

١۶٧٠- فضائل المدينة

ابن الجوزى ت ۵٩٧ ه

ظ: العرب، س ٣١: ج ٨٢٧ (١، ٢/ ١۴١٧ ه/ ۶، ٧/ ١٩٩۶ م) ص ۴۵۴.

١۶٧١- فضائل المدينة

أحمد بن محمّد القشتاشى

خ: الخزانة الملكية بالرباط برقم ١٢٢۴.

ظ: معجم ما ألّف عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله ٩۶.

١۶٧٢- فضائل المدينة

القاسم بن على بن عساكر ت ۶٠٠ ه

ظ: طبقات الشافعيّة للسبكى ٨/ ٣۵٢،

معجم ما ألّف عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله ٩۶.

١۶٧٣- فضائل المدينة

المفضل بن محمّد بن إبراهيم الجندى اليمنى المكّى ت ٣٠٨ ه.

تحقيق: محمّد مطيع الحافظ، وغزوة بدير

دمشق: دار الفكر، ١٩٨۵ م،

٧٢ ص.

دمشق: دار الفكر، ١٩٨٧ م، ٧٢ ص.

ميقات حج. س ٢: ع ۵ (پائيز ١٣٧٢ ش) ص ١۴٩- ١۶٨

(أصغر قائدان).

١۶٧۴- فضائل المدينة المنوّرة

خليل إبراهيم

جدّة: دار القبلة للثقافة

الإسلامية- بيروت:

ص: ۲۸۷

مؤسسة علوم القرآن، ۱۴۱۳ ه، ۳ مج.

۱۶۷۵- فضائل المدينة المنوّرة

محمّد بن يوسف الصالحى الشامى

حقّقه: محيى الدين مستو

دمشق: دار الكلم الطيّب، ۱۹۹۰، ۱۶۰ ص.

۱۶۷۶- فضائل مكّة

(ترجمة فارسية لرسالة الحسن البصرى)

خ: سپهسالار برقم ۷۵۲۲.

ظ: الذريعة ۱۶/ ۲۶۴،

فهرس مشترك باكستان ۱۰/ ۴۳.

۱۶۷۷- فضائل مكّة

أبو بكر عبداللَّه بن الزبير القرشى الحميدى، صاحب‌الشافعى ت ۲۱۹ ه

ظ: المنهل (جدّة) مج ۵۱: ع ۴۷۵ (۳- ۴/ ۱۴۱۰ ه)

ص ۱۹۴.

۱۶۷۸- فضائل مكّة

عبد الغنى عبد الواحد المقدسى (ابن سرور)

ظ: المنهل (جدّة) س ۵۶: ع ۴۷۵ (۳- ۴/ ۱۴۱۰ ه/ ۱۰- ۱۱/ ۱۹۸۹ م) ص ۲۰۶

۱۶۷۹- فضائل مكّة

محمّد بن على بن علان المكّى

الصديقى (ت ۱۰۵۷)

ظ: المنهل (جدّة) س ۵۶: ع ۴۷۵ (۳- ۴/ ۱۴۱۰ ه/ ۱۰- ۱۱/ ۱۹۸۹ م) ص ۲۰۶.

۱۶۸۰- فضائل مكّة

ابن اللباد محمّد بن محمّد بن وشاح اللخمى ولاء

(۲۵۰- ۳۳۳ ه)

ظ: تراجم المؤلّفين التونسيّين ۴/ ۲۰۰.

۱۶۸۱- فضائل مكّة

المفضّل بن محمّد بن إبراهيم الجندى الشعبى ت ۳۰۸ ه

ظ: صلة الخلف بموصول السلف ۳۲۰،

تاريخ التراث العربى لسزكين مج ۱:

ج ۲/ ۲۰۸،

معجم ماألّف عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ۱۹.

۱۶۸۲- فضائل مكّة على سائر البقاع

ص: ٢٨٨

أحمد بن سهل البلخى

ظ: معجم الادباء ٣/ ۶٧.

١۶٨٣- فضائل مكّه معظمهٔ

(ترجمهٔ فارسيهٔ لرسالهٔ فضائل مكّهٔ المعظّمهٔ لحسن البصرى)

باهتمام:

على صدرايى خويى

ميقات حج. س ۴: ع ١٢

(تابستان ١٣٧۴ ش)

ص ٢٧- ۴١.

١۶٨۴- فضل مكّهٔ وحرمهٔ البيت الحرام

عاتق بن غيث البلادى

مكّهٔ المكرّمهٔ: دار مكّهٔ، ١٩٨٩ م،

٢۵۴ ص.

مكّهٔ المكرّمهٔ: دار مكّهٔ، ١٩٩٣ م،

٢۵۴ ص، ٢١ سم.

١۶٨۵- فضائل مكّهٔ والسكن فيها

الحسين البصرى ت ١٠٠ ه

الكويت: ١٩٨٠ م، (بعنايهٔ: سامى مكّى العانى).

١۶٨۶- فضائل مكّهٔ والمدينهٔ

مجهول المؤلّف

خ: أياصوفيا برقم ٣٠٩٠، ۴٠۴ ص، ٨٣۶ ه.

ظ: رحلات لحمد الجاسر ١۴٨،

العرب. س ٣١: ج ٨٢٧ (١، ٢/ ١۴١٧ ه) ص ۴۵۵.

١۶٨٧- فضائل مكّهٔ والمدينهٔ

أحمد بن محمّد المكّى الهاشمى

الحضراوى (١٢۵٢- ١٣٢٧ ه)

ظ: فهرس الفهارس والاثبات ٣۴٨.

١۶٨٨- فضائل مكّهٔ والمدينهٔ

بلدر زاده محمّد بن مصطفى القاضى

(ت ١٠۶٠ ه)

ظ: المنهل (جدّهٔ) س ۵۶: ع ۴٧۵ (٣- ۴/ ١۴١٠ ه/ ١٠- ١١/ ١٩٨٩ م) ص ٢٠۶.

١۶٨٩- فضايل الحرمين

(بالفارسية)

مجهول المؤلِّف

ظ: ازبكستان، طاشقند ۶/ ٧٧،

فهرستواره منزوى ١/ ٢۴٠.

١۶٩٠- فضل الصلاة على النبى

أبو الحسين أحمد بن فارس الزاهد

ص: ٢٨٩

ظ: صلة الخلف بموصول السلف

.٣١٧

١٦٩١- فضل الصلاة على النبى

إسماعيل بن إسحاق

ظ: صلة الخلف بموصول السلف

.٣١٧

١٦٩٢- فضل الصلاة على النبى وبيان معناها وكيفيّتها وشىء ممّا ألّف فيها، وعقيدة أهل السنّة والجماعة فى الصحابة الكرام

عبد المحسن بن حمد العباد

المدينة المنوّرة: الجامعة الإسلامية، ط ۴، ١۴١٠ ه، ٣٧ ص.

١٦٩٣- فضل الليالى العشر

(لماذا استحقّت الليالى العشر من ذى الحجّة الفضل والتشريف؟)

أحمد عبد التوّاب

منارالإسلام (أبوظبى) س ٢٠: ع ١٢

(١٢/ ١۴١۵ ه- ۵/ ١٩٩۵ م)

ص ١۶- ١٩.

١٦٩۴- فضل المدينة على مكّة

محمّد بن عبداللّه بن محمّد بن صالح الأبهرى

(٢٨٧- ٣٧۵ ه).

ظ: الفهرست لابن النديم ٢۵٣.

١٦٩۵- فضل مكّة

على بن الحسن بن عساكر الدمشقى (۴٩٩- ۵٧١ ه)

ظ: مقدّمة المجلّد الأوّل من تاريخ ابن عساكر ١/ ٢٨،

معجم الأدباء ١٣/ ٨٢.

١٦٩۶- فضل مكّة المكرّمة

عبداللّه دهيش

المنهل (جدّة) مج ٢٠: ج ١٠ (١٢/ ١٣٧٩ ه/

۵- ۶/ ٢١٩۶٠) ص ۶٩٢- ۶٩۵.

١٦٩٧- فقه الحج الاستدلالى المقارن

محسن الأراكى

ميقات الحج ع ١ (١۴١۵ ه) ص ١٠٨- ١٣۴.

١٦٩٨- فقه الحجّ وحكمة مشروعيّته

سيّد فاضل

المجاهد (القاهرة) س ٩: ع ٩١ (٧/ ١٩٨٨ م)

ص ٧- ١٢.

ص: ٢٩٠

١۶٩٩- فقه السنّة (فى فقه الحجّ وأدعيته)

سيّد سابق

القاهرة: دار الكتاب العربى،

ط ١، ١٣٧۴ ه.

١٧٠٠- فقه الصلوات والمدائح النبوية:

بحث جديد فى فقه الصلوات على الرسول

محمّد زكى إبراهيم

القاهرة: العشيرة المحمّدية، ط ٢،

١٩٨۵، ۶۶ ص.

١٧٠١- فقه العبادات: الحجّ

حسن أيّوب

بيروت: دار الندوة الجديدة،

١٩٨۶ م، ٢۶٣ ص.

١٧٠٢- فقه النساء فى الحجّ

محمّد عطية خميس

بيروت: دار القلم، ١٩۶٠ م، ١۶٠ ص.

بيروت: دارالقلم، ١٩٨٠، ١۶٠ ص.

١٧٠٣- فلسفه برائت از مشركين

(بالفارسية)

محمّد محمّدى رى شهرى

ميقات حج س ٢: ع ۴ (تابستان ١٣٧٢ ش) ص ٣٩- ۴۴.

١٧٠۴- فلسفة الحجّ وأسرار مناسكه

عباس على عميد الزنجانى

ميقات الحج. س ۴: ع ٧

(١۴١٨ ه) ص ١١- ۴٨.

١٧٠۵- فلسفة الحج وأسراره

أحمد عبد القادر المعبى

المنهل (جدّة) مج ۵٣: ع ۴٩۶

(١٢/ ١۴١٢ ه) ص ١۴- ١۶.

١٧٠۶- فلسفة الحجّ ومصالحه فى الإسلام

محمّد الصدر

النجف: مط الآداب، ١٩٧٠ م، ٨٧ ص.

١٧٠٧- فلسفه حج

(بالفارسيهٔ)

محمّد جواد الموسوى الغروى

مكتبهٔ اقبال، ط ٢، ١٣۶١ ش، ۴۴٨ ص، ٢۴ سم.

١٧٠٨- فلسفه حج در اسلام

(بالفارسيهٔ)

ص: ٢٩١

محمّد على العاملى الدزفولى

طهران: ١٣٥١ ش، ٢٣٢ ص.

١٧٠٩- فلسفه واسرار حج

(بالفارسية)

محمّد إمامى خوانسارى

طهران: ١٣٩٣ ه، ١٩٨ ص.

١٧١٠- فلسفه حج واسرار مناسك آن

(بالفارسية)

عباس على عميد زنجانى

طهران: وزارة الإرشاد الإسلامى، ط ١، ١٣٦٣ ش.

١٧١١- فلسفه واسرار حج به ضميمه مختصرى از مناسك حج

(بالفارسية)

محمّد تقى الحكيم

طهران: نشر فرهنگ اسلامى، ط ۵، ١٣٦١ ش.

١٧١٢- فلسفه واسرار حج همراه با مناسك حج علامه حلى

(بالفارسية)

ترجمة: أبو القاسم سحاب

كتاب سحاب، ط ۴، ١٣٦۶ ش، ٢١۶ ص، رحلى.

١٧١٣- فلسفه واسرار حج يا ارمغان مكه

(بالفارسية)

عبد الغفور ذوقى

طهران: ١٣٥٠ ش، ٣۵۵ ص،

٢١ سم.

١٧١۴- فن العمارة الإسلامية فى الحرمين الشريفين

محمّد مصطفى صبرة

الدارة س ٧: ع ۴ (مايو ١٩٨٢ م)

ص ٨٩- ٩۶.

١٧١۵- الفوائح المسكية والفتواح المكّية

عبد الرحمن بن محمّد البسطامى

ت ٨۵٨ ه

خ: مكتبة الحرم المكّى،

برقم ١٢٢.

١٧١۶- فوائد الحج وحكمه

ياسين تركى

الرسالة الإسلامية (بغداد) ع ١١٩- ١٢٠

(١٣٩٨ ه) ص ٣۶- ٣٩.

ص: ۲۹۲

۱۷۱۷- فی التذوّق الجمالی لهمزیة حسّان بن ثابت حول فتح مکّة

محمّد علی أبو حمدة

عمّان (الأردن): مکتبة الرسالة، ۱۹۸۸ م، ۶۹ ص، ۱۷ سم.

۱۷۱۸- فی الحج: دلالات الألفاظ وحکمة التشریع

معوض عوض إبراهیم

الهدایة (البحرین) س ۱۲: ع ۱۴۲ (۷/ ۱۹۸۹ م)

ص ۸۹- ۹۱.

۱۷۱۹- فی الحج ریاضة سامیة للروح والجسد

عبد القدوس الأنصاری

المنهل (جدّة) مج ۳۱: ج ۱۱ (۱۲/ ۱۳۹۰ ه/

۲/ ۱۹۷۰ م) ص ۱۳۸۵- ۱۳۸۶

۱۷۲۰- فی خدمة ضیوف الرحمن

وزارة الاعلام، الشؤون الإعلامیة، الإعلام الداخلی

مکّة المکرّمة: دار الموسوعة

العربیة للنشر والتوزیع، ۱۴۱۱ ه،

۱۷۶ ص، ۲۴ سم.

۱۷۲۱- فی الذکری الثانیة لانتهاک حرمة البیت الآمن

علی الخامنئی

التوحید (طهران) س ۷: ع ۴۲ (۹/ ۱۹۸۹)

ص ۱۰۸- ۱۲۸.

۱۷۲۲- فی رحاب بیت اللَّه

(قصیدة)

عمر بن الفارض

المنهل (جدّة) مج ۵۱: ع ۴۷۵ (۳- ۴/ ۱۴۱۰ ه)

ص ۲۲- ۲۴.

۱۷۲۳- فی رحاب البیت الحرام

محمّد بن علوی بن عباس المالکی

[السعودیة]: دار القبلة، ۱۴۰۵ ه، ۲۷۵ ص.

۱۷۲۴- فی رحاب البیت العتیق

الرایة (مکّة المکرّمة)

س ۲۶: ع ۲۸۱

(۷/ ۱۹۸۸ م) ص ۲۹- ۳۰

١٧٢٥- فی رحاب الحرمين

إدريس بن عبد الهادی

العلوی الشاكری ت ١٣٣١ ه

ص: ۲۹۳

العرب. س ۱۴: ع ۷- ۸

(۱، ۲/ ۱۴۰۰ ه/ ۱۲، ۱/ ۱۹۸۰ م)

ص ۵۲۱- ۵۲۳ (حمد الجاسر)

۱۷۲۶- فی رحاب الحرمین

محمّد بن محمّد التامراوی ت ۱۲۸۵ ه

العرب. س ۱۳: ع ۹- ۱۰ (۳، ۴/ ۱۳۹۹ ه/ ۳، ۴/ ۱۹۷۹ م)

ص ۶۶۵- ۶۷۰ (حمد الجاسر).

۱۷۲۷- فی رحاب الحرمین: رحلات القطبی من مکّة إلی المدینة

محمّد بن أحمد النهروالی

ت ۹۹۰ه.

العرب. س ۱۶: ع ۷- ۸

(۱، ۲/ ۱۴۰۲ ه/ ۱۱، ۱۲/ ۱۹۸۱ م)

ص ۵۰۲- ۵۵۲ (حمد الجاسر).

۱۷۲۸- فی رحاب الحرمین من خلال کتب الرحلات

إلی الحجّ

أحمد بن محمّد الدرعی

تلخیص وتحقیق: حمد الجاسر

العرب س ۱۲: ج ۵، ۶ (۱۱- ۱۲/ ۱۹۷۷ م)

ص ۴۱۹- ۴۷۲.

۱۷۲۹- فی رحاب الحرمین من خلال کتب الرحلات إلی الحجّ

أحمد بن محمّد الهشتوکی

ت ۱۱۲۷ ه

العرب. س ۱۳: ع ۱- ۲ (۷، ۸

/ ۱۳۹۸ ه/ ۷، ۸/ ۱۹۷۸ م)

ص ۴۸- ۶۱ (حمد الجاسر).

۱۷۳۰- فی رحاب الحرمین من خلال کتب الرحلات إلی الحج

إسماعیل بن موسی الحامدی ت ۱۳۱۶ ه

العرب س ۱۳: ج ۵، ۶ (۱۱- ۱۲/ ۱۹۷۸ م)

ص ۳۵۲- ۳۶۸

(تحقیق وتلخیص: حمد الجاسر).

۱۷۳۱- فی رحاب الحرمین من خلال کتب الرحلات إلی الحج

بدر الدین تابع آل الصدیق

العرب. س ١٢: ع ١١- ١٢

(٥، ۶/ ١٣٩٨ ه/ ۵/ ١٩٧٨ م)

ص ٨٣٧- ٨٥٠

(حمد الجاسر).

ص: ٢٩۴

١٧٣٢- فى رحاب الحرمين من خلال كتب الرحلات إلى الحج

حمد الجاسر

العرب. س ٩: ع ۵- ۶ (١١، ١٢/ ١٣٩۴ ه/ ١٢، ١/ ١٩٧۴ م)

ص ٣٢١- ٣٣۶.

١٧٣٣- فى رحاب الحرمين من خلال كتب الرحلات إلى الحج

خالد بن عيسى البلوى

ت نحو ٧۶۵ ه

العرب. س ١١، ع ٩- ١٠ (٣، ۴/ ١٣٩٧ ه/ ٣، ۴/ ١٩٧٧ م)

ص ٧٢٨- ٧۵٣ (حمد الجاسر).

١٧٣۴- فى رحاب الحرمين من خلال كتب الرحلات إلى الحج

عبداللَّه بن محمّد العياشى

ت ١٠٩٠ ه.

العرب. س ١٢: ع ١- ٢ (٧، ٨/ ١٣٩٧ ه/ ۶، ٨/ ١٩٧٧ م)

ص ۶۵- ١١۵

ع ٣- ۴ (٩، ١٠/ ١٣٩٧ ه/

٩، ١٠/ ١٩٧٧ م) ص ٢١٠- ٢٨١

(حمد الجاسر).

١٧٣۵- فى رحاب الحرمين من خلال كتب الرحلات إلى الحج

عبد المجيد بن على الزبادى المنالى ت ١١۶٣ ه.

العرب س ١٢: ج ٧، ٨ (١- ٢/ ١٩٧٨ م)

ص ۵٢۶- ۵۶٠ (تلخيص وتحقيق:

حمد الجاسر).

١٧٣۶- فى رحاب الحرمين من خلال كتب الرحلات إلى الحج

محمّد بن الطيب بن كيران المغربى ت ١٣١۴ ه

العرب س ١٣: ج ٧، ٨ (١- ٢/ ١٩٧٩ م)

ص ۵٠۴- ۵١۵ (حمد الجاسر).

١٧٣٧- فى رحاب الحرمين من خلال كتب الرحلات إلى الحج

محمّد بن عبد السلام ت ١٢٣٩ ه

العرب. س ٩: ع ٧- ٨ (١، ٢/

١٣٩۵ ه/ ٢، ٣/ ١٩٧۵ م) ص ۴٨۶- ۴٩۶.

ع ٩- ١٠ (٣، ۴/ ١٣٩۵ ه/ ۴، ۵

/ ١٩٧۵ م) ص ۶۵٢- ۶۶٣.

ص: ۲۹۵

ع ۱۱- ۱۱ (۵، ۶/ ۱۳۹۵ ه/ ۶، ۷/ ۱۹۷۵ م) ص ۸۳۶- ۸۴۷.

س ۱۰: ع ۱- ۲ (۷، ۸/ ۱۳۹۵ ه

/ ۸، ۹/ ۱۹۷۵ م) ص ۴۴- ۷۰.

ع ۳، ۴ (۹، ۱۰/ ۱۳۹۵ ه/ ۱۰- ۱۱/ ۱۹۷۵ م) ص ۱۷۳- ۱۹۵.

س ۱۱: ع ۱- ۲ (۷- ۸/ ۱۹۷۶ م) ص ۴۰- ۵۳.

ع ۳- ۴ (۹- ۱۰/ ۱۹۷۶ م) ص ۱۶۸- ۱۸۶.

ع ۵- ۶ (۱۱، ۱۲/ ۱۹۷۶ م) ص ۴۱۳- ۲۲۴ (حمد الجاسر).

۱۷۳۸- فى رحاب الحرمين من خلال كتب الرحلات إلى الحج

محمّد بن عثمان السنوسى ت ۱۳۱۸ ه

العرب. س ۱۳: ع ۳- ۴ (۹، ۱۰/

۱۳۹۸ ه/ ۹، ۱۰/ ۱۹۷۸ م)

ص ۲۵۰- ۳۰۶ (حمد الجاسر).

۱۷۳۹- فى رحاب الحرمين من خلال كتب الرحلات إلى الحج

محمّد بن محمّد العبدرى ت نحو ۷۰۰ ه

العرب س ۱۰: ج ۹، ۱۰ (۳- ۴/ ۱۹۷۷ م)

ص ۷۱۵- ۷۴۵ (حمد الجاسر)

۱۷۴۰- فى رحاب الصلوات على خير الأنام

إعداد وشرح: محمّد محيى الدين الحسينى

القاهرة: ۱۹۸۶ م، ۶۲ ص.

۱۷۴۱- فى زحمة الحج

إبراهيم هاشم فلالى

المنهل (جدّة) مج ۴: ج ۶ (۵/ ۱۳۵۹ ه/

۶/ ۱۹۴۰ م)

ص ۵- ۹.

۱۷۴۲- فى ضيافة رب البيت والحرم

عبداللّه الشيخلى

الرسالة الإسلامية (بغداد)

ع ۴۵ (۱۳۹۱ ه) ص ۳- ۴.

۱۷۴۳- فى غار حراء

إبراهيم أمين فودة

المنهل (جدّة) مج ۱۵: ج ۷- ۸ (۷- ۸/ ۱۳۷۴ ه/ ۳- ۴/ ۱۹۵۵ م)

ص ۳۴۰- ۳۴۱.

ص: ٢٩٦

١٧٤٤- فى قلب نجد والحجاز

محمّد شفيق مصطفى

٦٧ ص.

١٧٤٥- فى كتابه الإعلام بأعلام البيت الحرام

القطبى

المنهل (جدّة) مج ١٢: ج ٦- ٧ (٦- ٧/ ١٣٧١ ه/

٣- ٤/ ١٩٥٢ م) ص ٢١٢- ٢١٦.

١٧٤٦- فى الكعبة

سيّد محمود الأبوز

القاهرة: ط ١، ١٩٨٥ م،

٦٨ ص.

١٧٤٧- الفيض العام والنعيم التام من فوائد زيارة بيت اللّه الحرام وأداء حجّة الإسلام

محمّد بن على بن أشرف الطالقانى

ظ: الذريعة ١٦/ ٤٠٧.

١٧٤٨- فى المملكة الروحية للعالم

الإسلامى (رحلة إلى الحجاز

سنة ١٩٣٠- ١٩٣١ م)

مصطفى محمّد

المدينة المنوّرة: ٢٣٠ ص.

١٧٤٩- فى منزل الوحى:

حج در آينه سفرنامه ها نوشته محمّد حسين هيكل (بالفارسيه)

ترجمة: حسن إسلامى

ميقات حج س ٣: ع ٩ (پاييز ١٣٧٣ ش)،

ص ٢١٢- ٢٢٤

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلاّمة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَعَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّة" للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثَّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشَّباب و عموم الناس إلی التَّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد - و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم - مِن جهةٍ اُخرَی.

- من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَة

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع"مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائی/"بنایة"القائمیّة"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاریّة و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

المیزانیّة الحالیّة لهذا المرکز، شَعبیّة، تبرّعیّة، غیر حکومیّة، و غیر ربحیّة، اقتُنِیَت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزاید و المتّسعَ للامور الدّینیّة و العلمیّة الحالیّة و مشاریع التوسعة الثّقافیّة؛ لهذا فقد ترجَّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسمَّی بالقائمیّة) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سماحة بقیّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفِّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم - فی حدّ التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفیق.